

رواية

نبي أرض الشمال

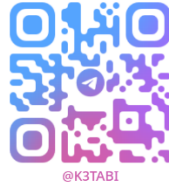
كتابخستا

أسامة عبد الرؤوف الشاذلي

الوراق للنشر والتوزيع



«مكتبة كتابيستا»
للمزيد زورونا علي تليجرام
t.me/k3tabi



نبي أرض الشمال

أسامة عبد الرؤوف الشاذلي

الطبعة الأولى: يناير 2026

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر



للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2

مدينة نصر - القاهرة - مصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

www.alrewaqpublishing.com

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: أحمد لطفي

تصميم الغلاف: كريم آدم

الترقيم الدولي: 4-357-824-977-978

رقم الإيداع: 2026 / 3785

إهداء

إلى من يضيؤون العتمة رغم الألم
ألقاكم في مكان يغمره النور حيث لا ظلام

سيدي المبجل نيتشه

لقد قلت إن الإله قد مات، ولكنني رأيته هذا الصباح يسقي نبتة برية على
جنبات الطريق المؤدي لمستشفى بيتي سالتريير، ورأيته في المساء يمر
بين أروقتها، زارعاً الأمل في قلوب مرضى لا يؤمنون به، لكنهم يثقون فيه،
فكيف كل هذا الحضور رغم الغياب؟

عمر القداح

(1)

المنصورة 1998

كان الجو خانقًا في حجرة شؤون الطلبة بكلية العلوم جامعة المنصورة في ذلك اليوم من شهر يونيو. سبعة من المكاتب تتقاطع في ترتيب عجيب، وتصنع بينها ممزًا لا يتجاوز عرضه عشرين سنتيمترًا، ولا يسمح بالمرور إلا بجانب الجسد، ومع ذلك تكتظ الحجرة بالطلبة والموظفين. شققت طريقي بين الأجساد المتعركة، ثم سألت عن الموظفة المسؤولة عن المنح الخارجية، ولسوء حظي وجدت أن مكتبها يحتل نهاية الحجرة، مما يعني مزيدًا من الاحتكاك، ومزيدًا من رائحة العرق. رأيتهما تجلس على المكتب خلف كومة من الملفات، فأثارت بدانتها فضولي لأعرف كيف استطاعت العبور بجسدها في ذلك الممر الضيق. ورغمًا عني، تساءلت عن مدى قابلية كتلة من الدهن للانضغاط بين طرفي مكبس! تقدمت منها بعد أن تنحى الواقف أمامي جانبًا، واهبًا لي براجًا إضافيًا وهواءً ساخنًا مشبعًا بالرطوبة من مروحة السقف التي تعلوها، وقلت:

- مساء الخير، أريد أن أتسلم موافقة الجامعة على المنحة.

- ما اسمك؟

- عمر القداح.

رفعت نظرها نحوي مبتسمةً وقالت:

- قداح!

اعتدت تلك الابتسامة علي لقبي غير المألوف. فطيلة سنوات الدراسة، من الابتدائية وحتى التخرج، وأنا القداح الوحيد بكل صف، ولم يصادفني أن حمل أحدهم اللقب نفسه. بحثت عن معنى اللقب منذ سنوات في المعجم، ممارسًا هوايتي في البحث عن أصل الكلمات ومعانيها، فوجدت أن القداح هو بائع الأقذاح، أو من يقدح الشرير لإشعال النار، وتساءلت حينها هل كان جدي الأكبر تاجرًا للأكواب أم مشعلًا للنيران؟!

مالت إلى كومة من الملفات عن يمينها، لا تحمل أية أرقام، ثم مدت يدها واستخرجت ملفًا يشبه العشرات من حوله. تعجبت من قدرتها الأرشيفية في تمييز الملفات وسط كل هذه الفوضى، ثم منحتني الموافقة، بعد أن وقعت

على صورة بتسلم الأصل. انصرفت سعيًا بانتهاء الخطوة الأخيرة في إعداد أوراق المنحة، ولم يتبق أمامي سوى تحديد موعد في السفارة الفرنسية.

كانت البداية قبل عام حينما استدعاني الدكتور صوّان رئيس قسم الفيزياء إلى مكتبه. كان صوته الجهوري يخترق جدران حجرة مكتبه ويصل إلى حجرة السكرتارية الضيقة التي أجلس بها، وبين الفينة والفينة أسمع صوت كفه الضخم وهو يرتطم بسطح المكتب. لم يكن يتشاجر، بل كان يتحدث فقط، وارتطام كفه بسطح المكتب لا يعني الغضب أو الاعتراض، بل هو نقطة النهاية لجملة، وبداية لجملة جديدة. جاء النداء عاليًا، من خلف الباب المغلق:

- يا زينب! أين عمر القداح؟

- موجود يا دكتور.

فتحت الباب، فوجدته يجلس مع الدكتور مهدي نائبه، أشار إلى أريكة مهترئة من الجلد، ثم قال لي:

- اجلس.

جلست على الأريكة، فبرزت قطعة من الإسفنج من شق في وسادتها بين ساقي مباشرة. عبثت بها لإراديًا، كي أخفف من توتري الذي طفر عرقًا على جبهتي، وخلف أذني. كان يتفحص باهتمام طلب السفر الذي وضعته السكرتيرة أمامه، وقال من دون أن يرفع نظره نحوي:

- منذ متى وأنت معيد بالقسم يا عمر؟

- أربع سنوات يا دكتور صوّان.

- لا زلت صغيرًا! لماذا تريد السفر؟

- هي فرصة جيدة كي أتعلم أشياء جديدة.

- كيف حصلت على هذه المنحة؟

قلت متلعثمًا:

- المنحة مقدمة من المركز الثقافي الفرنسي، وهي لا تشترط سوى اللغة وموافقة جهة بحثية في فرنسا.

رفع نظارته وقال باهتمام:

- وهل حصلت على موافقة جهة بحثية في فرنسا؟
- نعم، حصلت على موافقة رئيس قسم الفيزياء الجيولوجية في جامعة مارسيليا، اسمه دكتور سلطان مازيس، وهو من أصل تونسي.
- رفع حاجبه دهشةً، وتبادل النظر مع الدكتور مهدي، فقد كان اسم مازيس اسمًا معروفًا في هذا التخصص. ثم قال لي:
- وهل تجيد اللغة الفرنسية؟
- ابتلعت ريقى ثم قلت:
- لقد درستها خلال العامين الماضيين، واجتزت المستوى المتقدم في اختبار اللغة.
- خبط بيده على المكتب فانتفضت، ثم قال للدكتور مهدي:
- هذا جيل لئيم يا دكتور مهدي، تخيل أن هذا الفسل كان يرسل السفارة الفرنسية ويرسل أكبر أستاذ في فرنسا، ويتلقى دورات لدراسة اللغة، ونحن لا ندري!
- ثم خبط بكفه مرةً أخرى على سطح المكتب، وقال:
- هل كنت تنوي السفر من دون إذننا؟
- تصبب جبیني عرقًا، وشعرت بالطنين يتزايد في أذني، ثم قلت بصوت متردد:
- لقد كنت أنتظر رد السفارة أولًا يا دكتور صوّان!
- ابتسم الدكتور مهدي وقال مداعبًا:
- بل هذا جيل أكثر ذكاءً وسرعةً منا يا دكتور صوّان.
- ثم ربت على كتفي وهو يقول:
- مبروك يا عمر، الدكتور صوّان يمازحك فقط.
- انفجرت أساري، حين ابتسم الدكتور صوّان وقال:
- وهل اخترتم موضوعًا للبحث؟
- نعم، تطبيقات الموجات الصوتية في دراسة باطن الأرض.
- قال الدكتور مهدي:

- أحسنت يا عمر، هذا تخصص جديد ونادر وسيفيدنا في مصر.

أشاح الدكتور صوّان بيده، ومد إصبعه الطويل نحوّي وقال:

- أتحدّاك لو عاد إلى مصر، سيظل في فرنسا، أو سيرحل إلى الخليج.

التزمت الصمت وأنا أنظر إلى إصبعه الممدود، وكأنه يتحسس المستقبل. وتذكرت رغماً عني ما قرأته عن العلاقة بين حجم الكف وفحولة صاحبه في كتاب رجوع الشيخ إلى صباه، معلومة قرأتها مراراً، وظلت تؤرقني كلما نظرت إلى كفي الصغيرة التي تشبه كفوف النساء. كان محقاً في أنني لن أعود إلى مصر بعد انتهاء المنحة، ولكنه أخطأ حين ظن أنني من

الممكن أن أرحل إلى الخليج، فما لم أخبره به هو أن المنحة لم تكن سوى جسر أعبر به نحو الشمال، وبعدها سوف أتسلم وظيفتي باحثاً في جامعة مارسيليا، هكذا اتفقت مع الدكتور سلطان مازيس. وهكذا خططت لرحلة بلا عودة!

أعترف بأنني أمتلك بعض اللؤم، ولكن ما السبيل إذا كان طريق العلم هنا متربّياً ومغلّقاً بفعل الإهمال؟ تذكرت حين التحقت بالكلية، وكنت أضع صورة الدكتور علي مصطفى مشرفة على حائطي أيقونة أتشفع بها كل صباح، ولكن بعد مرور أشهر قليلة، أدركت أن شفاعتها لا ترتجى أمام الواقع الذي تغير، وانحط درجات عن الماضي. اجتهدت في الدراسة، لا لشيء إلا لألحق بقطار التدريس بالجامعة، ذلك القطار الذي يري الراكب فيه محطته الأخيرة بمجرد أن يركبه، ماجستير، ثم دكتوراه، ثم ألقاب علمية متتالية، وأخيراً منصب إداري ينهي به الأستاذ حياته المهنية. رحلة رتيبة، لا يشعر فيها المرء بالإثارة، المهم أن يركب القطار حتى يصل إلى منتهاه. ولكنني منذ وطئت قدماي ذلك القطار، وأنا على يقين من عدم وصولي إلى نهاية الخط، سأترجل عند أول فرصة، لأصل إلى أرض جديدة أجد فيها علماً حقيقياً.

قطع تفكيري صوت الدكتور صوّان وهو يوقع بالموافقة قائلاً:

- بالتوفيق يا عمر.

ثم أردف وكأنه قد قرأ ما يدور في عقلي:

- ولا تنس فضل الجامعة التي علمتك.

(2)

مارسيليا 325 ق.م.

كان قد انتهى لتوه من عصر الزيتون، فجمع الزيت المصفى في أمفورة كبيرة، حملها من مقبضها، ثم صعد بها الدرج، ووضعها فوق مصطبة إلى جوار باقي الأمفورات. نظر إلى ساعة الماء فوجدها تزيد عن المنتصف بقليل، فأدرك أن هناك متسعًا من الوقت كي يتحمم ويرتدي الخيتون الجديد، قبل أن يأتي أخوه الأكبر لينوس ليحمل أمفورات الزيت التي أعدها إلى الميناء. يشعر اليوم بفرحة كبيرة، ففي هذا المساء سيلقي شعره لأول مرة أمام الجمهور فوق مسرح الأجورا. فمذ شهور، والاحتفالات لا تنقطع بسبب القائد الشاب، ألكسندر المعظم ملك مقدونيا واليونان، الذي تجوب جيوشه سهول ميزوبوتاميا ومضايقها، وتسقط تحت أقدامه جيوش الفرس في جوجميلا وأربيللا وتصل أخبار انتصاراته إلى مارسيليا محملة بصلوات النصر، وأهازيج الفرح.

«آه يا ألكسندر! وكأنك أمسكت بدرع آريس البرونزي في يد، وقيثارة أبوللو في اليد الأخرى، فكنت تقهر أعداءك بضربات آريس القاتلة، ثم تنشر الفن بنغمات أبوللو الساحرة. أنا لا أعرف كيف كانت حياتي من قبل، ولكنني أدرك الآن أن في الحياة متعة أعظم من الطعام والجنس، إنها نشوة الفن، أتمنى يا سيدي أن يأتي يوم أقف فيه فوق مسارح الإسكندرية، مدينتك الجديدة، كي ألقى بالشعر أمامك هناك». قالها لنفسه وهو يصب الماء على رأسه.

كان سعيدًا بانتصارات ألكسندر في الشرق، رغم أنه في الأصل ينتمي إلى ذلك الشرق! كانت عائلته تعيش على سواحل مدينة صور، التي تعرضت للخراب قبل عشرين عامًا، على يد الفرس، وأحرقت عن آخرها. لا يزال يذكر أباه وأمه، وهما يحملانه مع أخيه لينوس على سطح مركب صغير يقوده نوتي أحرق، وهم يبحرون غربًا، أملًا في الوصول إلى قرطاج! ولكن الأقدار اختارت لهم طريقًا آخر، حين ضل النوتي طريقه، ووصل بهم إلى سواحل مارسيليا، بدلًا من قرطاج!

يشعر دومًا بالامتنان للسماء التي اختارت له تلك الأرض موطنًا، رغم شعور الغربة الذي كان يعتلي كاهل أبويه حتى ماتا. لم يعد يحمل في جعبة ذكرياته من صور سوى لحظات الخوف والهرب، أما هنا، في مارسيليا، فلديه الكثير من الذكريات: وفات أبويه، وأخوه الأكبر لينوس، وأشجار الزيتون التي يقترب

عمرها من عمره، وجاره المقرب نقفور وعاهراته الفاتنات، وربات الأوديون اللواتي ملأن قلبه بحب الفن، وحوريات المعبد اللواتي تُهشت أجسادهن بعينيه المتلصصتين في صباه، وهن يتحمن في البحيرة المقدسة؛ والأهم من ذلك كله مسرح الأجورا الذي تعلق به قلبه وفتنه بسحر الشعر. لا يزال يذكر ذلك اليوم، الذي رأى فيه جمهرةً من الناس تلتف حول فرقة فوق المسرح، تقدم مأساة أوديب. جلس على المصطبة الأخيرة من المدرج وهو ينظر إلى الممثلين بذهول وهم يتحركون في رشاقة، ويتحدثون بكلمات مسجوعة تزلزل أصدائها القلوب، وتأسر نغماتها المشاعر. ارتجف حين رأى الممثل الذي يقوم بدور أوديب ينحني على جثة الملكة، ويخلع دبوسًا كبيرًا من ملابسها، ثم يقربه من عينيه وهو يقول: «ستظان أيتها العيان في الظلمة، فلا تريان من كان يجب ألا تراه، ولا تعرفان من لا أريد أن أعرف بعد اليوم، لن يرى الشمس المقدسة إنسان دنس مثلي، فعل كل هذه الجرائم البشعة»، ثم دفع الممثل بالدبوس إلى عينيه فسالت منهما الدماء وتخضبت لحيته باللون الأحمر. فصرخ الناس في فزع، وصرخ معهم، ولكنه أدرك بعد أن قام الممثل من مكانه، ووقف ليحيي الجمهور، أن الدماء كانت خدعةً، وأن عينيه لم يصبهما أذى، فالتهبت كفاه بالتصفيق.

يومها عاد من المسرح وقلبه مفعم بالإثارة، صعد إلى تلة دوميذ ووقف تحت أكمة الزيتون، وأخذ يستعيد المشاهد التي رآها في المسرح، وهو يلوح بيديه، ويجثو على ركبتيه، ويذرف الدموع الزائفة، مثل الممثلين. وحين خلد إلى النوم زاره مورفيوس إله الأحلام، ومنحه حلمًا مبهجًا، ظل يراوده لسنوات، فقد كان يرى نفسه يقف في ساحة الأجورا، وهو يلقي شعره على جمع غفير من الناس، فتحنى له الجباه، وتلوح له الأكف بالتحية. واليوم سيتحقق حلمه؛ ويلقي الشعر لأول مرة على مسرح الأجورا.

انتهى من الاستحمام، فعطّر جسده بزيت زهرة الفاوانيا، ثم ارتدى خيتونًا من الكتان، ووضع قدميه في نعل من جلد التمساح، وانتظر قدوم أخيه. شغل الوقت بإلقاء القصيدة، والتدريب على الأداء الحركي، حتى جاء صوت جلبة عجلات عربة لينوس وهي ترتقي مطلع الطريق إلى البيت. خرج متعجلًا من باب البيت ليستقبله، وقال في لوم:

- لماذا تأخرت؟

لم يرد لينوس، ولكنه حين اقترب اتضحت كدمة تحيط بعينه، فسأله في لهفة:

- هل تعاركت؟

أسند ذراعي العربة إلى حلقتين تتدليان من الحائط وهو يقول:

- مشادة بسيطة مع أحد السفسطائيين في الرواق.

- لا تبدو بسيطة!

ابتسم لينوس ساخراً وقال:

- أنت محق، فقد تحطمت أنف الرجل.

كان يعلم ما يدور في حلقات الرواق من جدل بين أتباع الفلاسفة، يصل أحياناً إلى حد التشاحن والعراك بالأيدي. لم يكن يهتم يومًا بتلك الأمور، ولم تستهوه تلك الجدليات التي يفني الفلاسفة أعمارهم في إثباتها. كان يرى أن الحياة أبسط من ذلك، وأن أجمل ما فيها أن نعيشها لا أن نحاول إثباتها. لكن أخاه كان غارقاً فيها حتى أذنيه، ولا سيما بعد أن صار من أتباع ذلك الرجل، المدعو المعلم بيثياس. لم يكن يعرف المعلم بيثياس قبل أن ينضم أخوه إلى جماعته، ولكنه عرف بعد ذلك أنه عالم ورجالة أتى إلى مارسيليا منذ سنوات، واستقر بها، ثم جمع الأتباع حوله بعلمه الغزير وآرائه التي كانت تثير الجدل أحياناً، وبالأخص آرائه عن ذلك الصانع الأول الذي يفوق في عظمته أرباب الأولمب. ورغم كراهية العلماء له، صار بيثياس من أكثر العلماء شهرةً في مارسيليا، ولا سيما بعد أن حدد موقع مارسيليا بالمزولة الشمسية. سأله متعاطفاً:

- ولماذا تشاحتما؟

- كان المعلم بيثياس يشرح كيف حدد موقع مارسيليا بحساب الظل، وبعد أن عرض حساباته وبرهن عليها، انبرى ذلك الشاب الذي ينتمي لإخوة بيثاغورس فجأةً، فجادله في فرضيته، واتهمه بالتلفيق، رغم أن المعلم قد برهن على كلامه بالمنطق وبالمعادلات السليمة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

قال لينوس غاضباً:

- اعترضت على كلام الشاب واشتبكت معه في نقاش، فتهكم علي، تجاوزت تهكمه فسبني، لعنته، فلكمني، فنال مني من اللكمات ما حطم أنفه.

كان يعلم أن أخاه يمتلك بجانب عقله الراجح، وسماحة نفسه، قلباً شجاعاً وجسداً قوياً، وهي صفات حببت عنهما شعور اليتيم منذ الصغر، وأوجدت لهما مكاناً في مدينة تضج بالمشاحنات ولا تحتمل في نسيجها طفلين فقدا أبويهما. قال له في جزع:

- وكيف انتهى الأمر؟

- فض الشباب المعركة، وغضب المعلم من فعلتي، وهددني بالطرد من مجلسه إذا عدت إليها، رغم أن الشاب هو من بدأ بالعراك!
قال له مهوّنًا:

- لا تحزن، هذا أفضل من الجدل مع السفسطينيين.

- أنا لا أحب الجدل، ولكن يضايقني صبر المعلم على هؤلاء الناس. الحقيقة يظهرها البرهان، وهم يظنون أنهم يحتكرون الحقيقة، وينعتون كل من يخالفهم بالجهل رغم أنهم لا يقدمون أي برهان!

لم يشأ قدموس أن ينزلق إلى حوار لا يعنيه، وكان يخشى أن يتأخر فقال:

- دعك من هذا الآن، لماذا لا تأتي معي؟

انتبه لينوس إلى زيه فقال مبتسمًا:

- إلى أين تذهب؟ تبدو متأنقًا وكأنك لست من جمهرة الكادحين!

رفع سبابته وقال:

- كنت من جمهرة الكادحين، ولكني بعد قليل سأصير شاعرًا مرموقًا.

- كيف؟

- دعاني مدير الاحتفالات لإلقاء الشعر على مسرح الأجورا هذا المساء!

قال لينوس مبتهجًا:

- هذا خبر عظيم!

- تعال معي، ستغني كاهنات الأوديون، وسيتبارى الشعراء فيما بينهم.

- لا وقت لدي، سأوزع الأمفورات على الحوانيت، وسأذهب بعدها إلى منزل المعلم بيثياس، أريد أن أمثل بين يديه للاعتذار.

ثم وضع في يده خمس دراخمات وقال:

- فلتحتفل بعد أن تكتسح منافسيك، ولكن لا تسرف في الشراب حتى تخبرني بما حدث في المساء.

(3)

ميت البرّ

تسلمت جواز السفر والتأشيرة من السفارة الفرنسية بالقاهرة، ثم توجهت إلى موقف عبود، كي أستقل سيارةً بيجو أجرة، إلى قرينتا ميت البرّ التابعة لمركز أجا بمحافظة الدقهلية. انطلقت السيارة على الطريق الزراعي فأخرجت رأسي من الزجاج متلمسًا بعض البراح في السيارة المكتظة بتسعة ركاب رغم أن حمولتها القصوى سبعة، ولكن الجميع توافق على أنه لا ضير من أن يجلس صبي على حجر الجالس بجواري وأن يملأ طفل في الخامسة المساحة بين الكرسيين الأماميين.

ضمنت كفي على جواز السفر المستقر في جيب سترتي كي أطمئن لوجوده، وأنا أتابع ببصري أعمدة الكهرباء الخشبية المتهالكة على جانبي الطريق الزراعي، وقد انتابني هاجس بأن أحدها سيسقط من شدة الميل. اقتربت السيارة من مدخل القرية فناديت على السائق:

- الجسر لو سمحت.

يسمي أهالي قرينتا محطة نزولهم عند القرية بالجسر بدلًا من اسمها ميت البرّ الذي يثير استظراف الركاب المتجهين نحو أجا شمالًا، ومع ذلك كانت حالة الفكاهة لا تلبث أن تنتاب الركاب، بعد أن تتوقف السيارة، ويقرأ أحدهم اللافتة الكبيرة التي توجد على مدخل القرية. علمت أن القرية قديمًا كانت تسمى مِنية البرّ، والمنية هي الميناء الصغير المطل على النيل، والبرّ بفتح الباء هي الملابس والعباءات المصنوعة من القطن أو الكتان، والتي كانت تشتهر بها قرينتا، ولكن بمرور الوقت نسي الناس أصل الكلمة، فحرّفوا معناها، وكسروا باءها!

ولقد حاول بعض أعيان القرية، ومن بينهم الشيخ حسونة إمام المسجد، تغيير الاسم الذي يثير السخرية منذ أمد طويل وتقدموا بطلب إلى المجلس المحلي بالمديرية، وبالفعل استجاب المجلس الذي رأى أن القرية لم تعد ميناءً، ولا يجوز إطلاق كلمة مِنية عليها، فاستبدلوا كلمة ميت بكلمة مِنية وتركوا البرّ كما هي!

عبرت الجسر الذي يمر فوق الترعة الوحيدة بالقرية، ثم سرت في الطريق الترابي الخالي من المارة في صبيحة يوم الجمعة. أحمل في يدي اليسرى

حقيبة سفري الجلدية، وفي يدي اليمنى جريدة أهرام الجمعة التي اشتريتها من بائع الصحف في موقف عبود. اقتربت من البيت، فرأيت أمي تجلس في الشرفة المظللة بسقف محمول على أعمدة دائرية، تضيء على البيت أبهةً، وتميزه عن باقي البيوت الطينية من حوله. استقبلتني في أحضانها ورائحة دقيق الذرة الذي صنعت منه الخبز المرحرح تفوح من جيدها. طبعت على كل خد من خدي ثلاث قبلات مسموعةً وهي تقول:

- حمدًا لله على السلامة يا عمر.

دخلت إلى صالة المنزل، فوجدت أمل تزيج طفلتها الرضیعة من فوق ثديها، وتضم فتحة الصدر في جلابها وهي تقول:

- نورت الدنيا يا عمر.

أدركت من هيئتها، أنها كانت تبيت في الدار، فقلت وأنا أضع الحقيبة:

- كيف حالك يا أمل؟ أرجو ألا تكوني قد غادرت بيتك غاضبةً.

أطرقت خجلًا، بينما قالت أمي:

- وهل سينصلح حال زوجها مندور؟! الله يلعنه بحق يوم الجمعة!

فقالت لها أمل مندفعةً:

- لا تدعي عليه يا أمي!

ثم أردفت:

- حمدًا لله على السلامة يا عمر، لست غاضبة من شيء.

كنت أعلم أنها تكذب، كما اعتادت أن تكذب دائمًا، تريد لحياتها أن تسير قُدَمًا حتى ولو كانت تحجل على ساق عرجاء. لو أن شيئًا سيؤرقني في السفر فهو أمل، وعلاقتها المضطربة بمندور، ولكن من يدري؟

فلعل سفري هذا يكون سببًا في عودة الوثام بينهما.

حين تقدم مندور لخطبتها كانت هي في الثامنة عشرة، وكان هو قد جاوز الثلاثين من عمره بقليل، لا يملك من مؤهلات الزواج شيئًا، سوى شهادة من الشيخ حسونة إمام المسجد بأنه ابن حلال وحين احتجت أمي على ذلك الزواج وقالت لأبي:

- تزوجها لابن فرحانة!! لا منصب، ولا مال ولا تعليم.

كان رد أبي حاسمًا:

- لم نسمع شيئًا عن أخلاقه، كما أن ابنتك لم تعد صغيرة.

والحق أن أمل كانت صغيرة، فضلًا عن أنها كانت جميلة، ولم تكن لتعدم خطابًا يفوقون مندورًا نسبيًا ومالًا، ولكن السبب الحقيقي الذي جعل أبي يختار مندورًا زوجًا لها هو الشيخ حسونة!

لم يكن الشيخ حسونة إمامًا للمسجد فحسب، بل كان لسان القرية وفؤادها. تجتمع القلوب على محبته، والقلوب لا تجتمع على باطل كما كان يقول أبي. كان مبصرًا بغير حواس، أو كما يقول الناس «فقد البصر وأوتي البصيرة» ومعها لسان مفوه وخطاب ساحر، تظلل كلماته الناس بالسكينة، فتمطر قلوبهم بالورع وتخشع عقولهم بالخدر. وكان أبي شديد الولاء له، ولهذا قصة!

فحين أنجبتني أمي كان أبي قد بلغ الأربعين من عمره، وقد انقطع عنه الولد لعشر سنوات، هي فارق العمر بيني وبين أختي أمل. وحين بشرته القابلة بمجيئي، حملني من فرحته والدماء لا تزال تتقاطر من سرتي، وذهب بي إلى المسجد كي يكبر الشيخ بنفسه في أذني اليمنى. وبعد أن عاد أسر إلى أمي بتلك العبارة «عمر هو بشارة الشيخ حسونة» ثم أخبرها بأن الشيخ حسونة رأى له رؤية قبل سنوات، وقال له «سيستقيم ظهرك بالولد بعد الأربعين».

ولعل هذه البشيرة هي التي جعلت أبي يهني للمسجد في سنوات عمري الأولى. وربما كنت أصغر الأطفال سنًا، حين انضمت إلى كتاب القرية، لحفظ القرآن، وحين بلغت الخامسة من عمري، كنت أكثر

الأطفال نبوغًا في الحفظ والترتيل، وصرت قادرًا على القراءة في المصحف، ورسم بعض الحروف والكلمات؛ وأراد أبي أن يلحقني بأحد المعاهد الأزهرية بالقرية، فقدم التماسًا كي يتجاوز المعهد عن شرط السن في الالتحاق، وحصل على وساطة الشيخ في ذلك، وكاد أبي يحقق مبتغاه، لولا أن وقعت تلك الحادثة التي قلبت حياتي رأسًا على عقب، وسلكت بي دربًا ما كنت أظن أنني سالكة! كنت رغم نبوغي في الكتاب أحب اللعب، والمزاح، ويمنحني تفوقي جرأة بين أقراني على فعل ما لا يستطيعون. فتفتق ذهني ذات يوم عن فكرة أن أقيم تحديًا بين أقراني على من يستطيع سرقة أحذية المصلين وأن يلقي بها في المصرف. وبدأت أنا بالتحدي! اختبأت خلف شجرة، وانتظرت حتى بدأ المصلون في التوافد إلى المسجد بعد أذان الظهر. ووقع اختياري على شاب يهرول كي يلحق بالإقامة، فأشرت إلى أقراني، بأنه سيكون هدفي. وبالفعل، لم يكد الشاب يدخل إلى المسجد ويترك حذاءه، حتى خرجت من مخبئي، وفي لمح البصر التقطت الحذاء، ثم أخفيت تحت

جلبابي، وسرت بهدوء حتى وصلت إلى المصرف المجاور للمسجد، ثم قذفت بالحذاء فيه، وعدت إلى مخبئنا مرةً أخرى والأطفال ينفجرون بالضحك. ربما انتابني بعض الخوف حين خرج الشاب وأخذ يبحث عن حذائه في قلقي، ولكن الإثارة التي شعرت بها وضحكات أقراني وفرحتهم بي، شجعتني على أن أكرر اللعبة أكثر من مرة على مدار أيام متتالية حتى سرى بين المصلين أن هناك لصًا يسرق أحذيتهم. وفي يوم من الأيام كنا نقف خلف الشجرة، حين رأينا الشيخ حسونة يتكئ على عصاه ويسير نحو المسجد. همس أحد الأطفال وكان أكبرنا سئًا قائلاً:

- من يسرق حذاء الشيخ حسونة؟

شهقوا جميعًا، فوجدته يمسك بكثفي ويقول:

- لو كنت رجلًا، افعلها!

نظرت إلى عينيه اللتين تدعوانني لقبول التحدي، فقبلته. انتظرت حتى خلع الشيخ نعليه، وتجاوز العتبة التي يحفظ ارتفاعها عن ظهر قلب، ثم غاب داخل المسجد. تعلقت عيني بالنعل المبجل للحظات، ثم انطلقت نحوه مهرولًا. انقضضت عليه ثم أسرعت إلى حافة المصرف وقذفت به في قوة. توقعت أن أسمع ضحكات أقراني تملأ الفضاء، ولكني لم أسمع شيئًا، التفتُ ورائي فوجدت خادم المسجد يقف خلفي كالمارد. حملني بيد واحدة وهو يقول:

- أمسكت بك يا ابن الكلب يا حرامي.

ثم نالني منه بعض الصفعات وهو يحملني إلى داخل المسجد. انتظر حتى فرغ الشيخ حسونة من صلاة السنة، ثم مال على أذنه ليخبره بما حدث. ورغم أن الشيخ أمره بإطلاق سراحه، توعدني الرجل بأن يخبر أبي بما فعلت.

وحين عاد أبي من عمله. سمعت صوته هادرًا غاضبًا وهو ينادي بعنف:

- ولد يا عمر!

أسرعت بالاختباء تحت سرير أختي أمل، وأنا أرتجف في مخبئي. سمعت أمي تسأله:

- خير يا حاج؟

لم يجبها ودخل إلى حجرة أمل وصرخ مرةً أخرى:

- أين عمر؟

ربما وشت نظرات أمل بمكاني، وربما أشارت إلى مخبئي خوفاً منه. ولكنني على أية حال سمعته يقول لها اخرجي، وسمعت الباب يغلق. شعرت ببولي ينساب على فخذي دافئاً، ثم بيده تنتزعني من تحت السرير. صرخت، ولكنه لم يأبه، رماني فوق السرير، ثم انتزع عصاً من الخيزران كان يستخدمها في تأديب تلاميذه، من فوق الدولاب وهو يقول:

- أرسلتك إلى الجامع لتحفظ القرآن، لا لسرقة الأحذية يا ابن الكلب!

ثم انهالت الخيزرانة على كتفي، وجسدي، وفخذي وأنا أصرخ من لسعاتها متألماً. فجأةً ضلت إحدى الضربات طريقها فصفعت أذني اليمنى. شعرت بطينين يملأها وكأنها صرخة مارد. انخفض صوت أبي وسمعت صوت صراخي مضاعفاً وكأن صداه يرن في جوفي.

شغلني إحساس الألم عن الشعور بخيط الدماء الدافئ المنسل على خدي. اكتفى أبي بالضرب، فألقى الخيزرانة إلى جوارِي وخرج من الحجرة لاهئاً. اندفعت أُمي نحوي، ملتاعةً، ولكنها لم تُظهر ذلك حتى لا تزيد من غضبة أبي. قالت لائمةً وهي تحتضنني:

- كفاك شقاوةً يا عمر، أنت لم تعد صغيراً.

أتاني صوتها أيضاً خافتاً محاطاً بالطنين، وكأنما يأتي من جب سحيق. شعرت بالهدوء في حضنها، رغم ألمي من هدهدة يديها على موضع اللسعات. فجأةً ابتلت يدها بالدماء. تفحصت أذني بقلق، ثم نادى على أبي في خوف:

- يا حاج، تعال!

جاء أبي بوجه جامد. أشارت إلى أذني وقالت في خوف:

- الدم ينسل منها.

مد يده نحوي، فانكمشت خوفاً وأجهشت في صمت. أمسك أذني وتفحصها ثم قال محاولاً طمأنة نفسه وطمأنتها:

- مجروحة فقط، اكبسيها بحفنة بن.

ثم قال لي وكأنه يؤكد على الدرس المستفاد من الواقعة:

- تستحق الضرب، حتى تتذكر أنك مختلف عن الآخرين.

ولم يدر أبي حينها أنني بالفعل قد صرت مختلفاً عن الآخرين. التهبت أذني بالجرح الذي أحدثه في طبلتها. وربما تسببت حفنة البن في إحداث عدوى بها،

فنخرت عظامها، وتشوهت لحمتها حتى صارت كزهرة القرنبيط المقلية. خضعت لجراحات عدة باءت بالفشل. وكان على أبي أن يتقبل حقيقة أنني قد فقدت السمع بأذني اليمنى، تلك الأذن التي كبر فيها الشيخ حسونة يوم مولدي! وانقضى عام في رحلة العلاج، لم أتردد فيه على المسجد، ونسيت فيه متعمدًا الكثير مما حفظت من القرآن. وتنازل أبي عن حلمه في إلحاقني بالتعليم الأزهري، والتحقت بالتعليم النظامي، وشعرت رغم صغري، بنشوة الخروج عن سلطة أبي. ومن عجائب القدر أن عدت للسمع بتلك الأذن مرة أخرى بعد وفاة أبي بأشهر قليلة. وكان أول صوت أسمعه بها، هو صوت عمي منير.

(4)

الأجورا

هبط من تلة دوميذ وسار بمحاذاة الميناء، ملأ صدره بعبق البحر، ثم نظر إلى صفوف السفن الشراعية المتراسة على ضفتي الخليج، والتي تحمل البضائع إلى مارسيليا، من مصر والهلال الخصيب، وتعود محملةً من مارسيليا بزيت الزيتون والخمور وقطع الصابون.

تجاوز ضحيج الميناء ثم قطع ساحة النصر وسار مع جموع الناس نحو ساحة الأجورا فوق طريق مبلط بالحجر، تحفه من الجانبين أحواض الزنابق وخمائل البنفسج وأشجار السرو المقلمة. عبر أسفل بوابة الساحة التي يحملها اثنا عشر عمودًا، ينتصب أمام كل واحد منها تمثال لرب من أرباب «الأولمب» الاثني عشر.

وصل إلى مدرج المسرح، فوقف عند الدرج الأخير، ليشاهد العرض المقدم. كان عرضًا للأنشودة الأخيرة من ملحمة «الأوديسة» لشاعرها الملهم هوميروس، يلقيها اثنان من الشعراء الهواة، بيدلان أصواتهما بأداء باهت غير جذاب. شعر بالملل، وتمنى أن تحين اللحظة التي يأتي فيها دوره، كي يقف مكانهما ويلقي شعره. نظر إلى البرج الذي يحمل مزولةً شمسيةً، فأدرك أنه لا يزال أمامه خمس درجات حتى يحين دوره. أنهى الشابان عرضهما، فلم يحصلا على تصفيق كاف، انصرفا وهما يشعران بالخزي.

فجأةً اشتعلت المدرجات بالتصفيق، وظهرت جوقة من تسع كاهنات لربات الفن، يقفن في شرفات قاعة «الأوديون»، يحملن النايات، والقيثارات، والصنوج، والمزامير.

عزفن في البداية مقطوعةً جنائزيةً، وقف لها الجمهور خشوعًا، ثم أتبعنها بمقطوعة من الألحان العذبة، أثارت حماسة الجمهور، مع رقصات حوريات المعبد تحت الشرفة. شعر بنشوة الألحان تسري في دمائه، فأغمض عينيه وأخذ يتمتم بكلمات تناغمت مع اللحن الشجي. فتح عينيه متنهّدًا، ثم استدار برأسه متطلّعًا إلى المزولة، ليعلم كم بقي من الوقت، فلمح ظلًا يتلوى على الأرض في إيقاع له نغم، من دون أن يظهر صاحبه المحتجب خلف أحد الأعمدة. تمنع فيه، فوجده ظلًا لفتاة تتمايل بخصر نحيل، ويهتز شعرها كالأكمة فوق خيال جسدها المنسكب على الأرض في غواية. قام من مكانه، فارجًا فمه بالابتسام، وقد وسوست له حركات جسدها بالسعادة. اقترب منها

من دون أن تشعر، رآها تدور على أطراف أصابعها حالمةً، مغمضة العينين، وكان ربات الفن يسكنن في أذنيها النغمات ويهمن بها في عالم مسحور. وقف يتأمل شعرها الأحمر المتموج في اشتباك كزهرات القطيفة المخملية، وانسياب جسدها خلف ردائها الذي ضاق عند الخصر وانحسر عند الكتفين، فكشف عن كهفي إبطيها المضيئين بالفتنة، ومنبت نهديها اللذين ارتويا بغواية «أفروديت»، وقد استقرت بينهما قلادة ذهبية على شكل نجمة خماسية. هل سمعت الفتاة صوت ابتسامته التي اتسعت عنها شفتاه حتى كادت تلامس أذنيه؟ أم لفحتها حرارة نظراته؟ لا يعلم، ولكن الفتاة فتحت عينيها فجأة ثم جفلت مرتبكة حين رآته! ارتبك هو الآخر، وهم بالاعتذار عن تلصصه، ولكنها انسلت في سرعة بين الجماهير تاركَةً وراءها ظلها الذي صاحبه في خياله وهو يعود إلى مكانه على درج المسرح. توقفت الموسيقى، فاشتعلت المدرجات بتصفيق الجماهير التي نثرت الورود على الحوريات وكاهنات الربات الملهمات. حينئذ ظهر مدير الحفل وقال بصوت جهوري:

- والآن يا جماهير مارسيليا، أقدم لكم شاعرًا من العامة اسمه قدموس يلقي عليكم قصيدةً من تأليفه لأول مرة.

باغته النداء، فنزل الدرج مسرعًا. شحذ همته كي يؤدي أداءً جيدًا، وعزم على أن يستغل ضعف الشعارين السابقين، كي يظهر الفارق بينه وبينهما. ولكنه حين وقف في منتصف المسرح، شعر بالرهبة من مئات العيون التي تتطلع إليه من كل جهة. زفر زفرةً طويلةً كي يستعيد ثقته، ثم قال في صوت خافت:

- هيا يا قدموس، هذه هي فرصتك الكبرى.

سحب نفسًا عميقًا، ثم اتخذ وضعية التمثيل. أدار ظهره للجمهور، ثم جثا على ركبته اليمنى، وأسند جبهته على كفه اليسرى، وظل متيبسًا للحظات عن الحركة، وكأنه تمثال من الحجر. جذبت وضعيته انتباه المشاهدين، فتوقفوا عن الهمهمات، والتزموا الصمت في انتظار ما يفعله ذلك الشاعر المجنون. فجأة رفع رأسه ببطء ثم قال بصوت رخيم تردد صداه في جنبات المسرح:

- «أحببت فتاةً اسمها أليسا»

ثم قام من ركوعه، واستدار ليووجه الجماهير وهو يقول بلسان عاشق وجسد ينفع بكل كلمة يقولها:

«أحببت فتاةً اسمها أليسا»

ذات جبينٍ منحنيٍّ وخدٌّ أسيل

يموجُّ شعرها الأسود في الفضاء

فتشرقُ الشمسُ من أطرافه في الصباح
ويضيءُ القمرُ من حواشيه في المساء
تفيضُ الغدرانُ الصافيةُ لضحكها
وتزهو المروجُ الخضراءُ بهمسها
وحين نازعني عقلي في حبها
وسألني...

كيف تحبُّ فتاةً غريبةً؟
أجبتُه..

أنا أيضًا غريبٌ!
ويكفي أن اسمها أليسا!»

أنهى قصيدته، ثم وقف في انتظار رد الجماهير. مرت لحظات من الصمت، خفق لها قلبه، ثم فجأةً علت صيحات الجماهير مصحوبةً بحرارة التصفيق، ترقرقت دموع الفرحة في عينيه فانحنى احترامًا، ثم رفع رأسه وغادر المنصة. وبينما كان يصعد الدرج لمح الفتاة ذات الشعر الأحمر تقف في الصف الأخير، تلاقت أعينهما لوهلة. فانعطف نحوها، وقد عزم على أن يعتذر لها عن تلصصه. مر بين صفوف الرجال الذين كانوا يضربون على كتفه في تشجيع، وهو يومئ لهم في سعادة، وعيناه لا تغادران هدفه. فجأةً احتجبت الرؤية أمامه حين قطع طريقه جاره نقفور البدين وهو يقول:

- لقد أبدعت يا عاصر الزيتون.

شكره مبتسمًا وحاول أن يتفاداه ليكمل طريقه، ولكنه اصطدم مرةً أخرى ببطن نقفور العظيم، الذي قال:

- الليلة أدعوك للشراب وبعض العبت في منزلي احتفالاً بهذا الحدث الجميل.

شكره مرةً أخرى وقال:

- بالتأكيد يا جاري العزيز. ألقاك بعد الغروب.

ثم تجاوزه بصعوبة، ونظر إلى موضع الفتاة فلم يجدها. تلفت يمينًا ويسارًا فلم يجد لها أثرًا. صعد الدرج الأخير في يأس، وقبل أن ينصرف وجدها تقف تحت برج المزولة، تعبت في زهرة في يديها. أحس من وقفها أنها في

انتظاره، ابتسم في ثقة ثم توجه نحوها، ولكنه لم يكد يتحرك حتى أسرع بالمغادرة. مشى وراءها، وهو يحرص على ألا تغيب عن عينيه.

تجاوز البوابة ثم خرج إلى جادة الطريق، أبطأ السير حين رآها تسير الهويني تتأمل الباعة على جانبي الطريق، وتقف بين الفينة والفينة لتشمم عطرًا أو تتأمل عقدًا من اللؤلؤ أو الكهرمان من دون أن تعيره اهتمامًا. خطر له أن يختبر شعورها بوجوده. استتر بين الناس، ثم أسرع الخطى إلى نهاية الطريق واختبأ خلف جذع شجرة سرو. رآها تلقي بلحظ خاطف وراءها، وافتضح أمرها حين تلفتت حولها، وكأنها تبحث عنه! تركت البائع، وأكملت سيرها نحو نهاية الجادة عابسةً، فجأةً خرج إليها من خلف جذع الشجرة وهو يقول:

- تبحثين عني، أليس كذلك؟

شهقت في رعب ثم قالت في حدة:

- هل تهوى التلصص على الفتيات؟

ركع على ركبته وقال:

- كلاً، ولكنني أردت الاعتذار عن المرة الأولى.

ثم قدم لها زهرةً متفتحةً، اقتطفها من خمائل البنفسج التي تحف الطريق وقال:

- اقبلي مني اعتذاري.

تناولت الزهرة بسعادة، ثم تشممتها بفرح وقالت:

- كيف عرفت أنني أحب الزهور؟

- لا توجد امرأة رقيقة لا تحب الزهور.

- أنت شاعر، وتجيد الكلام.

قام من مكانه وقال:

- هل أحببت العرض الذي قدمته؟

قالت في مكر:

- لم أسمع منه شيئاً، كنت في الصف الأخير.

رد بمكر مثله:

- لا بأس، أستطيع أن أعيدته عليك، لقد كنت ألقى المشهد الأخير من الأوديسة.

ثم سقط على ركبتيه أمامها وقال بصوت جهوري وقد رفع ذراعيه في حركة مسرحية:

- «يا ابن أتريبوس العظيم، يا ملك البشر ويا ربيب زيوس، دعنا نصدقك القول، لقد غازلنا زوجة أوديسيوس وراودناها عن نفسها، ولكن هل تدري ماذا قالت لنا؟»

ثم قام من مكانه وقال في صوت نسوي رقيق مقلدًا زوجة أوديسيوس:
- «أيها العشاق! ما دام أوديسيوس العظيم قد مات، فاصبروا حتى أغزل كفته بيدي».

غمرها الضحك من طريقة تمثيله وقالت:

- أنت كاذب، لم تمثل هذا المشهد.

ثم أردفت:

- كما أن شعرك كان أجمل من هذا.

- إذن فقد سمعته.

- نعم، وأغبط حبيبك.

- من هي حبيبتك؟

قالت في غيرة:

- أليسا، التي غنيت لها هذا الشعر.

رفع ذؤابة شعره الطويل من فوق جبهته كي ترى عينيه، ثم قال:

- ليس لي حبيبة اسمها أليسا.

ثم أردف مرتبكًا:

- ولكنني أستطيع أن أبدل اسمك باسمها ما دمت تغبطينها.

تفتحت وجنتاها بحمرة زهرة الأماريلليس، وهي تقول بصوت حالم:

- اسمي أيولا.

شعر بنغم يتسلل إلى فؤاده مع حروف اسمها وقال:

- أيولا! هذا أرق اسم سمعته في حياتي. من اليوم ستكون قصيدتي «أحببت فتاة اسمها أيولا»

ارتبكت لجرأته، فاستأنفت السير كي تتغلب على ارتباكها. كانا قد خرجا من الطريق الرئيسي وسارا في

مرج واسع من العشب، يمتد حتى سفح الجبل، وكانت السحب في الأفق الغربي، تفتت عن ابتسامة يتسلل منها قرص الشمس الذي أسقط رداءه الذهبي، وارتدى حلتها البرتقالية. جذب انتباههما غيضة الماء التي تقع في منتصف المرج وتنمو على حوافها زهور اللوتس، وقد امتلأت بعشرات الطيور من النحام الوردي الذي يفد إلى تلك الغيضة في بدايات الربيع، فشعرت بنشوة، جعلتها تقف على ساق واحدة مثل الطائر، وتدور حول نفسها وهي تبسط ساعديها. تركها في هيامها وبعد أن انتهت سألها:

- رأيتك ترقصين على نغمات الكاهنات ببراعة. كيف تعلمت ذلك؟

- أتعلم الرقص في معبد ربات الفن وأجيد العزف على الناي.

ظنها من حوريات المعبد، وكان يحرم عليهن الزواج، فقال في قلق:

- هل أنت من حوريات المعبد؟

ابتسمت قائلة:

- كلاً، أنا أتعلم الموسيقى فقط، لأن أهلي يقدسونها.

- يقدسون الموسيقى؟

- نعم، لأنهم يقدسون الأرقام.

- وما علاقة الموسيقى بالأرقام؟

- ربما سأحكى لك عن ذلك لاحقاً.

كانا قد وصلا إلى تلة مرتفعة فتوقفت أمامها ثم قالت:

- يقع هنا خلف هذه التلة، سأصعد وحدي، فأهلي لا يحبون الغرباء.

قال في وجد:

- متى أراك ثانية؟

تصنعت الخجل، وقالت وهي تصعد التلة مسرعةً:
- لا أعرف.

قال بصوت عال:

- لا تتركييني في حيرتي يا أيولا.

لم ترد، حتى وصلت إلى أعلى نقطة في التلة ثم استدارت وأشارت إلى شجرة سنديان ضخمة قرب غيضة النحام وقالت:

- تنتهي دروسي في المعبد غدًا عند الأصيل. ربما ألقاك عند تلك الشجرة صدفةً.

ثم رفعت يدها التي تحمل زهرة البنفسج، ولوحت بها مودعةً.

في تلك الليلة أسرف في الشراب في بيت جاره نقفور. كان يترنج بين أحضان الغانيات والجواري اللاتي أتى بهن نقفور ويردد بلسان أثقله الخمر:

- لا خمر مثل خمر نقفور ولا نساء مثل نسائه!

ضحك الحضور، بينما قال نقفور:

- لو استمعت إلى نصحي وبعثني معصرة الزيتون، أو شاركتني في عصر الخمر، لامتلكت فتيات أجمل منهن يا قدموس، ولكنك مثل أخيك، تعشق الفقر أيها البائس.

دارت رأسه، فسقط على الأريكة وسقطت الفتاة التي كان يراقصها على حجره. تأوه ألما فتعالت الضحكات. تحسس وجه الفتاة ونحرها بأنامله ثم قال:

- بل أبيعك نصيبي في المعصرة من أجل هذه الفتاة.

قال نقفور ضاحكًا:

- وأنا وافقت. هيا لنكتب العقد.

دفع الفتاة بعيدًا عنه فسقطت فوق بطن نقفور العظيم، ثم قال بعقل أذهبه الخمر:

- كلاً، لن آخذ الفتاة. أنا أريد أيولا فقط.

ضحك نففور قائلاً:

- من هي أيولا؟

قال في لوعة:

- أيولا، حورية الأوديون التي تسكن فوق تلة النحام.

لم يفهم نففور ما يقوله، فقام مترنحاً ثم أخذ منه الشراب، وقال:

- يكفي هذا يا قدموس، عد إلى بيتك.

انتبه، فقال:

- بيتي!

- نعم، فقد ذهب عقلك، ولا أريدك أن تتبول على أريكتي.

- حسناً سأذهب كي أتبول على أريكتي أنا.

ثم قام من مكانه وهو يتمايل من السكر، فنادى نففور على خادمه، وأمره بأن يرافق الضيف إلى بيته. وصل إلى البيت وما إن تجاوز عتبه، حتى سقط على وجهه وغط في نوم عميق. في اللحظات الأخيرة من نومه زاره مورفيوس إله الأحلام. أعاده طفلاً يقف على ضفاف نهر رودانوس في الليل، يتطلع خلسةً إلى فتيات الأوديون، وهن يستحمن في مياه النهر كما كان يفعل دائماً. فجأةً خفق قلبه وهو يرى فتاة ذات شعر أحمر تتقدم بينهن. خلعت ملابسها ووقفت عاريةً إلا من قلاحتها، لتستحم على حافة النهر. انساب على جسدها المرمرى ضوء القمر، مختلطاً بقطرات الماء التي تصبه، فبدأ خليطهما كحبيبات الفضة. فجأةً التفتت الفتاة نحو مخبئه ونظرت تجاهه وكأنها تراه. ثم رفعت يدها التي تحمل الكأس في إغواء، وصبت الماء فوق شعرها المتوهج، تعجب أن الماء لم ينسل من بين خصلات الشعر، وكأن رأسها غور عميق. صبت عليه ثانيةً وثالثةً، ثم وضعت الكأس جانباً. ابتسمت، وكأنها لا تخشى نظراته المتلصصة، ثم دنت برأسها نحوه وقد تقاطع ساعداها حول صدرها. فجأةً فار الماء من حول شعرها المتوهج، وتطاير وكأنه حمم بركان ثائر، تراجع عنها مذعوراً، ولكن قبل أن يفلت منها، غمرته موجة عاتية من الماء، جعلته يستيقظ من نومه فزعاً.

استيقظ على دفقة ماء ألقاها لينوس من الجرة على وجهه، حين رآه ينام أمام عتبة بيته مستلقياً على ظهره. فتح عينيه بصعوبة، وقام من نومه وقد

نخر الصداع رأسه. ثم قال: .

- لينوس!!

- لماذا تنام هكذا؟

أمسك رقبتة المتألّمة وقال:

- أسرفت أمس في الشراب في منزل نقفور.

- لقد انقضى أول النهار، متى ستبدأ في عصر الزيتون؟

انزعج لاستمراره في النوم إلى ذلك الوقت المتأخر، ولكنه التمس لنفسه عذراً وقال:

- معذرةً يا لينوس، كنت أشعر بنشوة النجاح، فأسرفت في الشراب.

سأله عما حدث في الأجورا، فزال الصداع، حينما تذكر أحداث اليوم السابق، حكى له عن سعادة الجماهير بقصيدته، والثناء الذي غمره به الجميع، ثم شرع يحكي له عن الفتاة التي قابلها، ووصف له جمالها ورقتها، وحين استرسل في الحديث، وأخبره بأن الفتاة من عائلة تقدر الموسيقى والأرقام، وأنها تسكن فوق تلة بالقرب من غيضة النحام، سأله في اهتمام:

- هل ذهبت معها إلى حيها؟

- كلاً، أخبرتني بأن أهلها لا يحبون الغرباء.

حينئذ عبس وجه لينوس وبان عليه الوجوم.

فسأله قدموس:

- لماذا تبدو واجماً يا لينوس؟

رفع لينوس رأسه ثم قال:

- هل كانت الفتاة ترتدي قلادةً عليها نجمة خماسية؟

رفع حاجبيه دهشةً، وقال:

- نعم، كيف عرفت؟

عض على شفته وهو يقول:

- ابتعد عن هذه الفتاة يا قدموس. فإنها من إخوة بيثاغورس.

(5)

العم منير

- «سلم على عمك منير يا عمر!»

قالتها أمي حين قدممتني إلى ذلك الرجل الغريب الذي جاء لزيارتنا بعد وفاة أبي بأيام، وكان يرتدي بدلةً سوداء كالحة اللون. تناول الرجل يدي الممدودة بالدهشة، ثم قبل ظاهرها وهو يقول:

- اسمك عمر؟ كم عمرك؟

لم أرد، كنت أتطلع نحوه متعجبًا، فقد كان يشبه أبي إلى حد كبير، باستثناء ذلك الذقن النابت في غير اعتناء، والشعر الأشيب الكثيف المفروق من جانبه. ظنت أمي أنني لم أسمع سؤاله، فقالت:

- يسألك عمك منير عن عمرك يا عمر؟

ثم قالت له معذرةً:

- معذرةً، هو لا يسمع بأذنه اليمنى!

شممت رائحة سجائر تفوح من بين أصابعه، حين أمسك أذني بيده، وأمال رأسي جانبًا، ثم دنا منها وهو يتفحصها بعين خبيرة، قبل أن يسأل أمي:

- هل أصيب في حادث؟

- تقيحت أذنه منذ أعوام، ولم يفلح معها التداوي أو الجراحة.

ربت على كتفي بشفقة، ثم قال:

- وهل تسمع جيدًا بالأذن الأخرى؟

صعرت خدي الأيسر نحوه، وقلت ببراءة:

- أسمع بها، ولكن الأولاد ينادونني بالأطرش.

قالت أمي بخجل:

- يضايقه زملاؤه في المدرسة كلما أمال رأسه نحوهم كي يسمعهم.

مسح على رأسي وقال:

- لا تهتم بهم، هناك عباقره فقدوا السمع تمامًا، ولكنهم نجحوا في حياتهم. في أي صف تدرس بالمدرسة؟

- في الصف الرابع الابتدائي.

ربت على كتفي بحنان ثم أعطى أُمي بطاقةً، وقال:

- هذا عنواني بالإسكندرية، إذا احتجت إلى شيء يا أم عمر.

وبعد أن انصرف حاصرت أُمي بعشرات الأسئلة، سألتها عن سر غياب هذا العم عن حياتنا، فأخبرتني بأنه قد سافر منذ زمن بعيد، ثم انقطعت أخباره بعدها! سألتها عن عمله، ووجه الشبه بينه وبين أبي، وسألتها عن السبب الذي جعل أبي يخفي ذكره طيلة تلك السنوات وكأنه غير موجود، ولكنها تجاهلتني قائلةً:

- لا تكثر من الأسئلة يا عمر!

وفي المساء أتى مندور ومعه شقيقتي أمل التي انتفخ بطنها آنذاك بحملها الثاني. كان يبدو على مندور الغضب من زيارة عمي منير، فقال لأُمي لاهتًا:

- يؤخذ العزاء من الرجال في المسجد يا أم عمر.

- العزاء انقضى منذ أيام يا مندور، والرجل لا يعرف أحدًا من أهل القرية.

- أنا أتحدث عن الأصول يا حاجة. لا يصح أن يدخل البيت رجل غريب.

- غريب! هل نسيت أنه شقيق الحاج؟

- تبرأ الحاج منه أمام أهل القرية، والأولى أن نحفظ وصيته بعد وفاته.

اقشعر جسدي حين قال تبرأ منه، ورغم أنني لم أفهم معناها، فقد سمعت لها صوت أواصر تمزق، ووشائج تتقطع. وجاء صوت أُمي لاهتًا كمن يكتم جرحًا قديمًا، نكاه مندور بكلماته وهي تقول:

- الموضوع انتهى يا مندور، والرجل أتى ليؤدي واجب العزاء.

والحقيقة أن الأمر لم ينته كما ادعت أُمي، فقد رأيت عمي منير مرةً ثانية، وكانت هذه المرة أكثر إثارةً.

أيقظتني أُمي ذات صباح بعد أيام من لقاء عمي منير الأول، وقالت في لهفة:

- هيا يا عمر أسرع، لا نريد أن نتأخر.

خرجنا إلى الجسر وركبنا سيارة أجرة، من دون أن أعرف وجهتنا. كنت أنظر مشدوّهًا من زجاج السيارة إلى الطريق المتسع، تتعلق عيني بالحقول التي تتلاحق كشريط أخضر على جانب الطريق، وتلفحني نسمات الصباح الباردة المحملة بصوت محرك السيارة الريب، حتى ثقل رأسي، وتهدلت أجفاني ونمت وقد التصق خدي بالزجاج. لا أدري كم من الوقت مر قبل أن أستيقظ على أصوات أبواق تصرخ، فإذا بي في مدينة تزدهم بأبنية شاهقة، تبدو فيها سيارات الأجرة كبطون النحل وقد تلونت بالأصفر والأسود. شعرت بحلقي جافًا، كالخطب، فقلت لأمي:

- أريد أن أشرب.

فربت على صدري برفق وقالت:

- احتمل العطش قليلًا يا عمر، يجب أن تكون صائمًا.

فجأة رأيت البحر متسعًا وكأنه يبتلع الأرض في جوفه، فتشبثت بنافذة السيارة، وشهقت في ذهول:

- بحرًا!

أنزلت أمي الزجاج فأخرجت رأسي، فاتحًا فمي وأنا أستنشق هواءً له طعم ورائحة، ظلت مرادفةً عندي لرائحة الإسكندرية. وصلنا إلى موقف مزدحم، غصّ بسيارات الأجرة والباعة، فتشبثت بيد أمي، حتى لا أتوه وسط طوفان البشر، وسرنا في الطريق الصاخب، حتى وصلنا إلى مبنى مكتوب عليه مستشفى الحضرة الجامعي. تجاوزنا زحامًا آخر داخل طرقات المستشفى، حتى وصلنا إلى حجرة انفتح بابها لأجد بداخلها عمي منير.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن عمي منير يعمل طبيبًا. ما زلت أذكر معطفه الأبيض طويل الأكمام بأزراره الخلفية، وحزامه الملتف حول خصره، وما زلت أذكر ذلك الكشف المضيء الذي وضعه على رأسه وزاد من غرابة هيئته. كان كل شيء غريبًا، رائحة الحجر، آلات الجراحة التي تغلي في غلاية كبيرة، ولكن الأكثر غرابةً كان ذلك الرجل الأشقر الطويل ذا العينين الخضراوين الذي صافحني مداعبًا بكلمات لم أفهمها. حملني عمي وأجلسني أمام الرجل على كرسي مرتفع، وهو يقول:

- هيا يا بطل، اجلس أمام البروفيسور ولا تتحرك.

استسلمت للرجل الأشقر، الذي قطر قطرات لزجةً في أذني، ثم أدخل منظارًا مدببًا تصلب له جسدي، وهو ينظر من خلاله بتمعن. رفع رأسه بعد لحظات ثم التفت إلى عمي، ودار بينهما حوار بلغة لم أفهمها، لخصه عمي في جملة واحدة وهو يقول لأمي:

- سنرَقع له طبلة الأذن، ونركب له سماعةً.

وبعد يومين جاء عمي منير إلى الحجرة في المستشفى، أزال الضمادة عن رأسي، وحين اقترب من أذني وهمس بها، انتفض جسدي، بعد أن قرعها الصوت لأول مرة بعد سنوات من صممها. نظرت نحوه بذهول، فدَثّرني بابتسامة لم أرَ أحن منها في حياتي، ومال على أذني الجديدة هامسًا:

- مبروك يا عمر، لن يغيّرَ أحد بالصمم بعد اليوم.

عدت إلى القرية سعيدًا، وفي الطريق أوصتني أُمي بآلا أتحدث أمام مندور بأن عمي منير هو من ساعدنا في إجراء الجراحة، فوعدتها بذلك. وكنت كل يوم أقف أمام المرأة أنظر إلى السماعة التي تطوق أذني، وأطرقها بإصبعي غير مصدق أنني أسمع بها. وشعرت بالامتنان رغم صغري لعمي منير ولذلك الرجل الأشقر الطويل الذي عبر البحر من بلاد بعيدة ليعيد إلي سمعي مرةً أخرى.

ومرت الأيام، وعلمت من أُمي سر الخلاف بين أبي وعمي منير. وحكت لي تلك القصة التي وقعت أحداثها قبل مولدي بسنوات، ورغم ذلك ظلت حاضرةً في رأسها ولم تنس شيئًا من تفاصيلها. كان عمي منير يصغر أبي بعدة سنوات، وكان يدرس الطب في مصر ثم سافر إلى روسيا لاستكمال دراسته هناك. وكان أبي يفخر دومًا به، ويتمنى عودته حتى يشد عضده بأخيه، فقد كانت عائلة أبي يعيبها شيئان، قلة الأبناء، وموت الرجال قبل سن الخمسين! وهو الأمر الذي كان يؤرق أبي طيلة حياته وجعله يلح على عمي في العودة والزواج. وبالفعل عاد عمي بعد سنوات حاملًا الشهادة العليا في تخصصه، ولكنه عاد أيضًا محملًا بأفكار غريبة، لم يحتملها أبي، وأُمي، وأهل القرية جميعًا، أفكار نالت من الدين ورجاله، ومن السلطة ورجالها، حتى تسبب كلامه في حرج كبير لأبي.

ودب الخلاف بين أبي وأخيه الأصغر، خصوصًا مع سهرات الأخير التي كانت تمتد حتى الصباح مع غرباء يفدون إلى القرية من المنصورة والمحلة وتخلف وراءها آثارًا مخزية من أعقاب السجائر وزجاجات البيرة الفارغة حول البيت. وبلغ الأمر ذروته حينما سخر عمي من مكانة الشيخ حسونة المقدسة بين الناس، ووصفه ذات مرة، برجل أعماه القدر، فقاد قرية من العميان. وأراد

أبي أن ينجو بسمعته من ذلك الخزي الذي ألحقه عمي بها، فاقترح عليه أن يشتري نصيبه من الأرض

والدار، وأن يغادرهم، فلا حياة القرية تلائمه، ولا حياته تلائم أهل القرية، وبالفعل غادر عمي القرية، إلى الإسكندرية. وتنفس أبي الصعداء متمنيًا لو يوارى الزمن سواته التي كشفها أخوه أمام الناس علانية.

وظلت العلاقة بينهما فاترةً، حتى كان ذلك اليوم الذي تداول فيه الناس عددًا من مجلة الطليعة أقام الدنيا ولم يقعدوها، كان العدد يحمل مقالاً باسم عمي منير، أشعل نار الغضب، ليس في قرينتنا وحسب، وإنما في مصر بأكملها. مقال جعل الشيخ حسونة وآخرين يقفون فوق المنابر ليعلنوا أن ما جاء في المقال كفر صريح ويخرج صاحبه من الملة، وأن عليه أن يستتاب، وذهب أبي إلى أخيه، منهزمًا كسيّرًا ولائقًا أيضًا، ودار بينهما ذلك الحوار الذي كتبه أبي في مذكراته، وقرأته بعد سنوات فقد قال له:

- لماذا تثير الناس؟

- لأنهم عميان يعيشون في ظلام الجهل.

- الأعمى يحتاج لمن ينير له الطريق لا من

يتعارك معه.

- ولكن القلب إذا مات يحتاج إلى صدمة كي يعود إلى الحياة!

- هذا في الطب، أما في الدين فأحياء القلب بالحكمة والموعظة الحسنة.

- هذا منطق من يهادن الجهل.

- وأنت تحارب الدين.

- أنا أحارب الظلام.

- الدين نور.

- يكفيني نور العلم.

وعاد أبي إلى القرية حزينًا بائسًا، يللم رداء الخجل ليستر نفسه من أعين الناس. صعد إلى منبر المسجد بعد الصلاة، زائغ العينين، مفطور القلب، ورغم ألمه، استل سيف القطيعة وأسأل دماء الأخوة معلنًا أمام الناس براءته من عمي ومن أفكاره إلى يوم الدين. ولم تمر المقالة على خير، انبرى عشرات المحامين لرفع قضايا على المجلة وعلى كاتب المقال المارق، أصابته واحدة

منها بحكم حُسنٍ على أثره ثلاثة أعوام. ولكم تمنيت لو قابلت عمي منير بعد أن سمعت من أمي تلك الحكاية كي أسمعها منه أيضًا، ولكن أمنيته لم تتحقق. فقد أصابته لعنة عائلتنا، واستيقظت ذات صباح لأجد أمي باكيةً، ترتدي السواد وتدير المذباح على صوت القرآن. فعلمت أن الرجل الذي أعاد لي السمع قد مات أيضًا قبل أن يتم عامه الخمسين، ولكنه مات وحيدًا غريبًا من دون زوجة ولا أبناء.

وبعد مرور أعوام على تلك الواقعة، كنت أبحث في متعلقات أبي عن شهادة ميلادي الأصلية كي أستخرج بطاقتي الشخصية لأول مرة. وبينما كنت أقلب في أدراج مكتبه، وقعت يدي على مذكراته، وفي طياتها ورقة مطوية من مجلة «الطليلة». خفق قلبي حين رأيته، وتعجبت لماذا احتفظ بها أبي سرًا مع مذكراته. فتحت الورقة المطوية بيد مرتعشة، لأجد صورة عمي بجوار مقال صغير، لا يتجاوز نصف صفحة. تعجبت كيف لهذا المقال الصغير أن يشير تلك الضجة، ولكنني حين طالعت عنوان المقال، اقشعر بدني، وتقلصت أمعائي، وأنا أقرأ:

«إلى نبي هذا الزمان.. العلم.. أشهد ألا نبي إلا أنت»

كتب منير القداح

«أيها العلم، أشهد ألا نبي إلا أنت، أشهد أنك نور يتأذى منه القابعون في الظلام، أشهد أنك قد فقت بالدهشة معجزات الأنبياء، ومحوت باليقين خرافات القديسين والأولياء، أشهد أن الإيمان بك لا يدعو للاعتذار، بل يدعو للعزة والافتخار. أستطيع أن أتخيل عالمًا بلا متدينين، ولكنني لا أستطيع أن أتخيل عالمًا بلا علماء. اختلف المتدينون فيما بينهم، تقاتلوا، تشاحنوا، تباغضوا، اتهموا بعضهم بعضًا بالكذب، ولكنهم اتفقوا جميعًا عليك، فرقتهم كلمة الدين، وجمعتهم أنت، قتلوا في سبيل دعوتهم ملايين البشر، ثم أتى الحواريون من أبنائك ليداووا الجراح وينقذوا الأرواح، ويهبوا الحياة بلا تمييز، للمؤمن والكافر، للغني والفقير، للطيب والشرير، فالكل أمامك سواء، فلا غرو أن تكون أنت المخلص وأن تكون أنت سفينة النجاة. أراك تتعاضم يا سيدي كقرص شمس يصعد نحو الأفق، تنحسر أمامك جيوش الظلام، وتتهاوى تحت أقدامك قلاع الجهل، وتضيء مشاعلك جحور الفكر، وسيأتي

يوم تتهتك فيه أمامك أستار الغيب ستراً ستراً، حتى يؤمن بك الناس مسيحاً صادقاً، عنده علم الغيب، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام».

(6)

تحت ظلال السنديان

كانت طيور النورس البيضاء ترف بأجنحتها حول الغيضة، تتوسل في تحليقها إلى فرصة سانحة، كي تنقض فيها على صيد فائت من طيور النحام التي استعمرت الغيضة منذ بدايات الربيع، وقضت على كل ما فيها من الروبيان والمحار، وكان قدموس يجلس متكئًا أسفل شجرة السنديان العظيمة، التي صارت ملتقى عشقهما طيلة الأسابيع الماضية، يولي الأفق ظهره، ويتطلع بهيام إلى وجهها الذي انعكست عليه أشعة الشمس فبدت في صورة أولمبية لا تقل بهاءً عن معبودته الأثيرة أفروديت. تذكر تعنيف لينوس له حين علم أنه قد وقع في هواها، قال له:

- ابتعد عن هذه الفتاة.

- كيف وقد شق كيوبيد قلبي بسهم حبها؟

- من بين كل الفتيات اللواتي عرفتهن، لم تقع في الحب إلا مع فتاة من إخوة بيثاغورس!

- وماذا في ذلك؟

- هم يحتقرون الغرباء يا قدموس.

- لا علاقة لي بأهلها، ويكفيني حبها.

- لو علم الإخوة أنك تتسكع مع فتاة من حيهم، فلن يمر الأمر بسلام.

لم يهتم لكلام أخيه ولم يشغله خوفه من أهلها، بقدر خوفه من نفسه. كانت أيولا في طهر الندى وصفاء الفجر، أشعرته بصدق لم يشعر به من قبل، وأشعرته أيضًا بنقص كان يتفاقم كلما جلس إليها. كانت أيولا تتحدث عن الفلك، والرياضيات، والنفوس، والموسيقى والأرقام، حديثًا يشعره بجهله، ويجعله يتساءل متى تعلمت هذه الفتاة الصغيرة كل هذه العلوم؟ كان يتعجب من حبها له رغم جهله، ويشعر بالذنب كلما اختلج وجهها بعبارة حب مبتذلة ألقاها من قبل لعشرات الغواني. وحين تمكن الحب من قلبه، قرر أن يجبر نقصه بالإخلاص. فقد تفتن المرأة بالقوة، أو الكلام المنمق، ولكن الإخلاص هو ما يجعلها تبقى.

امتنع عن العبث مع الفتيات، وعزف عن حانة نقفور، وصارحها ببعض مثالبه
أملًا في أن تظل إلى جواره. وفي هذا اليوم قرر أن يخبرها بأنه يريد لها معه
إلى الأبد. أعد الكلمات، ورتبها في ذهنه، ليفصح لها عن رغبته في الزواج بها
ولكنه حين رآها ظل صامتًا، يحدق بها ولا يتكلم، فأشاحت بخدها خجلًا وقالت:

- لم أسمع لك صوتًا.

قال في صدق:

- فرت الكلمات مني حين رأيته.

- فرت منك وأنت الشاعر الخطيب؟

- نعم، لأنها ستعجز عن وصف ما أراه. فأني كلمات يمكنها أن تصف الأفق حين
ينبج بالفجر الوردي في الصباح، أو حين يفتر ثغره بقرص الشمس في
المساء؟

فرجت شفيتها مندهشة وقالت:

- كيف تتحدث هكذا؟

- صدقيني يا أيولا مهما وصفت، فلن أفصح في وصف فتاة لثمتها ربة الحب في
ثغرها عند مولدها، فمنحتها كل تلك الرقة.

اختلجت ملامحها حتى بدت وكأنها ستفقد وعيها ثم قالت في رجاء:

- قدموس، كف عن هذا الكلام أرجوك.

- لماذا؟

- لأنني سأظل أتذكره بعد أن أعود، ولن أستطيع نسيانه.

- ولماذا تريد نسيانه؟

- لأنني فتاة يسكن قلبها في أذنيها وستفتقد كل لحظة لا تسمع فيها مثل هذا
الكلام.

- سأقوله لك كل لحظة.

- أنت شاعر تهيم في بحور الشعر، ويسبق لسانك عقلك، أما أنا فينازعني
عقلي في كل كلمة أسمعها منك!

اعتدل في جلسته ثم أمسك يدها، وقال وهو ينظر إلى عينيها:

- أيولا أريدك أن تظلي إلى جواري للأبد.

كان يظن أنها ستفرح لكلامه، ولكنه انزعج حين كسف عينيها حزن مفاجئ؛ قامت من جلستها، وسارت نحو جذع شجرة السنديان وأولته ظهرها. اقترب منها ووضع يده على نحرها برفق وقال بعذوبة:

- أنا الآن لا أهتم في بحور الشعر، ولا يسبق لساني عقلي، وإنما أتحدث إليك بلسان قلبي. أتدري أنني ما تمنيت شيئاً من قبل مثلما تمنيتك. كان حلمي الوحيد أن أصير شاعراً مرموقاً، ولكنني الآن لا أريد سواك.

تهدج صوتها وهي تقول:

- وهذا ما أريده يا قدموس، ولكنه مستحيل!

- لا يوجد مستحيل.

- أنت لا تعرف من أنا.

- عرفت ولا أهتم، ولا أخشى أن أصعد إلى تلك التلة كي أقول لوالدك إنني أهتم شوقاً بابنتك وأريدها إلى جواري للأبد!

هزت رأسها في يأس وقالت:

- إذن فأنت لا تعرف شيئاً عن عشيرتي.

أحاط خصرها بذراعيه ودار بها لتواجه بحيرة النحام، وأشار إلى أنثى طائر تقف على ساق واحدة، وترف بأجنحتها وهي تميل يمنة ويسرة. ثم قال:

- رأيت هذه الأنثى التي ترقص في هيام؟ هناك ذكر يراقبها في صمت وسيفتن بها، ويقا تل من أجلها باقي الذكور، وحين يتزوجها وتضع فرخهما، سيظل يراعاها ويرعى وليدهما، حتى يأتي الشتاء فيرحلا سوياً إلى أرض جديدة.

ثم صمت قليلاً قبل أن يقول بصوت متهدج:

- أعجزت يا أيولا أن أكون مثل هذا النحام، فأقاتل من أجل محبوبتي؟!

استدارت نحوه ثم ألقت بنفسها في أحضانه باكية، كانت أول مرة يحتضنها، ورغم أنه احتضن قبلها عشرات الغواني، شعر هذه المرة بقلبه يذوب في صدره كقطرات شمعة تحترق، وتمنى ألا تفارق حضنه للأبد، ولكنها غادرته فجأة، ثم مسحت دموعها وقالت وهي تنصرف:

- ابتعد عني يا قدموس، ابتعد عني أرجوك.

ناداها في جزع:

- أيولا!

ولكنها انطلقت نحو التلة لا تلوي على شيء.

ظل لأيام ينتظرها كل أصيل عند الغيضة، ولكنها لم تظهر، ذهب إلى الأوديون،
وقدم قربانًا لربات الفن، لعله يراها من بين الحوريات لكنه لم يجدها. جن
جنونه، وراودته نفسه أن يصعد إلى التلة لبحث عنها، ولكنه تراجع حتى لا
يتسبب لها في أذى. لم يجد سوى لينوس ليثته شكواه، وحزنه، كانا يجلسان
على شاطئ الخليج، يرتعد جسده من البرد ويستعر جوفه بالغضب، ويلقي
بالحجارة إلى الماء، ويتمنى لو أصابت إحداها رأس إله البحر بوسيدون،
فيثور، ويغرق مارسيليا وأهلها. قال له لينوس في لوم رغم شففته عليه:

- حذرتك فلم تكثرث.

- لو أنها تركتني كارهةً لقبلت، ولكنها تركتني مكرهةً. وشتان بين كاره ومكره!

- هي أعلم بأهلها، هم لا يزوجون بناتهم للأغراب!

- لماذا؟

- لأنهم يظنون أنهم صفوة البشر، فهم حملة رسالة المعلم الأكبر بيثاغورس
وورثته كما يقولون!

ثم أردف:

- ولقد صدق المعلم بيثياس حين قال، هم يدعون أنهم ورثته ولكنهم يسIRON
على أثره بممحة.

شعر بالسقم من كلامه، فقال:

- أنا لا يهمني ما يعتقدون، يقتلني شعوري بأنها تبكيني الآن فوق تلك التلة.

قال لينوس باستهتار:

- انسها، ولن تعد غانيةً في حانات نقفور تنسيك أمرها.

ثم قام وقال:

- هيا لتنام، فغدًا سيعقد الحاكم اجتماعًا في الأجورا مع الشعب بحضور مجلس الشيوخ، ورسول الملك ألكسندر من مقدونيا.

- لماذا؟

- لا أدري، ولكن يبدو أنهم سيعلمون الحرب على القرطاجيين!

- ماذا؟

- امتنع القرطاجيون عن تصدير القصدير، وجيش مقدونيا بحاجة إليه لصنع السلاح من أجل الحرب مع الفرس!

هز رأسه باستهتار وقال:

- اذهب أنت، فأنا لا يعني ما سيتخذونه من قرارات.

نظر إليه لينوس مندهشًا ثم قال:

- هل تعلم يا قدموس أنني على يقين من أنك ستعمر طويلًا؟

نظر إليه متعجبًا، وقال:

- لماذا؟

هز رأسه متعجبًا وقال:

- من يملك قلبًا تبكيه فتاة، ولا تحركه الصراعات، والحروب، لا بد أن يعيش طويلًا.

(7)

كيف ولماذا؟

ظللت أيامًا أشعر بالخوف من كلمات عمي، وأتجنب الاقتراب من درج المكتب، حتى لا أقرأ المقالة ثانيةً. انتابني شعور بأن أحدهم كان يراقبني وأنه لا يزال ممسكًا بقلمه في تأهب، لينظر ماذا أفعل، هل سأستغفر؟ هل سأستنكر؟ أم سأدع تلك الكلمات الجريئة تعبت بمفاتيح الدهشة في عقلي وتفجر فيه عشرات الأسئلة؟ وأظنه قد سجل علي ذنبًا، حين استيقظت ذات صباح، ففتحت درج المكتب، وأخذت المقالة، ثم طويتها ووضعتها في حافظتي.

وبعد تلك الحادثة، أصابني نهم للمعرفة. وكان أقرب شيء لي مكتبة أبي، التي كان أغلب ما ضمته كتبًا من التراث، قرأت فيها كثيرًا، وفهمت بقدر ما أستطيع، وكنت أحيانًا أشاكس زوج أختي مندورًا وأجادله في بعض الأمور، لأظهر فهمي لها. ولكنه كان يصدني قائلًا:

- ما تفعله اسمه ضراط، العلم يؤخذ من المشايخ، وليس بالقراءة الغاشمة.

والحق أن قراءتي للتراث قد خبت شهوتها بعد أن التحقت بالمدرسة الثانوية وانتقلت للحياة في مدينة المنصورة تلك المدينة التي ولجت فيها عالمين من الدهشة، أصابني أحدهما بالخيبة، وقام الآخر بالعزاء. استأجر لي مندور حجرة في منزل قديم متهالك يؤجر للطلبة بحي ميت حدر بالمنصورة. كان المنزل مكوّنًا من خمسة طوابق في كل طابق حجرة واحدة مؤثثة بفرش بسيط. وكانت حجرتي في الطابق الأرضي، وكنت أطلق عليها «حوض السمك» فقد كانت نافذتها تفتح على محل «فسخاني»، تعلق رائحته البشعة في هواء الحجرة وتلتصق بالجدران والملابس ولا تفلح معها العطور ولا البخور. وأدركت السر في اختيار مندور لهذا المنزل تحديدًا، حين علمت أن صاحبه من جماعة دينية، كانت تنتهج نهجًا متسامحًا في الدعوة إلى الدين، فكانوا يطوفون على المساجد في القرى، يدعون الناس إلى التمسك بالسنن والالتزام بالمنهج، ويترددون على بعض البيوت من أجل التعارف والتقارب مع أهلها. ولقد رأيت بعض رجالهم من قبل في قريتنا. وتعجبت لماذا يدعون المسلمين إلى الدين، وكأنهم لا يؤمنون؟

وفي ليلتي الأولى استيقظت قبيل الفجر على طرقات رقيقة دؤوبة، على باب حجرتي. فتحت الباب وأنا أترنج من النعاس، فوجدت اثنين، أحدهما ذو لحية سابعة، والآخر أجرد تتجمع شعيرات ذقنه النابتة في جزر مبعثرة على خديه وأسفل شفته. ابتسم ذو اللحية الأكبر في مودة، وقال:

- السلام عليكم، صلاة الفجر بعد قليل. أردنا أن نوقظك حتى لا تفقد ثواب الجماعة.

شكرته على اهتمامه، ثم عدت إلى الفراش، وجلست على حافته مترددًا، تنازعني الرغبة في النوم، ويؤرقني شعور بالذنب. نخستني أفكار مسبقة أطارت النوم من عيني، عن شيطان يجلس فوق رأسي ليصدني عن الصلاة، وشعرت بغضب من الشاب الذي أعاد القلم إلى يد رقيبتي، رغم أنه قد رفع عني وأنا نائم. قمت وتوضأت، وما إن فرغ المؤذن من أذانه حتى أدت ركعتين ناعستين في حجرتي وعدت إلى النوم مطمئنًا.

وحين عدت من المدرسة في اليوم التالي، قابلت الشاب على مدخل البيت، توقعت أن يلومني على غيابي عن صلاة الفجر، ولكنه صافحني بمودة، ودعاني لحضور درس في المسجد، بعد صلاة المغرب، لشيخ من الجماعة اسمه الشيخ رسلان أتى خصيصًا من القاهرة لإلقاء الدرس. حاولت الاعتذار متحججًا بالدراسة، ولكنه حثني على الحضور مؤكدًا على أن الشيخ رسلان عالم كبير، ينبغي الاستماع إليه. ودفعني الخجل، والفضول لأن أستجيب لدعوته. ولم أدر حينها أنني سأخرج من ذلك الدرس بشعور بالسقم جعلني أرزح تحت وطأة الشك بعدها لسنوات. كان الشيخ يتحدث عن أمور غيبية كثيرة، وكان من بين حديثه، حديث عن علامات الساعة، تحدث فيه عن رجل مرعب اسمه المسيح الدجال يمتلك عينًا واحدة، ويعيش منذ آلاف السنين في كهف منعزل، ولكنه سيخرج في آخر الزمان ويفتن الناس به بسبب معجزاته، وتحدث عن قوم اسمهم يأجوج ومأجوج يعيشون تحت الأرض منذ آلاف السنين أيضًا، ويتحينون الفرصة للخروج ليفتكوا بأهل الأرض وليعيشوا في الأرض فسادًا، ثم تحدث عن دابة تكلم الناس ودخان يملأ الفضاء، وأشياء أخرى كثيرة أثارت خوفي ونفوري في آن واحد.

وجعلتني أقاطعه بصوت عال وأنا أقول:

- كيف؟

توقف عن الحديث، ونظر نحوي، فتجمعت نظرات الحاضرين على صدري وظهري كفوهات بنادق تستعد للإطلاق. قلت له:

- كيف يعيش رجل لآلاف السنين، وكيف يعيش أقوام في باطن الأرض، وكيف تتحدث الدابة وبأي لغة تتحدث؟

انتكست النظرات المتحفزة أمام منطقية السؤال، وتعلقت الأعين بالشيخ العليم، الذي قال في هدوء:

- في أمور الغيب لا يحق السؤال بكيف.

قاطعته مرةً أخرى قائلاً:

- حتى إذا كانت تنافي العقل والتفكير؟

أشار رجل نحوي لأسكت، وهمس جاري الذي كان يجلس خلفي قائلاً:

- تأدب، ولا تقاطع الشيخ ودعه يكمل حديثه.

فتابع الشيخ:

- لو كانت الغيبات توافق العقل والتفكير لآمن بها الكافرون، الإيمان يأتي بالقلب وليس بالعقل.

ثم تجاهلني، وكأنه أجاب عن سؤالي والتفت إلى الناس وقال:

- يخطئ الإنسان حين يثق في فكره وتقديره، ولهذا قال القرآن عن رأس الكفر الوليد بن المغيرة: «إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر»

انسحبت بهدوء من المسجد، تشيعني نظرات مستخفة ممن حولي، وعدت إلى حجرتي وقد أصابني شعور بالقهر. فتحت حافظتي وأخرجت مقالة عمي، وقرأتها وكأنني أستأنس بها. ثم مزقت صفحتين من كراستي وألصقتها على الحائط فوق المكتب، وكتبت على الأولى بحروف كبيرة كيف؟ وكتبت على الثانية لماذا؟

وقضيت أعوام الدراسة الثانوية لا تربطني علاقة بأحد في المنزل، وحاولت الخروج من شعور الوحدة بالانغماس في الدراسة، وبقضاء وقت أطول في قصر الثقافة، الذي كان يبعد عن بيتي مسافة شارعين، فكنت أمارس فيه هوايتي في القراءة، والاطلاع وحضور بعض الفعاليات. وفي هذا المكان تعرفت على شاب، جمعتني به محبة القراءة، اسمه أحمد عقل. كان أحمد يدرس الطب، ويكبرني بخمس سنوات، نحيف الجسد، بارز الجبهة، يرتدي نظارة طبية، تتسع خلفها حدقتا عينيه الرماديتين اللتين تبدوان في حركتهما السريعة كعيني دجاجة حائرة. وكنت أعزو توتره الدائم الذي يظهر في ارتعاش يديه وبقع العرق التي تلتطخ القميص أسفل إبطيه، لشراسته في

التدخين، ولكنني اكتشفت بعد ذلك أنه مصاب بداء في الغدة الدرقية يجعله متوترًا، وأنه يخشى إجراء جراحة لإزالتها.

كان أحمد موسوعي المعرفة، وكنت أظن بنفسه الثقافة حتى قابلته. ففي صحبته قرأت «أصل الأنواع» لداروين، و«العلم المرح» لنيتش، و«عصر العقل» لتوماس بين، والنسخة الأصلية من «ألف ليلة وليلة»، و«لزوميات» أبي العلاء المعري، و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، وقرأت كذلك عن النسبية، ونظريات الكون والانفجار العظيم. فتحت لي تلك القراءات أبوابًا كنت أظن الاقتراب منها محرمًا، وكسرت بداخلي حاجز الخوف من التفكير. وشجعني أحمد على لقاء جماعة من أصدقائه كنا نلتقي بهم أحيانًا في المنصورة، وأحيانًا أخرى كنا نذهب إليهم في المحلة الكبرى. وتكررت تلك اللقاءات التي كانت دائما حبلًا بالدهشة والجرأة المتناهية، والانتقاد المفرط لكل شيء حتى انتقاد الذات. ورغم اختلافي مع بعض آرائهم، تعلمت منهم شيئًا واحدًا، أنه لا شيء مقدس بذاته، وأن القدسية وهم يصنعه الإنسان في عقله أو يتوارثه من آبائه. وأن هناك ولاءً أسمى في هذه الحياة، اسمه العقل، ينبغي أن يتحرر من كل قيوده، مهما كانت هذه القيود. وخرجت من تلك المرحلة، وقد عرفت كيف سأعيش حياتي، ولكنني لم أعرف حتى هذه اللحظة لماذا أعيشها؟

(8)

الرحلة

استيقظت مارسيليا على أصوات أبواق تملأ الفضاء، فاحتشد الناس في ساحة الأجورا أسفل شرفة الحاكم التي ارتفعت عليها راية مقدونيا العظمى وإلى جوارها راية مارسيليا في انتظار الإعلان المرتقب. لم يمر وقت طويل، حتى توافد الشيوخ، والقضاة، ثم النبلاء. اتجه كل منهم إلى مجلسه المحدد سلفًا، ثم خرج الحاكم إلى الشرفة، وإلى جواره رسول الملك ألكسندر، وبدأ أنهم قد اتفقوا على القرار الذي سيردون به على صلف القرطاجيين. قرعت الطبول، فعم الصمت، وتوقف الناس عن الصياح، قبل أن يقف رئيس مجلس الشيوخ وينشر أمامه برديةً قرأها بصوت عال قائلاً:

- بأمر من ملك الملوك المعظم ألكسندر فيليب، وفي حضرة رسوله، وبأمر من حاكم مارسيليا ماركوس باسيلوس، وبحضور مجلس قيادته، وبناءً على موافقة مجلس الشيوخ بثلاثي أعضائه، تقرر أن تُجَهَّزَ رحلةٌ إلى أراضي القصدير في بحر الظلمات لجلب ما تحتاجه الإمبراطورية العظمى من المعدن النفيس، وأن يُطَرَّدَ التجار القرطاجيون من أراضي مارسيليا بغير رجعة. الملك، الشعب، مارسيليا.

وما أن أنهى كلامه، حتى عزفت جوقة من الموسيقيين ألحان النصر، وانطلقت صيحات الجماهير مرةً أخرى تهتف بحياة ألكسندر العظيم.

لم يشهد قدموس تلك الجلبة التي وقعت في ساحة الأجورا، فقد استيقظ متأخرًا بعد نوم متقطع. شعر بالجوع، فقرر أن يهبط إلى السوق، تحمم في جدول الماء القريب من بيته، ثم ارتدى ملابسه وهبط إلى الأجورا. اتجه إلى أحد الباعة واشترى منه قرطاسًا من كرات حلوى لوكوماديس المحلاة بالعسل، ثم أخذ يلقفها في نهم، غير عابئ بسخونتها. لاحظ كثرة الحراس في السوق على غير العادة، ولاحظ كذلك الزحام، فتذكر أمر الخطاب الذي أخبره به لينوس. استمع إلى اللغط الدائر بين الناس حول الخطاب، طرق سمعه صوت صانع الحلوى وهو يقول لجاره في الحانوت:

- أتمنى ألا يفرضوا علينا ضرائب جديدةً من أجل تلك الرحلة.

فقال الرجل:

- وأتمنى ألا تشتعل الحرب مع القرطاجيين بسببها!

سألها في فضول:

- معذرة! عن أي رحلة تتحدثان؟

قال بائع الحلوى:

- سيوفد الحاكم رحلةً إلى أرض القصدير في بحر الظلمات.

اندهش من الخبر، وتعجب كيف يجرؤ الحاكم على اتخاذ قرار كهذا؟ فكم أسهب الشعراء في وصف هذا البحر المهيّب، الذي يقع خلف مضيق جبل كالبي، وعدّوه موطن الإله هاديس إله العالم السفلي الذي حرم علي الإغريق اجتيازَه! كم رويت حكايات عن وحوش البحر التي تجوب غماره ليلاً وقراصنة البربر، الذين يعترضون السفن ويفتكون بالبحارة ويسلخون رؤوسهم! الكل يعلم أن القرطاجيين وحدهم هم الذين يستطيعون اجتيازَه، ولكن يبدو أن حاكم مارسيليا أراد أن يكسر حاجز الخوف، ولكن كيف؟ هذا هو السؤال الذي كان يستحق عنده الإجابة. ترك البائعين، واتجه إلى الرواق، كي يستمع إلى آراء النخبة، ولكنه حين وصل ازدادت حيرته، وتأرجح رأسه كبندول، بين الآراء المتناطحة وهي تنتقل من النقيض إلى النقيض:

- هذا أعظم قرار اتخذَه الحاكم!

- هذا أغبى قرار اتخذَه الحاكم!

- ستكفل الرحلة بالنجاح، وسيعم الرخاء!

- ستفشل الرحلة، ويمنع عنا القرطاجيون القصدير!

- لدينا أعظم بحارة، وأعظم السفن!

- لن يقدر أحد على بحر الظلمات!

ازدادت حيرته من نخبة تتزين بالمعرفة، ولكنها تفتقر إلى المنطق، بحث عن أخيه لينوس ليسأله رأيه، دائماً يمتلك لينوس وجهة نظر ثاقبة. بحث عنه في الرواق، فلم يجده، هم أن ينصرف ولكن فجأة وقعت عيناه على رجل نحيف الجسد أبيض الشعر، يرتدي قلادةً ذات نجمة خماسية تسطع فوق جليابه الأبيض، ويسير بين الأروقة متكئاً على عصاه في وقار. خفق قلبه لمرأى القلادة. راقب الرجل جلسةً، وهو يتنقل بين الناس منصتاً غير متحدث، إلى أن استوقفه أحدهم وقال له:

- ما رأيك يا أنوسطس، هل ستنجح الرحلة؟

أجاب بعبارة واحدة وهو يستمر في طريقه:
- التيه مصيرها.

التقم قدموس آخر قطعة من الحلوى، ثم سار خلف الرجل. أدرك من نجمته الخماسية أنه من إخوة بيثاغورس. قرر أن يغامر بالسير وراءه، لعله يعرف مكان حيهم، ويفوز برؤية محبوبته، كان يعلم أن ما يفعله جنون، ولكن كيف يفرط في تلك الفرصة التي جاءت به غير ترتيب؟ انتظر حتى خرج الرجل إلى غيضة ثم تتبعه عن بعد. صعد وراءه التلة تاركًا بينهما مسافة لا تسمح بملاحظته، قطع دربًا مُعَبَّدًا تحفه الأشجار، فتخفَّى وراءها وتنقل من جذع إلى جذع حتى بلغ مدخل الحي. تربص عند المدخل قليلًا، وراقب الرجل وهو يقطع ساحة واسعة قبل أن يختفي داخل بناء من الحجر تزين مدخله فوارة جميلة على شكل نجمة خماسية. تطلع إلى الساحة الهادئة، التي تصدح الطيور بين أشجارها في تناغم وتحيطها بيوت طينية، تظلل مداخلها أشجار الجهنمية الحمراء، حتى يظن الداخل إلى الحي أنه قد دخل إلى حقول الإليزيه الخالدة.

فجأة شق الهدوء صخب كبير وامتلات الساحة بأعداد كبيرة من الأطفال خرجت من بين الطرقات الجانبية، وقد ارتدوا جلابيب بيض، وأمسكوا في أيديهم نايات صغيرة، تصاعدت منها نغمات مرحة مبهجة، طافوا حول الفوارة، وقد تمايلت أجسادهم الرقيقة يمنة ويسرة، في رقص منظم بهي. ثم غنوا بصوت جماعي ملأ الفضاء بالبهجة:

«تحت الزيتون

نرقص ونميل

يغمرنا النورُ صبحًا وأصيل

فنغني بصوتٍ حرٍّ جميل

المجدُّ لمن أعطانا دليل

الواحدُ أصلُ النشأةِ دين

والثاني ضدُّ منه يبين

والثالثُ ضلُعُ الحكمةِ سين

والرابعُ هرمٌ فوق النيل

يا مَنْ بالخمسي وهبت الشمس

وجعلت السنة لأجل الهمس
والسبعة حصن يحمي النفس
وثمان الحب لله بديل
يا تسوع الأفق المشرق صباحًا
ومعيد الروح لتمحو قُبْحًا
في وعاء العشرة نسجد سُبحًا
فاقبل بالحب صلاة ذليل
تحت الزيتون نرقص ونميل
ونغني بصوت حرّ جميل
المجد لمن أعطانا دليل»

لم يتمالك نفسه من السعادة، تراقصت عجزته مع النغمات، وحين انتهوا صفق بيديه في حماس، وكأنه يشاهد عرضًا على مسرح الأجورا. التفت الأطفال نحوه متعجبين، فأدرك أنه قد كشف نفسه بحماقة، وقبل أن يستدير عائدًا، أحس بنصل ينخس جانبه، وصوت يأتي من خلفه ويقول في حسم:

- من أنت أيها الغريب؟

قال في سرعة وهو يكشف يديه:

- جئت مسالمًا.

هم بأن يستدير، ولكنه شعر بضربة قوية خلف ركبته أسقطته أرضًا. وجعلته يتأوه ألمًا، التفت خلفه ليرى مهاجمه، فوجده شابًا أسمر طويلًا تنفر عروق ساعده كأغصان لبلاب حول جذع شجرة سنديان، يقف في تحفز وغضب. انحنى عليه الشاب وأمسك رقبته، ثم دنا بالخنجر من عنقه وقال في تهديد:

- من أنت؟ ولماذا تتلصص على أطفالنا؟

شعر بأنفاسه تختنق من قبضة الرجل القوية، ولم يستطع أن يتكلم، فزع الأطفال من المشهد، فصرخت إحدى الفتيات وجلب صراخها الناس. فجأة خرج أنوسطس من البيت، وقال في صوت عال:

- أنجوس! توقف!

تردد الشاب قليلاً قبل أن يفلت عنقه، ابتعد عنه خطوات، ولكنه ظل على تحفزه. اعتدل قدموس، وهو يستعيد أنفاسه، بينما اقترب منه أنوسطس وقال له:

- قم! من أنت وماذا تريد؟

قام، ثم قال وهو يتحسس عنقه:

- اسمي قدموس، وأنا شاعر.

أطرق أنوسطس قليلاً، ثم قال:

- وما الذي أصعدك إلى التلة؟

- كنت أسير بالقرب من الحي وسمعت النغمات فتوقفت كي أستمع إليها.

قاطعه أنجوس قائلاً:

- بل كنت تتلصص على أطفالنا!

فرع الأطفال والتصقوا بأهاليهم، فقال مدافعاً وهو يظهر ساعديه وكفيه أمام أنوسطس:

- لا أحمل سلاحاً، ولا أخفي حبلاً حول ذراعي، هل أبدو لك لصاً أيها الرجل الحكيم؟ أم هكذا تستقبلون عابري السبيل؟

صمت أنوسطس قليلاً، ثم قال:

- أرضنا ليست معبراً للغرباء ولا عابري السبيل أيها الفتى، فعد أدراجك ولا تأت إلى هذا الحي مرةً أخرى.

كاد أنجوس أن يعترض، ولكن إشارةً من يد أنوسطس

أسكتته. ألقى قدموس ببصره على الوجوه الخائفة من حوله بغير سبب، تجاهل نظرات أنجوس المتوعدة، وهم بأن ينصرف، لولا أن اقتحمت الجمع فتاة، اتجهت نحو أنوسطس في لهفة وهي تقول:

- أبي، ماذا حدث؟

التفت فوجدها أيولا، تلاقى لحظاهما، فدوى التقاء الناظرين بالفضيحة، واختلج لسانها بحروف اسمه رغماً عنها وهي تقول في ذهول:

- قدموس!

تساقطت عليهما نظرات الدهشة كزخات المطر، فوقفا مبتلين بعرق الخجل،
ومرت على التلة لحظات كالدهر، قبل أن يقول أنوسطس بلسان يواري
خزيه:

- اذهب من هنا أيها الفتى ولا تأت إلى حينا مرةً أخرى.

(9)

أحمد عقل

انتهيت من الاستحمام، فارتديت جلبابًا نظيفًا، ثم التففنا حول الطبلية لتناول فطور يوم الجمعة كما اعتدنا في الأيام الخوالي. الخبز المرحرح، مع أقراص الطعمية الغنية الساخنة، المزركشة بالسّمسم، والبيض المقلي المغطى بالسمن، وصحن الجبن المعتق الذي تزينت حوافه بشرائح الطماطم المملحة بالكمون.

شعرت بالامتنان لأمل لأنها حرصت على حضور الإفطار الأخير بيننا رغم ما قد يسببه ذلك من صدام مع زوجها مندور. لم تخبرني أُمي بشيء عن تفاصيل الخلاف الذي وقع بين أمل وزوجها بالأمس، ولكنني توقعت أن سبب الغضبة هو رغبتها في زيارتي قبل السفر لوداعي، وهو الأمر الذي يرفضه مندور، بسبب القطيعة التي وقعت بيني وبينه منذ سنوات حين قال لي:

- «العهد بيني وبينك الصلاة، وأنت تارك للصلاة».

كنت أشفق على أمل من تحمل ذلك الضغط، وتحديها لمندور في كل مرة تزورني فيها، حتى أنني حرصت في السنة الأخيرة على المباحدة بين زيارتي للقرية متحجّجًا بمهام العمل ومشاغله، كي أخفف من نوبات الصدام بينهما. سألتني ونحن نفطر:

- من سيوصلك إلى المطار غدًا يا عمر؟

- سأستأجر سيارة أجرة.

- سأأتي معك؟

نظرت إليها أُمي متعجبةً، فقالت متحديّةً:

- أقسم بالله لأرافقه إلى المطار، حتى وإن وقع طلاق بيني وبين مندور.

قبلت رأسها، وقلت باسمًا:

- أنا أسعد الناس حظًا لأنني رُزقتُ بأُمّين إحداهما تجيد الطبخ والأخرى تجيد العراك!

ثم أردفت:

- لا داعي لتعبك يا أمل، فهم لا يسمحون لأحد بالدخول إلى المطار، ولن ينالك سوى تعب الطريق.

قالت دامعة:

- يصعب علي سفرك وحيدًا يا عمر.

وجمت أُمي، ثم شرعت في البكاء هي الأخرى وقالت:

- منك لله يا أمل، أمسك دموعي أمامه حتى لا أبكي، لماذا تزيدين من أوجاعي؟

وضعت الطعام وقلت لهما لائمًا حتى تكفا عن البكاء:

- ما هذا الحزن، وما هذه الكآبة؟ المفترض أن تطلقا زغرودة لأنني مسافر.

مسحت أمل دموعها وقالت ضاحكة:

- زغرودة؟ ألا تعلم أن أمك تخاف الحسد؟ هي لم تخبر زوجة خالك حتى الآن.

ثم أردفت:

- هل فرنسا بعيدة يا عمر؟

- ثلاث ساعات فقط بالطائرة.

- ومتى تعود؟

لم أشأ أن أخبرها بأنني على الأقل لن أعود خلال الأعوام الثلاثة القادمة، فقلت:

- إذا استطعت أن أعود في الصيفية القادمة سأفعل.

ثم أشرت إلى جهاز التليفون الجديد الذي رُكِّبَ قبل أسابيع قليلة:

- ولكنني سأتصل بكم كل أسبوع!

تنهدت أُمي وقالت، وكأنها شعرت بما أضمره:

- أخشى أن تسير على خطا عمك منير يا عمر وتظل هناك عشر سنوات.

ثم قالت في انكسار:

- أريد أن أرى أولادك قبل موتي يا عمر.

قلت بلهفة:

- بعد الشر عنك يا أمي.

فردت بانكسار أكثر:

- لن أسامحك إذا مت، وأنت بعيد.

تجاهلت عبارتها، ثم وضعت الطعام في فمي وأنا أقول:

- يبدو أنكما تصران على تكدير فطوري ولكني لن أفسد طعامي بسببكما!

في المساء كنت أجلس مع أحمد عقل على المقهى المواجه لمستشفى أجا المركزي الذي يعمل به. لم أكن قد رأيته منذ شهور، فحرصت على رؤيته قبل السفر. وضع النادل أمامنا كوبين من الشاي تطفو على سطحه وريقات النعناع، ثم ناول أحمد مبسم النارجيلة بعد أن اختبر عدم انسداده بسحبتين من أنفاسه. قلت مفتتحًا الحديث:

- مررت منذ شهر أمام المستشفى ووجدت أن النقطة على لافتة المستشفى النحاسية قد سقطت من حرف الجيم في كلمة أجا!

ضحك وقال:

- أصلحناها، رغم أنني كنت أراها أفضل بغير النقطة.

- لماذا؟

- يسمى هذا في علوم الإدارة، إدارة توقعات العميل فحين يدخل المريض وهو يتوقع الأسوأ، يشعر بالامتنان لأي خدمة تقدم له.

ضحكت، ثم قلت:

- أعلم أنه سؤال نمطي، ولكن هل تريد شيئًا من فرنسا؟

زفر دخان نارجيلته ثم قال وهو يمط فكه السفلي بصورة مضحكة:

- نسوان.

ضحكت، وأنا أسعل، ثم قلت:

- أعدك أن أحاول.

ثم سألته:

- أتعجب أنك لم تسافر، رغم تشجيعك الدائم لي على السفر!

- أنا أمارس مهنة خدمية، لا يمكنني تركها.

ثم تابع في نبذة حزن:

- في أحيان كثيرة ألعن غبائي على عدم السفر، ولكنني أعود وأتذكر ذلك الفلاح البسيط الذي يعيش في أجا وأتساءل، كيف سيعيش إذا عزم كل الأطباء على الرحيل.

قلت له بإعجاب:

- بداخلك قديس نبيل.

زفر سحابة عظيمة من الدخان وكأنه يحترق بداخلها وقال:

- أو مغفل كبير.

سألته وكنت أحب آراءه السياسية:

- كيف ترى الواقع؟

- بلغة الطب نحن الآن في غيبوبة بمقياس سبعة.

نظرت إليه مستفسراً، فتابع:

- هذا المقياس نستخدمه لحساب درجة وعي المريض.

- وماذا تعني الدرجة سبعة؟

- تعني أن المريض لا يفتح عينيه، ولا يصدر صوتاً، ولكنه يطيع الأوامر.

ضحكت من تشبيهه وقلت:

- وما الحل يا طبيب؟

وضع ساقاً على ساق ثم قال:

- هذا المريض احتمالية نجاته ضئيلة، وفي أغلب الأحيان يموت، ولكن الحل الوحيد لنجاته أن نمنحه محفزات للوعي

ثم مال نحوي وقال:

- ومحفزات الوعي في حالتنا هي العلم.

تذكرت عمي منير فقلت:

- هل تعلم أن لي عمًا كان يقول إن العلم هو نبي هذا الزمان!

صمت قليلًا ثم قال:

- هذا صحيح، ولكنه لم يبعث في أرضنا، وإنما هناك في أرض الشمال!

- ماذا تقصد؟

- أوروبا، ولهذا أشجعك على السفر!

ثم سحب نفسيًا كي يزفر انفعاله، ولكنه اكتشف أن التبغ قد احترق، فنادى على النادل كي يضع حجرًا آخر للنارجيلة، ثم قال مبتسمًا وهو يخفي حزنه:

- سأفتقدك، وسأنتظر منك خطابًا أطمئن به عليك وعلى النسوان.

عدت إلى القرية، وكانت صلاة العشاء قد انتهت لتوها، مررت بالمسجد، فرأيت جموع المصلين خارجين، وهم ينتعلون أحذيتهم، ثم يسرون في ضوء القمر الذي دنا من الأرض بدرا وكأنه سيلامس الطريق. توقفت حين رأيت طفلاً يتربص خلف شجرة، ويخفي حذاء طفل آخر، وكان الأخير يبحث عنه في حيرة. أشرت لصاحب الحذاء إلى مخبأ الطفل الأول، فجرى نحوه وحين قبض عليه تعالت ضحكاتهما في بهجة، وانطلقا يعدوان في مرح. وقفت أتأملهما مبتسمًا، وحين عدت إلى الطريق، وقع بصري على صفحة القمر البدر، وخيل إلي أنني أرى عليه وجه أبي، وهو يشاركني الابتسام.

(10)

أنجوس

كان حاله أفضل قبل أن يراها، استعر فؤاده بالجوى، وروحه بالحنين، وصارت صورتها، وهي تنطق باسمه، لا تفارق خياله ليل نهار. تكالبت عليه المخاوف وشعر بأنه خذلها حين تركها بعد أن افترض أمرها. حكى إلى لينوس ما حدث ليزيح الهم عن صدره، فانزعج لينوس وأخبره بما أفزعته أكثر، قال له إنه وقع في حب ابنة زعيم الإخوة، أنوسطس، ثم أردف في حسم:

- اسمع يا قدموس، انسها، وتوقف عند هذا الحد، ومن حسن الحظ أن أنجوس لم يؤذك!

- من أنجوس هذا؟

- بربري اعتنق فكر جماعتهم منذ سنوات، وهو أكثرهم تعصبا.

في اليوم التالي سكب جهده كله في العمل ليطفئ غضبه ويخفف أحزانه، جمع الزيتون في جوالق،

سحبها إلى المخازن، ثم ملأ الرحى بالزيتون، ودار بوتدها مغمض العينين كالثور وكأنه يسحق غضبه تحت حجرها، فجأة دخل عليه لينوس وكان وجهه مكفهراً، توقف عن الدوران ثم سأله:

- ما الذي أتى بك مبكراً؟

تنهد لينوس ثم قال:

- اعترض أنجوس طريقي في الأجورا اليوم.

انزعج قائلاً:

- وماذا حدث؟

- أخبرني بأنه سيتزوج من ابنة أنوسطس، ويحذرك من الاقتراب منها!

مادت به الأرض، وسقط على مصطبة بجواره، وقلبه يرفرف ألماً. جلس في مكانه ساكناً للحظات ثم قال في شروء:

- يتزوجها! مستحيل!

ثم انتبه من شروده وقام قائلاً:

- لا يمكن أن يتزوجها ، أيولا تحبني أنا، سأصعد إليها الآن.

أمسكه في عنف وقال:

- انتهى الأمر يا قدموس! ماذا بوسعك أن تفعل؟

- سأصعد إليها، وأهرب بها!

- سيقتلك أنجوس دفاعًا عن الشرف!

- أي شرف لرجل يتزوج امرأة كرهاً!

- خطبها أبوها له وهذا شأنهم.

بكت عيناه وهو يقول:

- صدقني هي مكرهة.

ربت على كتفه، ثم قال في هدوء:

- اسمع يا قدموس، نحن لا نملك مالا ولا سلطة ولا عشيرة، ويحترمنا الناس لما نبديه من احترام للشرف والقانون في مارسيليا. ولو فعلت ذلك لفقدنا شرفنا.

أطرق في حزن ولم يرد، فتابع لينوس:

- انس أمرها، وعد كما كنت، لماذا لا تكتب الشعر؟ عد إلى الشعر، فهو أبقى لك.

تنهد متهمكماً، ثم قال:

- الشعر! اللعنة على الشعر الذي منحني حباً مكبلاً بالعجز!

لم يتركه لينوس حتى اقتربت الشمس من الغروب، وحين رآه يرتدي حذاءه ويذهب إلى حانة نقفور، أدرك أنه قد بدأ في تجاوز أحزانه، فعلى الأقل سيستيقظ في الصباح وقد نسي كل شيء. وفي الحانة احتار نقفور من حال صديقه، كان صامئاً حزيباً لا يستجيب لمداعبات الفتيات، ولا يمد يده للشراب. قال له متعجباً:

- ما كنت أظن أن تؤلمك امرأة إلى هذا الحد يا قدموس؟!

نظر نحوه طويلاً ثم قال وهو يكتم دمه:

- أصابني كيوبيد بسهمه، ولم أعرف أن سهامه مؤلمة إلى هذا الحد يا نقفور!
صب له كأسًا من الخمر وقال:

- كل الجراح تندمل ولو بعد حين. اشرب، وسأتيك بامرأة تنسيك حبها.
دفع الكأس، ولم يشرب، ثم قال في صوت متهدج:
- لأول مرة أشعر بأني ضئيل، لا أهل، ولا جماعة، ولا مال، ولا قوة. ماذا يضير
العالم لو مات شاعر في مارسيليا!

ثم التفت نحوه وقال:

- هل ما زلت راغبًا في شراء المعصرة؟
- نعم.

مال برأسه نحوه كطائر مذبوح ثم قال:
- سأبيعها لك، وسأرحل عن مارسيليا.
- وماذا عن لينوس؟

- لينوس يملك الحانوت، يمكنه أن يأتي بالزيتون من أي معصرة أخرى!
ارتبك نقفور، ولم يدر أيفرخ بشراء المعصرة، أم يحزن على رحيل صديقه!
التزم الصمت لفترة وهو يصب لنفسه كأسًا أخرى من الخمر ثم قال وقد
توهجت فيه ذؤابة نبل، لم تخمد لها روح التاجر التي تطفئ عليه:

- يؤلمني أن أفوت تلك الفرصة، ولكني لا أريدك أن ترحل عن مارسيليا. كما
أن لينوس لن يسمح ببيع المعصرة، حتى لو كنت مالكها!

ثم أردف بعد أن ابتلع الشراب:

- قل لي من تلك الفتاة التي قتلتك عشقًا؟

- أيولا، زهرة القمر، التي سيسحقها الثور أنجوس.

انتبه نقفور فجأة حين سمع الاسم، فمسح فمه، وقال:

- أنجوس!! ذلك الشاب الذي يسير خلف أنوسطس البيثاغورسي كظله!

تعجب أنه يعرفه. فقال:

- هل تعرفه؟

- أعرف عنه الكثير.

- كيف؟!

أمال شفتيه ساخرًا، ثم قال:

- النساء يا صديقي، إذا أردت أن تعرف حقيقة الرجال فاسأل عنهم النساء.

تجرع رشفة من كأسه، ثم صمت قليلاً متفكرًا قبل أن يقول:

- اسمع يا قدموس، أظن أنك تستطيع أن توقف تلك الزيجة!

قال في لهفة:

- كيف؟

- سأخبرك بكل شيء، ولكنني أريدك أن تأتيني هنا غدا بعد الظهر، وقد ارتديت أفضل ملابسك.

في اليوم التالي تطلع الناس في حي إخوة بيثاغورس إلى رجلين وامرأة يدخلون إلى الحي بأزياء غريبة تلفت الأنظار. كان أحد الرجلين مهول الجسد يرتدي عباءة حريرية، مطرزة الأحرف بالقصب، والآخر شاب متناسق البنيان يرتدي خيتونًا قصيرًا ويزين عضده سوار من الذهب. أما المرأة فكانت ترتدي زيًا حريريًا فضفاضا وتضرب على وجهها وصدورها بخمار. أوقف البدين صبيًا في الطريق وسأله:

- أين أجد أنوسطس البيثاغورسي؟

أشار الصبي إلى المبنى الحجري الذي يقع خلف الفوارة الخماسية وقال:

- في المدرسة.

ساروا إلى المدرسة وحين ولجوا بابها، كان أنوسطس يجلس في المنتصف وقد تحلق حوله أتباعه يستمعون إلى شرحه، بينما كان أنجوس يرتكن إلى عمود على مقربة منه. توقف أنوسطس عن الكلام حين رأى الزائرين، بينما قال نقفور:

- طاب صباحك يا سيد أنوسطس، أنا التاجر نقفور من تجار مارسيليا، وأريد التحدث إليك.

شعر قدموس بالتوتر حين هب أنجوس واقفًا. تلاقت أعينهما وبدا جليًا أنه يتعجب وربما يتساءل كيف واثته الجرأة على العودة مرة أخرى. ولكن من المؤكد أن عجه كان أكبر من نقفور، وتلك المرأة المحتجة تحت خمارها. أشار أنوسطس إلى تلاميذه بالخروج، بينما ظل أنجوس واقفًا كما هو. قال نقفور:

- إذا سمح السيد أنوسطس، نريد أن نتحدث إليك وحدك!

أجاب أنجوس في حسم:

- أنا لا أفارق سيدي المعلم!

قال أنوسطس:

- أنجوس تلميذي، ولا أخفي عليه شيئًا.

ثم أشار إليهم بالجلوس. جلسوا بهدوء، في حين قال نقفور وهو يللم عباةته:

- حسنًا أيها السيد! دعني أعرفك بنفسي. أنا نقفور، أشهر عاصري الخمور في مارسيليا، وخموري هي المفضلة لدى الحاكم ماركوس باسيلوس. أما هذا فهو صديقي الشاعر قدموس، وهو من أبدع الشعراء في مارسيليا. ويمتلك معصرة رائعة في تلة دوميز أتمنى أن أمتلكها يومًا.

هز أنوسطس رأسه، من دون أن يعلق، فتابع نقفور:

- إن قدموس، يرغب في الزواج من ابنتكم أيولا. وقد جاء يطلب منك الإذن بالزواج.

نفرت الدماء في عروق أنجوس، ولكن هدوء السيد أنوسطس جعله يتماسك، وهو يقول:

- إنه لمن دواعي الشرف لنا يا سيد نقفور، ولكن يؤسفني أن أقول إن الفتاة ستتزوج قريبًا.

ثم أشار نحو أنجوس وقال:

- فقد خطبها السيد أنجوس.

تظاهر نقفور بالدهشة وقال:

- حقًا! لم نكن نعلم ذلك!

قال أنجوس بحدة:

- وها قد علمت يا عاصر الخمر، فليتك تبلغ صديقك عاصر الزيتون ألا يحوم حول حينا مرة أخرى، فلو أمسكت به سأبارزه دفاعًا عن الشرف، ويسعدني أن آتيك برأسه، في أمفورة زيت، أو أمفورة خمر، أيهما تختار!

تمالك نقفور غضبه وقال في سخرية:

- دفاعًا عن الشرف!

ثم نظر نحو أنوسطس وقال:

- ولكن، أليس من الشرف ألا تتزوج الحرة من رجل متزوج؟ أليس من قوانين مارسيليا، أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة! قل لي يا سيد أنوسطس هل ستمنح ابنتك خليعة للسيد أنجوس أم أنه سيتزوجها؟

عبس وجه أنوسطس، بينما قال أنجوس بحدة:

- ماذا تقول أيها الرجل الخرف؟

لم يهابه نقفور، بل قام واقفًا، ثم نخر كثور وهو يقول بتحد:

- خرف؟ هل سمعت عن نقفور، وعائلته أيها العبد البربري؟!

ثم أردف:

- لولا أنني في حضرة سيدك، لجعلتك تبتلع لسانك جراء هذه الكلمة.

احتقنت الدماء في عنق أنجوس وهو يقول:

- عبداً!!

قال أنوسطس مهدئًا:

- معذرة يا سيد نقفور! تلميذنا أنجوس، ليس عبدًا، بل هو حر، وهو من أخلص رجالنا.

ثم أردف:

- ولكنني أرجو منك الإيضاح، ماذا تقصد برجل متزوج؟ فالسيد أنجوس متبتل للعلم والفضيلة وغير متزوج!

قال ساخرًا:

- متبتل للعلم والفضيلة!

ثم جلس وقال:

- ما كنا لنتهم الناس بالباطل يا سيد أنوسطس.

ثم أشار للمرأة المحتجة، وقال:

- وهذا هو الدليل.

رفعت المرأة خمارها، فإذا بها فاتنة سمراء طويلة الأهداب، يتدلى من وتيرة أنفها حلق من الفضة، وتبدو من ملامحها أنها من البربر. كانت المفاجأة المرسومة على وجه أنجوس كافية لتأكيد صدق نقفور الذي تابع:

- هذه تالا فتاة من البربر وهي جارية عندي، وتعمل في إحدى حاناتي.

ثم سألها:

- ماذا تعرفين عن السيد أنجوس يا تالا؟

قالت الفتاة في ثقة:

- السيد أنجوس متزوج من امرأة اسمها ديبا ولديه منها ابن في الخامسة!

نظر إليه أنوسطس منزعجًا، فقال:

- ليس صحيحًا يا سيدي، هذا كذب!

ندت عن الفتاة شهقة وهي تقول في حقد:

- كذب؟! يا لك من مخادع! آه لو علمت ديبا أنك تنكرها، وتنكر ابنها، لشقت صدرك بخنجر مسموم!

نظر أنوسطس نحوه باستنكار، فقال متوسلاً:

- صدقني يا سيدي، كان هذا في الماضي، لقد تركتها منذ منحتني الخلاص.

شمרת الفتاة عن ساعدها، ثم أشارت إلى وشم باسمه على عضدها وهي تقول:

- وهل نسيت وعدك لي بالزواج أنا أيضًا أيها المخادع؟!

تجاهلها ونظر إلى أنوسطس الذي بدا عليه الذهول ثم قال:

- يا سيدي، لا تصدق هؤلاء الوشاة، فأنا تلميذك المخلص! ألم أتطهر على يديك؟! ألم تختبرني لسنوات، حتى صرت رجلك الأقرب!

قال أنوسطس في احتقار:

- للأسف لقد طهرت عقلك بالعلم، وجسدك بالرياضة، ولكنك لم تطهر روحك بالعفة، ولا نفسك بالمحاسبة. كنت أظن أن الغضب هو مثلبتك الوحيدة، ولكنني أضيف إليها اليوم الكذب.

ثم أردف في حسم:

- اذهب يا أنجوس الآن وانتظر أن تعقد لك محاكمة!

أوما برأسه وقال:

- أمرك يا سيدي، ومهما يكن قرارك فأنا خادمك المطيع!

ثم خرج، وعيناه ممتلئتان بالغضب، بينما ارتجت خدود نقفور من الفرح، وهو يتابع خروجه، ثم غمز لقدموس كي يتحدث. قال قدموس بصوت جعله هادئاً ورصيناً:

- سيد أنوسطس ما جئت اليوم لألقي بالفتنة بينك وبين أنجوس، ولكن جئت لأنني أحب ابنتك، ولو سألتها ستخبرك بأنها تحبني!

تنهد وكأنه يشعر بأحزان الدنيا تتكالب عليه، ثم قال:

- اسمع أيها الشاب، لقد أخبرتني أيولا عنك، واختصاراً أنا لن أزوج ابنتي لشاعر، من غير ملتنا!

- أليس في هذا ظلم؟

- ظلم؟

- نعم، فأنت تفرق بين اثنين جمعهما الحب!

- الحب شهوة دنيئة تدفعها الغريزة، ومثلها مثل كل الشهوات، نعلم أولادنا أن يتطهروا منها، أما الزواج فهو رباط مقدس نحسن التخطيط له والإعداد من أجله. وأنت لا تصلح للزواج بها.

- ما الذي ينقصني حتى أكون جديراً بها يا سيد أنوسطس؟

- ينقصك أن تكون واحدًا منا.
- وكيف أكون واحدًا منكم؟
- لا يوجد «كيف»، إما أن تكون أو لا تكون؟ لقد كان أنجوس آخر غريب ينضم إلينا، وقد أثبت اليوم أنه لا مكان للغرباء بيننا.
- شعر بصلف الرجل يخنقه فقال:
- هل تأمركم عقيدتكم بهذا؟
- عقيدتنا! وماذا تعرف عن عقيدتنا؟
- ثم قام من مكانه منهياً الحديث وقال:
- اذهب أيها الفتى، فقد ارتقيت مرتقياً يصعب عليك!
- لم يتمالك قدموس نفسه من الغيظ فقال العبارة التي سمعها من لينوس من قبل:
- لقد صدق المعلم بيثياس حين قال إنكم تدّعون إنكم صفوة البشر، لتتعالوا على الناس!
- توقف عند الباب ثم التفت نحوه، وقال:
- المعلم بيثياس؟! إذن فأنت من أتباعه!
- ثم خبط بعصاه على الأرض وقال بحسم:
- وهذا سبب آخر يجعلني لا أقبلك زوجًا لابنتي.

(11)

أبريال

وصلت إلى محطة قطار سان شارل في مارسيليا بعد رحلة طويلة استغرقت ست عشرة ساعة، بدأت من القاهرة إلى باريس بالطائرة، ثم من باريس إلى مارسيليا على متن القطار، وبين الرحلتين ساعات من الانتظار المليء بالدهشة. علقت حقيبة صغيرة على كتفي ثم سحبت حقيبة سفري الثقيلة المحملة بالكتب وعلب الكعك، والسمن البلدي التي أصرت أُمي على السفر بها، بعد تحذير شديد اللهجة، من تناول سمن بلاد أوروبا المصنع من دهن الخنزير. خرجت من محطة القطار المزدحمة فاستقبلني هواء الشارع الساخن المشبع بالرطوبة. بحثت بعيني عن اتجاه موقف سيارات الأجرة، وحين وجدته، فتحت مظروفاً من البلاستيك الشفاف، أحمل فيه أوراقتي، وأخرجت ورقة مكتوب بها عنوان السكن الذي أرسله لي سكرتير الدكتور سلطان مازيس، قرأت عنوان السكن للمرة العاشرة في ذلك اليوم: «منزل 11 حي لوبانير - من رو دي ريفوج - مارسيليا» كانت كلمة «رو دي ريفوج» تعني حرفياً شارع اللاجئين، وقد أشعرتني بالحرع حين قرأتها أول مرة، وتمنيت أن يكون المعنى المقصود منها شارع المغتربين. طويت الورقة ووضعتها في جيبتي، كي أريها لسائق السيارة الأجرة إذا لم يفهم لكنتي الفرنسية، المتبلة ببهارات الشرق. فجأة توقفت أمامي سيارة بيجو حمراء حديثة، وهبطت منها سيدة أنيقة، تحمل في يدها ورقة مطبوع عليها اسمي، وهي تقول متلهفة:

- أنت مسيو عمر، أليس كذلك؟

أومأت برأسي في سعادة حين سمعتها تنطق باسمي، وقلت بفرحة الغريب الذي وجد من يعرفه:

- أنا عمر

تنهدت في سعادة ثم قالت:

- سعيدة أنني أدركتك قبل أن ترحل، وآسفة على التأخير، الزحام في مدخل المحطة لا يصدق.

ثم صافحتني وعرفت نفسها، قائلة:

- أنا أبريال مارسيل سكرتيرة مسيو مازيس وقد أرسلني لاستقبالك في المحطة.

وحين نطقت اسمها، وقفت مرتبكًا لوهلة، وأنا أستجمع حروف اسمها في عقلي لاعتًا غبائي، فقد كانت ذات الشخص الذي كنت أرسله طيلة العام الماضي وكنت أظنها رجلًا، لأنها كانت تستخدم في كل المراسلات اسم مارسيل، والحرف الأول فقط من اسم أبريال! أربكتني المفاجأة فقلت:

- شكرًا جزيلاً لقدومك مدام مارسيل.

دارت حول السيارة في سرعة، رغم أنها كانت ترتدي كعبًا عاليًا، وتنورة ضيقة، ثم فتحت الصندوق الخلفي لسيارتها، كي أضع حقيتي. احتارت حين وقع بصرها على حقيبة سفري الكبيرة وقالت:

- لا أعرف هل سيتسع صندوق السيارة لتلك الحقيبة أم لا؟

شعرت بحرج بالغ، وهي تفرغ صندوق سيارتها من كل أغراضها، وتضعها على المقعد الخلفي، ثم وهي تقوم بمعاونتي في حمل الحقيبة الثقيلة، ووضعها داخل الصندوق بحرص حتى لا نخدش شيئًا من طلاء السيارة. قالت لاهثة بعد أن اطمأنت إلى أن باب الصندوق قد أغلق بأحكام:

- أظنك قد أتيت بكل الذكريات التي ستفتقدها في مصر!

قلت ضاحكًا:

- بقي فقط فردين من عائلتي لم أحضرهما أُمي وأختي.

خلعت سترتها ووضعتها على المقعد الخلفي، ثم شدت قميصها الأبيض قصير الأكمام فوق جسدها وأشارت إليّ كي أركب إلى جوارها. سألتني إن كانت هذه أول مرة لي في فرنسا، فأخبرتها بأنها أول مرة أغادر فيها مصر. قالت بحيوية وهي تضع حزام الأمان:

- من حسن الحظ، أنك ستبدأ رؤيتك للعالم من مارسيليا.

أربكتني ذراعاها العاري وتنورتها التي انحسرت فوق ركبتيها حين استرخت على مقعدها وتصبب جبیني عرقًا، بسبب الحر والارتباك، فأخرجت منديلًا لأجففه. قالت وهي تشغل مكيف السيارة:

- أغسطس هو أسوأ الشهور في مارسيليا، ولكنك ستستمتع بطقس خريفي رائع الشهر القادم.

سارت السيارة ببطء خلف طابور طويل ومنضبط من سيارات الأجرة المغادرة للمحطة، ورغم الزحام كان كل شيء جميلًا ومدهشًا، مبنى المحطة الأثري المزين بزخارف تشبه بنايات القاهرة الخديوية في الأربعينيات، علامات الشوارع ولافتاتها التي تتحدث بحميمية إلى المارة، لافتات الدعاية العملاقة التي تحتل سماء الطريق وتخطف الأبصار. أشارت أبريل إلى مبنى حديث نسبيًا يجاور المحطة وقالت:

- هذا هو مبنى الجامعة، المسافة بين سكنك، في حي لوبانيير وهنا نصف ساعة سيرًا على الأقدام أو عشر دقائق بالترام.

سألته:

- هل لوبانيير، حي يسكنه اللاجئون؟

ضحكت قائلة:

- لم يعد كذلك، كان ذلك منذ أمد بعيد، هو حي فقير نسبيًا ولكن يسكنه الطلبة المغتربون.

ثم أردفت وهي تميل برأسها نحوي:

- أنا من مواليد حي لوبانيير!

اختلفت النظر إلى وجهها، كانت ملامحها هادئة أنيقة كأناقة ملابسها، تجدل شعرها الكستنائي في جديلة فضفاضة خلف رأسها، وتمنحها نظارتها الطبية مظهرًا جديًا لا يخلو من اللطف رغم أنه يخفي زرقة عينيها الهادئة. حاولت أن أضمن عمرها، ربما كانت في بداية الثلاثينيات، أو أكبر من ذلك قليلًا، ولكنها على أية حال، تبدو نضرة ومشرقة خاصة حينما تضحك. سألته:

- منذ متى وأنت تعملين مع الدكتور مازيس؟

- منذ ما يقرب من عشر سنوات!

- حقا! وكم يبلغ عمرك إذن؟

- هذا ليس سؤالًا جيدًا للنساء!!

- آسف.

هزت رأسها متقبلة الاعتذار ثم أردفت مبتسمة:

- لا داعي للاعتذار، سوف أتم الأربعين بعد ثلاثة أشهر.

- مستحيل! تبدين أصغر من ذلك بكثير.

ضحكت قائلة:

- هذه عبارة جميلة جدًا للنساء!

انحرفت بالسيارة إلى مخرج وضعت عليه لافتة كُتِبَ عليها الميناء القديم،
وحين لاح أمامي الميناء، خفق قلبي من جمال المشهد. كانت عشرات
المراكب الشراعية تتراص جنبًا إلى جنب على رصيف الميناء وقد بسطت
أشرعتها، بينما تجلّى قرص الشمس خلفها مودعًا الأفق بين هضبتي الخليج،
فبدا وكأن الماء يبتلع القرص في جوفه. امتدت يدي في سرعة إلى الحقيبة
الصغيرة، وأخرجت كاميرا فيوجي فيلم، أحضرتها معي من مصر. أبطأت
أبريل سرعة السيارة، وقالت مبتسمة:

- هل تحب أن أتوقف؟

- نعم.

أوقفت السيارة، فهبطت منها مسرعًا وضبطت العدسة ملتقطًا صورة
للمشهد الرائع، ثم عدت وأنا أقول:

- شكرًا مدام مارسيل! هذه أول صورة لمارسيليا!

قالت مبتسمة:

- وهذا أقدم مكان في مارسيليا أيضًا!

ثم مالت برأسها نحوي وقالت قبل أن تتحرك:

- أعدك أن أطوف بك في جولة بمارسيليا، فقد كنت أعمل بالسياحة قديمًا.

ثم رفعت سبابتها وقالت في تهديد:

- بشرط ألا تلتقط الصور في أثناء الشرح!

ابتسمت، وأنا أقول ممتنًا:

- هذا لطف منك مدام مارسيل.

انتبهت إلى أنني أكرر كلمة مدام كثيرًا فقلت:

- هل من المناسب أن أناديك مدام، أم أنك مادموزيل؟

- ما الفرق؟

- تعلمنا في مدارسنا، أن مدام نخاطب بها المرأة المتزوجة، ومادموزيل لغير المتزوجة.

- وهل هناك لقب للرجل المتزوج، وآخر لغير المتزوج؟

- كلا، كلاهما مسيو!

- إذن لماذا تفرق بين الرجل والمرأة؟

قلت وكأنني أدفع عن نفسي اتهام:

- هكذا تعلمنا في مصر.

ابتسمت قائلة:

- اسمع! مادموزيل لا علاقة لها بالزواج، فقط ندلل بها الفتيات الصغيرات.

- وكيف تدلل المرأة الناضجة؟

ضحكت قائلة:

- لا أعلم

قلت باسمًا:

- إذن سأناديك مادموزيل.

ضحكت بصدق ثم لكزتي في كتفي وهي تقول:

- أنت مضحك حقًا يا عمر.

لا أدري كيف تجاوز الحوار بيننا رهبة البدايات، ووصل إلى تلك الدرجة من القرب التي كنت أستعذّرها، ولكنني أستغريها كونها شعورًا لم أختبره من قبل. فمِنذ زارني طيف الحُلم، وحتى بلغت التاسعة والعشرين، لم يحدث أن استرسلت في حديث مع امرأة، ونجحت في إكماله من دون تلعثم. وكنت أعزو ذلك إلى خللي، وربما انكساري، فما إن تقع عين محدثتي على أذني المختلفة، وتتغير نظرتها من التعجب إلى الشفقة، حتى أصاب بالارتباك والتلعثم وأنهاي الكلام. ولكن العجيب، أن أبريل منذ بدأت الحديث معي، لم تنظر إلى أذني قط، وكأنها لا تراها. وصلنا إلى ساحة شارت فتوقفت بسيارتها أمام شارع مرتفع يرتقي الصاعد إليه فوق درجات من الحجر مطلية بالأوان زاعقة، وتغطيها رسومات ثورية لبعض الهواة. قالت:

- هذا هو شارع لوبانيير.

- ثم أشارت إلى بناية من خمسة طوابق تبدو قديمة نسبيًا، ثم قالت:
- وهذا هو البيت الذي ستسكن فيه، البيت كله مستأجر لطلبة الجامعة، ستكون شقتك في الطابق الثالث.
 - أطفأت المحرك، ثم فتحت لي صندوق السيارة فأخرجت الحقيبة بالحرص نفسه الذي وضعتها به، ثم ناولتني مظروفًا صغيرًا وقالت:
 - هنا ستجد مفتاح الشقة، وبطاقتك الجامعية، وبطاقة بها أرقام تليفوناتي في حال احتجت إليّ.
 - ثم أشرق وجهها بالابتسامة وهي تقول:
 - أتمنى لك عطلة نهاية أسبوع سعيدة يا عمر.
 - مددت يدي لأصافحها، ولكنها باغتتني بأن ضمتني إلى صدرها، ضمة سريعة وهي تقول:
 - اعتني بنفسك، أراك يوم الاثنين.
 - ورغم أن الحزن كان محايدًا ولم يستغرق سوى ثانية واحدة، فقد أثار في جسدي رعدة حلوة رافقتني بعدها لأيام.

حفيدة بيتاغورس

كانت تدور في حجرتها وهي لا تصدق عينيها، ها هو قدموس وإلى جواره رجل وامرأة يسيرون جميعًا نحو المدرسة. أصابتها المفاجأة بالذهول، أيعقل أن يكون قدموس قد أتى لإنقاذها؟ لم تتمالك نفسها من الفرحة ولم تصبر حتى تعرف الإجابة، تركت حجرتها وأسهرت إلى السرداب الذي يصل بين قبو البيت والحجرة السرية بالمدرسة. تلك الحجرة التي تجاور قاعة الدرس ولا يعرف أحد بسرّها سواها. فحين أتمت عامها العاشر سار بها أبوها عبر ذلك السرداب، وهي تتعثر من الدهشة، ثم أوقفها في منتصف الحجرة وقال:

- هنا ترقد أسرار المعلم الأكبر بيتاغورس في أمان.

أخبرها بأن الحجرة تحوي المخطوطات التي جمعها المعلم بيتاغورس بنفسه من مصر وبابل، وكذلك المثلث العشري المقدس الذي رسمه بيده، ورمح أباريس الذهبي الذي أهدي إليه من أرض الشمال. ثم شرع يحكي لها قصة حياة المعلم الأكبر التي لم تفارق مخيلتها منذ كانت طفلة. حكى لها كيف أنار بيتاغورس العالم بعلمه من مدرسته، في مدينة كورتونا. ولكن الكارهين له من مدّعي العلم، وكذلك أصحاب المال الأغنياء، الذين يسوقون الناس بالجهل، قد هيجوا العوام ضده وضد أتباعه، وضيقوا عليهم الخناق، حتى ثار عليه الناس، وحاصروا مدرسته، وذبّحوا من جماعته أربعين شخصًا. وحين هرب إلى كولونيا، أملا في أن يجد فيها النصرة، قابله أهل كولونيا بالخدلان، فقرر العودة وحده إلى كورتونا ليواجه أعداءه بنفسه. سألته وقلبها الصغير يخفق من الخوف:

- وماذا حدث له حين عاد؟

- طارده الغوغائيون، فصعد إلى معبد ربّات الفن مستجيرًا به، ولكنهم حاصروه ومنعوا عنه الطعام والشراب أربعين يومًا وليلة حتى مات.

دفنت وجهها في يدها وبكت فتابع:

- ولكنه قبل أن يموت، أمر تلاميذه بأن ينتشروا في الأرض، حاملين معهم وصاياه، وأمرهم بأن يتوارثوها فيما بينهم وألا يشاركوها الغرباء والجهلاء والحاquدين عليهم.

ثم ربت على كتفها وقال:

- من أجل هذا يا أيولا أريدك أن تعلمي أن الإخوة هم صفوة البشر، وأنت صفوة الإخوة!

ومنذ ذلك اليوم تعلقت الطفلة أيولا ذات العشر سنوات بتعاليم المعلم الأكبر بيثاغورس ورغم التزامها بسرية الوصايا تمننت لو تنشر أفكاره بين الناس، فهل هناك شيء أسمى من معاني الصداقة، والأخوة، والحب، وترويض النفس التي دعا إليها؟ وهل هناك ما هو أمتع من الحساب والأرقام والموسيقى التي عرف سرها ومعانيها؟ وحين علمت أن روح الإنسان تنتقل من صورة إلى أخرى في حيوات سابقة، شغلها التفكير في نوع الحياة التي عاشتها من قبل. كانت على يقين من أنها عاشت حياة سابقة فراشة تنتقل بين الزهور، أو عصفورًا يحلق بين الأغصان، وإلا فلماذا يتوق جسدها دوماً للتخليق بأجنحة في الفضاء؟ ولماذا هامت عشقًا بدروس الموسيقى، التي كانت ترى في نغمات سلمها درجات تصعد بها إلى السماء، وتعلو بها فوق السحاب؟ وربما لهذا أصرت على الذهاب إلى معبد ربات الفن، لتتعلم الموسيقى، رغم اعتراض أبيها على ذلك.

لم تهتز القواعد الصارمة التي وضعها أبوها بالبعد عن الغرباء، إلا مرة واحدة، حين ظهر ذلك البربري أنجوس في حيهم. تعجبت كيف قبل أبوها ذلك الغريب؟ فحتى وإن تطهر على يديه واجتاز كل الاختبارات بجلد وصبر، والتزم الصمت، وامتنع عن أكل اللحوم وشرب الخمر، وصعد معهم في خلوات فوق الجبل، واعتكف لأيام في حر الصيف وزمهرير الشتاء من دون طعام أو شراب، إلا أنه كان يبدو كنبته شاذة في أرض حيهم الغناء. وفي اليوم الذي رأت فيه قدموس لأول مرة، عادت إلى الحي وقد تقمصتها

أرواحها السابقة، رفرفت بأجنحة الفراشات، وغردت باللسنة العصافير ودارت في حجرتها كإناث النحام الوردية، وهي تتخيل قدموس يراقصها ويحيط وسطها بذراعيه. ثم ذهبت لأبيها، كي تخبره بسرها الصغير، فهي لم تعتد إخفاء أي شيء عنه. دخلت حجرته فوجدته يجلس مع أنجوس، وقد افترشت المسافة بينهما بردية كبيرة مرسوم عليها خريطة، وفوقها نموذج خشبي لسفينة كبيرة تشبه سفن الإغريق في الخليج. ارتبك أبوها لدخولها المفاجئ وسألها:

- هل تريدن شيئًا يا أيولا؟

- نعم.

أشار لأنجوس بالانصراف، فطوى أنجوس الخريطة ببطء، ثم حمل النموذج في يده، واستدار منصرفاً وهو يرمقها بنظرة شعرت منها بالاشمئزاز. حكّت لأبيها بحماس عن يومها، ثم حكّت له عن ذلك الشاعر المهذب الذي رآته، ورافقها حتى مشارف التلة،

وأنشد قصيدته على مسامعها. استمع إليها باهتمام، وعلى شفّيته ابتسامة باهتة، ثم قال:

- هذا يوم رائع، يا أيولا! ولكن إذا كان ذهابك إلى معبد ربّات الفن، سيجلب عليك المتطفلين، فمن الأفضل أن تكلمي دروسك هنا.

تعجبت من كلامه وقالت:

- هو شخص لطيف يا أبي وليس متطفلاً!

قال برفق:

- التلطف من الغريب تطفل يا أيولا، ونحن لا نثق بالغرباء.

ثم أكد عليها:

- إذا ضايقتك ذلك الشاب مرة أخرى، فلا تذهبي للمعبد.

تركته، وقلبها مفعم بالحيرة. كانت تلتقي قدموس، فتشعر معه بأنها تحلق في السماء التي تنتمي إليها، كلماته الزاهية كألوان الفراشات، وصوته العذب كتغريد الطير يهزّمان كل المخاوف التي غرسها فيها أبوها من الأغراب. حتى كان ذلك اليوم الذي عادت فيه من مقابلة قدموس، فسألها أبوها فجأة:

- ما أخبار ذلك الشاعر المتطفل الذي كان يطاردك؟

أربكها سؤاله المفاجئ، فكذبت لأول مرة عليه وقالت:

- لا أراه.

صمت وكأنه يعرف أنها تكذب، ثم قال:

- تعالي معي يا أيولا.

أخذها إلى السرداب ثم أشعل مصباح الزيت وقال:

- أخبريني يا أيولا، هل هناك مكان أعظم من هذا السرداب المظلم الذي يحوي إرث بيثاغورس؟

- كلا يا أبي؟

هز رأسه نفيًا ثم أشار إليها وقال:

- بل هناك ما هو أعظم منه، أنت يا أيولا!

- أنا؟

- نعم، أنت أعظم ما بقي من إرث بيثاغورس لأنك حفيدته الوحيدة، وستأتين بحفيد لبيثاغورس!

صمتت، مندهشة، فتابع:

- اسمعي يا أيولا ما سأقوله جيدًا، الحب شهوة دنيئة لا تليق بنا، وحين نتزوج نختار لأنفسنا أفضل الأزواج!

وفي اليوم التالي، قابلت قدموس، وهي تشعر بالاضطراب، فاجأها برغبته في أن يكون معها للأبد. حينها شعرت بالخوف. وعادت إلى الحي مسرعة، وكأنها تهرب من حلم جميل يهدد واقعها المغلق. وحين دخلت الحي، رأت أنجوس يقف مرتكزًا على جذع شجرة، ويخترقها بنظراته، ولوهلة شعرت بأنه يعلم كل ما تخفيه. انقطعت عن المعبد أيامًا، فشعرت بروحها تفتنى، وقد جفت عنها ينباع الحب والموسيقى في آن واحد، تمنيت أن تحدث معجزة، تستعيد فيها روحها المريضة، ولكن كيف لمرضى الحب أن ينجو وفي الحب تريقه. شغلت نفسها بالرياضة الذهنية، وكثفت من خلواتها في غار جارلابان. حتى كان ذلك اليوم الذي نزلت فيه من الغار على الجلبة التي حدثت في الحي، ورأت قدموس أمامها، لم تتخيل أنه قد صعد من أجلها. تفجر في قلبها الحب مرة أخرى هادرًا قويًا. واجهت أباه لأول مرة، رغم أنها تعلم أن انتقاد الأبوين من الكبائر. وقالت له:

- لماذا نكره الآخرين؟

- نحن لا نكرههم، نريدهم فقط أن يبتعدوا عنا.

- حتى وإن أحبونا؟

- حب الغرباء يرتبط دوما برغبة أو مصلحة.

- ولكن قدموس يحبني، ولا يريد شيئًا غيري.

- هذا ما تظنينه.

- بل هذا ما أثبتته لي حين جاء إلى الحي.

نهرها في غضب لأول مرة وقال:

- اسمعي يا أيولا، لقد دلتك لأنك ابنتي الوحيدة، ولكنني لن أسمح للناس أن تقول إن ابنة أنوسطس قد سقطت في دنس الحب مع رجل غريب.

ثم أردف في حسم:

- لقد خطبك أنجوس، وقد وافقت!

صرخت:

- أنجوس! الغريب؟!

- لم يعد كذلك

- ولكنني أرفضه.

- لا يحق لك ذلك، ولا تجبريني على عقابك أمام الناس.

شعرت بأجنحتها تحترق ولسانها يخرس. فكرت عشرات المرات أن تهرب، ولكن خوفها من غضبة أبيها جعلها تتراجع، فكرت في الانتحار، ووجدت في سم الشوكران حلاً لمتاعبها، ولكنها كانت تعلم أن الانتحار يمنع الروح من التطهر، فحبست نفسها في منزلها، وهي تتمنى أن تحدث معجزة تنقذها من مصيرها المحتوم؟ حتى أتى ذلك الصباح بما لم تتخيله، أتى قدموس لإنقاذها. شعرت بدبيب الشوق في قلبها كجنين يركل بطن أمه مطالبًا بحقه في الحياة. جرت عبر السرداب، وذهبت إلى الحجرة السرية. ألصقت أذنها لتستمع إلى الحوار، ندت صرخة مكتومة بالفرحة وهي تسمع والدها يطرد أنجوس اللعين، ويحيله للمحاكمة. ولكنها كادت تبكي قهراً حينما سحق أبوها كبرياء قدموس وطرده بغير شفقة. عادت إلى حجرتها، وقد زال عنها كابوس الزواج من أنجوس، ولكن حلمها بالقرب من قدموس قد صار بعيد المنال.

(13)

مسيو سلطان مازيس

ضجت قاعة شيلدون جلاشو العريقة في جامعة مارسيليا، بالتصفيق بعدما أنهى الدكتور سلطان مازيس محاضراته بخلاصة مؤثرة قال فيها:

- «إن النظرية التي نشرها باري فوجت في مجلة الطبيعة منذ سنوات لتوقع انفجار البراكين، قد أصبحت الآن حقيقة، بعد أن صممنا هذا النموذج الرقمي الذي يمكننا من خلاله قياس أحجام البراكين، والتنبؤ بانفجارها. والأهم من هذا أنه سوف يسهم في تصميم مؤشر جديد لقوة البراكين»

صفقت أنا أيضًا بحماس، ليس إعجابًا بالمادة العلمية فحسب، وإنما إعجابًا بطريقة عرض الدكتور سلطان، المبهر في كل شيء. حين قابلته أول مرة، كان يجلس في مكتبه الأنيق المجلد بالخشب، وقد انبعثت في أرجاء المكان موسيقى كلاسيكية، وفاحت في أجوائه رائحة القهوة الفرنسية. كان طويلًا، أنيقًا، رياضي الجسد، رغم كونه على مشارف الخمسين، تميل سمرته للحمرة، ويتجدد شعره في غير خشونة، ويلفت الانتباه بأناقته النفيسة، وعينه الخضراوين اللتين تشعان نبوغًا. قدمتنى إليه أبريل، وهي تقول:

- عمر من مصر، يا مسيو مازيس.

قام من مكانه مرحبًا، وهو يقول بلهجة تونسية:

- عمر، كيف حالك؟

صافحته برهبة وأنا أقول بالعربية:

- الحمد لله.

سألني:

- كيف حال مصر، والدكتور صوّان؟

ناولته خطاب توصية كتبه لي الدكتور صوّان، وقلت:

- بخير.

قرأه في عجلة، ثم قال:

- دكتور صوّان رجل لطيف ومجامل.

شعرت أبريل بأننا سنستغرق في حديث بالعربية، فاستأذنت في الانصراف. وبينما كان يصب لي قدحًا من القهوة الفرنسية من إبريق حراري في مكتبه، تجولت ببصري في المكتبة الضخمة التي تمتلئ بالكتب والمراجع. لفت نظري صورتان تتوسطان رفوف المكتبة، الأولى صورة حديثة، يقف فيها مبتسمًا مع امرأة أوروبية، يحتضن كتفها بيده، وبينهما فتاة مراهقة، أدركت أنها لزوجته وابنته، والثانية صورة قديمة بالأبيض والأسود، يظهر فيها أب أسمر ممشوق القوام وبجانبه سيدة بيضاء ترتدي حجابًا، وبينهما طفل يرفع يده نحو المصور، أدركت أنها لأبيه وأمه. اللافت أن كلتا الصورتين كانتا مؤطرتين بإطار من الخشب المزخرف، ويتوسطهما علما تونس وفرنسا، وكأنه لا يزال معتزًا بأصوله التونسية. ناولني كوب القهوة الذي أعده، وقال:

- دعني أصطحبك في جولة بالقسم.

سرت وراءه حاملاً كوب القهوة، وأنا أشعر بالخلج من تواضعه. عبرنا ردهة طويلة مبلطة برخام عتيق، يتزين

سقفها بزخارف مليئة بالتفاصيل، وتتراص على جانبيها تماثيل نصفية لعلماء من الجامعة حصلوا على جوائز مرموقة، وفي نهايتها عدد من المكاتب المغلقة. فتح الأول، فوجدت باحثًا فرنسيًا أشقر الشعر، يجلس مستغرقًا خلف شاشة الحاسوب، أشار إليه الدكتور سلطان وقال:

- هذا هو فيكتور لويي أستاذ مشارك بالقسم، ورئيس الفريق البحثي.

أزاح الشاب نظارته من فوق أنفه، ثم ابتسم ابتسامة باهتة، فهزرت له رأسي مرحبًا به، ثم فتح الدكتور سلطان الباب الثاني، فانفتح على موسيقى صاخبة تملأ الحجرة. أوقفها الشاب الذي كان يجلس بداخلها، حين رأى الدكتور سلطان. ثم قام واقفًا فیدا طوله الفارع وشعره الطويل المعقود خلف رأسه، قدمه دكتور سلطان قائلاً:

- وهذا هو هاجلند، باحث من أيسلندا انضم إلى فريقنا حديثًا، هو جيولوجي، ومتخصص في دراسة البراكين.

صافحني الشاب بقوة آلمت يدي، وهو يقول:

- سعدت بلقائك يا عمر.

وحين فتح الدكتور سلطان باب الحجرة الثالثة، وجدتُها حجرة متسعة مقسمة إلى قسمين يفصل بينهما حاجز من الزجاج، أخبرني بأن الحجرة الخارجية هي

مكتبي، والحجرة الداخلية لباحث آخر اسمه أحمد رحمانى.

وقبل أن أسأله عن صاحب الاسم العربى، ظهر عند باب الحجرة شاب قصير، دقيق الجسد، ملتج بلحية قصيرة مهذبة، رحب به الدكتور وقال:

- هذا هو أحمد رحمانى!

ثم أخبرنى بأن الشاب باحث من جامعة الجزائر وأنه قد أمضى معهم ثلاث سنوات، ويوشك أن ينهى بعثته. ورغم أن الشاب صافحنى بأدب وصوت خفيض، فقد شعرت بنفور من لحيته، وتلك البقعة السمراء التى اعتلت جبهته. ورغمما عني شعرت بالسقم حين

قال الدكتور سلطان:

- أحمد رحمانى يقطن معك فى البناية نفسها بحى لوبانير. وسيكون رفيقك أيضًا فى تلك الحجرة حتى ينهى بعثته!

فى الأسابيع التالية كان الانبهار رفيقى، تعجبت كيف فتح لى هذا المجتمع فى نسيجه فتقًا يلائمنى، وظلّ يحيكّ حولي خيوطًا أدق من الحرير، جعلتني أبدو جزءًا منه، وقد ظننت قبلًا أنى سأعيش كرقعة بالية فى ذلك الثوب المبهر. تذكرت أنه فى بلادنا على المرء أن يشق طريقه فى الحياة كي يصل إلى النجاح، أما هنا فلا شق، ولا مشقة، فقط تمتد إليك الجسور وما عليك إلا أن تعبرها، وكل ما تبذله من جهد، يكون خالصًا فى سبيل أن تنجح وليس فى سبيل أن تحيا. وضع الدكتور سلطان خطة المشروع البحثى، وعهد إلى لوبى، قائد الفريق، بتدريبي على أجهزة الحاسوب والموجات الصوتية الحديثة، التى سنستخدمها فى

الأطروحة، والتى تختلف عن الأجهزة العتيقة التى تعلمت عليها فى مصر. ورغم أن لوبى، كان بارد الطباع، ربما لفارق السن، أو لفارق الخبرة، أو لكونه فرنسيًا، فقد تعلمت منه الكثير من التقنيات الجديدة على تلك الأجهزة، وساعدتني المراجع والدوريات التى وفرها لى على تقليص الفجوة المعرفية بينى وبين باقى الفريق. وكان لأبريال دور كبير فى تذليل أى عقبة تقابلني، أنهت أوراق تسجيلي بوصفي باحثًا، وفتحت لى حسابًا بالبنك كي يحوّل إليه راتبي، ومنحتني حسابًا على موقع الجامعة الإلكتروني أتاح لى الاطلاع على الكثير من الدوريات، والكتب المجانية. كانت تفعل كل ذلك بتلقائية شديدة، وحين أشكرها، ترد بأنها لم تفعل شيئًا سوى عملها، رغم أن الأمر كان يتجاوز

حدود العمل في كثير من الأحيان، بعد أن صارت مرشدي أيضًا في الأمور الحياتية. دلتني على أقرب مغسلة، وأحسن حلاق، وأفضل مطعم، وأرخص الأماكن لشراء الخضروات الطازجة، وكانت الأحاديث القصيرة التي تجمعنا، مليئة بالضحكات، خاصة بعد كل مغامرة تقع لي في مجتمعي الجديد. أخبرتها عن محل الحلاق الذي أرشدتني إليه، وحين دخلت وجدت رجالاً ونساء يقصون شعورهم بذات المكان، فتعجبت وكدت أنصرف، لولا أن تقدمت مني فتاة فاتنة تعمل بالمحل، وعرضت علي أن تقص شعري، فأسلمت لها رأسي بغير تردد، مستسلماً لإحساس النشوة، وهي تتخلل خصلات شعري بأناملها الرقيقة، ومُتذكراً عم عبد النبي، حلاق قريتنا ذا الشارب الكث، الذي كان يشرد أحياناً في أثناء الحلاقة ويهذب شاربه بالمشط الذي يستخدمه في قص شعري، أو يحك به ذقنه النابتة كثمرة صبار.

في الشهر الأول كنت حريصاً على الاتصال بأمي مرة كل أسبوع، في مكالمة لا تزيد مدتها عن بضع دقائق، ولكنها كانت كفيلة بأن تزيل من قلبها الخوف، ومن نفسي أثر الغربة. كانت أُمي تنفق ثلثي المكالمة كالعادة في الحديث عن الطعام والشراب. فالتأمين الغذائي كان ولا يزال هو هاجسها الأول الذي تأتى بعده باقي الأمور، وكأن الحبل السري الذي كان يربطني بها جيناً لم ينقطع حتى بعد أن كبرت

وتباعدت بيننا المسافات. أخبرتني في آخر مرة بأن أُملي وزوجها مندور على وفاق، وأن ذلك الوفاق قد أسفر عن حمل جديد رغم أن لديهما طفلة لا تزال معلقة بثديها! ورغم شفقتي عليها من تعاقب الحمل والولادة، فقد تمنيت لها أن تنجب هذه المرة ولدًا، حتى تنعم بهدنة تستعيد بها عافيتها. وحين تسلمت راتبي الأول، الذي يفوق راتبي في مصر خمس مرات، سددت إيجار السكن والتليفون، وأرسلت إلى أُمي حوالة بريدية وأخبرتها بأن تقسم قيمتها مع أختي أُملي. واشترت لنفسني ملابس جديدة، ثم عزميت على أن أحضر هدية لأُبريال، أتجاوز بها عبارات الشكر التي كنت أكررها مع كل موقف تساعدني فيه. وتحيرت ماذا أحضر لها، وأنا البليد في أمور النساء! وبالطبع لم أكن لأسترشد برأيها وهي المحتفى بها. سألت هاجلند:

- ماذا أهدي لسيدة؟

- على حسب، هل هي صديقة، أم حبيبة؟

قلت مسرعًا:

- كلا، صديقة!

- هل هي صديقة وتخطط لترقيتها لدرجة الحبيبة؟

قلت مبتسمًا:

- كلا صديقة وستبقى صديقة، والهدية لمجرد الشكر.

هز كتفه وقال:

- حسنًا هذا يتوقف على درجة الشكر، يمكنك شراء باقة ورد، أو زجاجة عطر، أو ساعة، أو هدية من الألماس.

أدركت أنه من العبث سؤال هاجلند الذي يجنح دومًا لوضع بدائل واحتمالات لكل شيء، وقررت الاعتماد على نفسي، خرجت في يوم من أيام الآحاد. وتجولت في مركز المدينة. وبينما كنت أقترّب من أحد محال الهدايا، أسرّني أغنية تسللت نغماتها من داخل المحل، فوقفت مكبلًا أمام بابه كي أسمعها. كان الصوت لمطربة من حقبة الستينيات اسمها إيديث بياف وكانت الأغنية بعنوان «La vie en rose»، أي «الحياة الوردية» وكانت إيديث تصدح قائلة: «حين يأخذني بين ذراعيه... ويتحدث معي بهمس... أرى الحياة بلونها الوردي». دخلت إلى المتجر فوجدت أن مصدر الأغنية علبة مجسمة من علب الموسيقى الفخمة، على شكل فتى وفتاة يدوران وهما يتراقصان. أسرّني الكلمات والموسيقى، وأناقة العلبة، فلم أغادر المتجر، إلا وهي بين يدي، وانتظرت يوم الاثنين بشوق، حتى أهديتها لأبريال.

وفي صبيحة يوم الاثنين، استيقظت مبكرًا، وقررت أن أمر عليها بالمكتب قبل حضور دكتور سلطان مازيس. دخلت إلى مكتبها، فلم أجدها، ولكنني شممت رائحة القهوة تنبعث من مكتب الدكتور سلطان الذي توارب بابه قليلا. لا أدري لماذا دفعني الفضول كي أمد بصري من فرجة الباب التي تباعدت بضع سنتيمترات؟ وحينما فعلت، هالني ما رأيته. رأيت الدكتور سلطان يحيط خصر أبريال بذراعيه، وتجمعهما قبلة طويلة ذاب فيها كلاهما في الآخر.

(14)

المعلم

ضجت القاعة في مجلس الشيوخ باللغط والهمهمات، مما دفع السيد بريكليس رئيس المجلس إلى الطرق ثلاث مرات بمطرقة الخشبية، حتى يعود الهدوء مرة أخرى. كان الجدل محتدمًا حول إمكانية الوصول إلى أرض القصدير. جاءت كلمات أرخي داموس كبير التجار حادة قاطعة، وهو يصر على أن الإبحار عبر بحر الظلمات، محض عبث، ومخاطرة بسمعة مارسيليا وأموالها، ثم قال متلاعبًا بمخاوف أعضاء مجلس الشيوخ:

- لو فشلت الحملة سيضاعف القرطاجيون سعر القصدير، ولن ينالنا سوى الخزي أمام الملك ألكسندر وشعب مارسيليا.

ازدرد رئيس المجلس لعبه، وقال:

- الأمر كان تكليفا من الحاكم يا أرخي داموس!

- وهل فكرتم فيمن يقوم بتلك الرحلة قبل قبول التكليف؟ أنا كبير التجار في مارسيليا وأقولها لكم، لن يخاطر أحد بالسفر في بحر الظلمات!

قال بريكليس:

- وماذا ترى يا سيد أرخي داموس؟

- دعني أفاوض القرطاجيين، وسأحصل منهم على أفضل سعر.

- وماذا نقول لرسول ألكسندر؟! نقول له تراجعنا عن الرحلة بعد أن أعلننا عنها!

- الملك ورسوله لا يهمهما سوى القصدير، وسواء قمنا بالرحلة أم لم نقم بها سيسعدهما الحصول عليه.

وضع رئيس المجلس يده على رأسه في يأس، تمنى لو يجد مخرجًا من هذا المأزق الذي وضعهم فيه الحاكم أمام شعب مارسيليا، أحزنه أنه مارس ضغوطًا على أعضاء المجلس ليوافقوا، وبالكاد نجح في الحصول على موافقة ثلثي الأعضاء، الآن سيتحمل المسؤولية أمام الحاكم لو تراجع، وسيتحمل

المسؤولية أمام المجلس وأمام الشعب لو فشلت الحملة. جاءه طوق النجاة حين قال ليوفانوس رئيس أكاديمية مارسيليا:

- أنا أخالف السيد أرخي داموس الرأي يا سيد بريكليس، فالهدف ليس القصدير فحسب، وإنما المجد الذي سيعود على مارسيليا لو قام رجل من أبنائها بتلك المهمة!

قال أرخي داموس ساخرًا:

- ومَن من البحارة يستطيع القيام بها؟

- لن يقود الرحلة بحار، وإنما سيقودها عالم! عالم له دراية بمسالك الأرض ودروبها، ومعرفة بالنجوم والكواكب.

قال بريكليس:

- عالم؟! ومن هذا الرجل يا ليوفانوس؟

تردد قليلًا ثم قال:

- الوحيد الذي يمتلك القدرة على ذلك هو

بيثياس المارسيلى.

قاطعه أرخي داموس بحدة، وقال:

- بيثياس المارسيلى؟! ذلك المهرطق، الذي يجمع الرعاع من حوله، ويهاجم أرباب الأولمب؟!

قال ليوفانوس:

- سيدي الرئيس، اسمح لي أن أختلف مع السيد أرخي داموس فلا شأن لنا بما يعتقد الرجل في أرباب الأولمب، ولكني أتحدث عن رجل ذي علم، ويكفي أنه حدد موقع مارسيليا بمزولة شمسية. وبصفتي رئيس أكاديمية مارسيليا، أقول إنه أعلم أهل مارسيليا بحسابات الظل والفلك!

هم أرخي داموس أن يعترض، ولكن بريكليس قاطعه قائلاً:

- ائتوني به!

ثم نظر إلى أرخي داموس، وقال:

- ألم تقل إنه مهرطق؟ لو نجح سينسب الفضل لنا،

ولو فشل سيتحمل المسؤولية وحده!

عاد من تلة الإخوة وهو يشعر بالقهر، سأل أخاه لينوس بعد أن شعر بالندم على أنه لم يستمع إلى كلامه :

- لماذا ينتفخ هؤلاء الناس بالصلف؟

- لأنهم يعتقدون أنهم وحدهم حملة العلم.

- أي علم هذا؟

- تعاليم المعلم الأكبر بيثاغورس.

صمت قليلاً ثم قال:

- أريد أن أعرف هذه التعاليم يا لينوس.

- لماذا؟

- أشعر بأنني خسرت معركة كان سلاحى الوحيد فيها هو المعرفة.

شعر لينوس بسعادة، لهذا التغير الذي طرأ على أخيه، ولكنه صمت قليلاً ثم قال:

- ما دمت ستخوض معركة فلا تقاتل بالسلاح نفسه.

- ماذا تقصد؟

- انضم إلى مجلس المعلم بيثياس. وستجد عنده ما يعينك للرد عليهم.

- خذني إلى مجلسه إذن؟

- موافق، ولكن بشرط.

- ما هو؟

- أن تستحم قبل المجلس، وألا تأتي مخموراً.

استيقظ مبكراً، فاستحم في مياه الجدول، ثم انطلق وهو يرتعش من لسعات الصباح الباردة، سار مع لينوس حتى بلغا تبة الفنار. لهما وهما يصعدان التبة، فسأله:

- لماذا اختار المعلم بيثياس بيته في هذا المكان؟

- يحب المعلم العزلة، وفي ليالي الصيف الصافية، يصعد إلى الفنار، ويراقب حركات الكواكب، ومنازل النجوم.

وصلا بعد جهد إلى منزل بُني بالحجر، وتحيط به أرض واسعة جرداء إلا من بعض النباتات العشبية وزهور الصبار، وتنتشر في أركانها آلات رآها لأول مرة في حياته. كانت إحداها آلة مكونة من أنصاف دوائر معدنية، تدور حول محور من البرونز، ويصدر عنها رنين كلما هبت عليها نسيمات الهواء. أخبره لينوس بأنها آلة لقياس سرعة الرياح، ثم رأى مزولة شمسية كبيرة مصنوعة من الحجر، وقد نُقشت عليها أقواس وخطوط توضح منازل الشمس، أشار إليها لينوس وهو يقول:

- بهذه المزولة حدد سيدي بيثياس موقع مارسيليا للبحارة!

عبرا دهليزًا صغيرًا على جانبيه خزائن، تمتلئ بعشرات المخطوطات ولفائف البردي التي رتبت بعناية، وتفوح منها رائحة المداد. ثم وصلا إلى حجرة واسعة مسقوفة على أعمدة، بغير جدران، يغمرها النور من كل جانب، وتتناغم فيها أصوات العصافير، مع أصوات الموج، وهمهمات الفضاء، تناغمًا يلقي في النفس بالسكينة. خلع لينوس نعليه، ففعل قدموس مثله، ثم دخلا إلى الحجرة، جلسا في صمت في آخر الصفوف، حتى ظهر المعلم بيثياس. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها قدموس المعلم عن قرب، رغم أنه سمع عنه من قبل عشرات الحكايات. بدا المعلم مختلفًا عن الصورة التي رسمها له عقله، لم يكن كهلاً ضعيفًا، فيه قبح العلماء، بل كان رجلًا أغر، يتجاوز الأربعين بقليل، قصير الشعر، واسع العينين، خفيف اللحية والشارب، يرتدي رداءً أبيض طويلًا، يكشف عن صدر عريض متناسق وبطن مسطح. جلس المعلم على وسادة لدنة عريضة أعَدَّتْ له في رأس المجلس، فصنع النور من ورائه هالة، لم تفارقه طيلة حديثه.

شعر قدموس بالرهبة، حينما افتتح المعلم حديثه بكلام تلاه بصوت رخيم والطلبة يتمتمون خلفه بذات الكلمات، وكأنها طقس أو صلاة يحفظونها.

«المجدُّ للصانع الأوحِدِ موناَس» المفردِ في ذاته

الأولِ بلا بداية

والآخرِ بلا نهاية

الذي خلقَ العقلَ وجعلَه جسرًا بين عالمين

وسحّر الطبيعة لتكشفَ عن وجوده المقدّس

ثمّ وهبَ الحكمةَ لكشف الطبيعة

والمنطقَ للوصول إلى الحكمة

والأسبابَ لفهم المنطق

فالمجدُّ لك يا مَنْ مَنَحْتنا العقلَ ووهبْتنا الأسبابَ لنصلَ إليك»

مرت فترة من الصمت، كان الجميع فيها في حالة من الخشوع، بمن فيهم قدموس نفسه، ثم شرع المعلم يتحدث عن الحكمة في معناها وقواعدها، وسبلها، حديثاً استحوذ على عقله، إلى أن قال:

- «إن أول قواعد الحكمة هي المعرفة، تلك القاعدة التي وصفها المعلم بيثاغورس ثم حرفها الإخوة وأخرجوها من مرادها!»

استيقظت حواسه وانتبه عند ذكر كلمة الإخوة، بينما تابع المعلم:

- «لقد ادّعى الإخوة أن المعلم قد ألزمهم بحفظ تعاليمه بينهم وأن يجعلوها في طي الكتمان حتى لا تقع في أيدي العامة، فعكفوا على ترميز الحروف بالأرقام، وتشويش المعاني بالأحاجي، حتى لا يفهمها غيرهم من طلبة العلم، وإذا حدث وقام أحد بتبسيط الرموز أو تحدث بها إلى العامة، اتهموه بالافتراء وخرق الناموس الذي وضعه المعلم، ولكن من فمي خذوا الحقيقة»

كانت هذه إشارة لتلاميذه كي يكتبوا، ففتح كل منهم قرطاسه، وغمس قلمه في الدواة، وتأهبوا لخط ما يمليه عليهم المعلم، الذي قال:

- «إن المعرفة هي ذلك النور الأزلي الذي سبقنا إلى العالم، ولا يعتقد أحدكم أنه يبتدع العلم لحاله، فإننا نفسر ما هو موجود في الناموس منذ الأزل. فإن اقتبس أحدكم من ذلك النور شيئاً فلا يحبسه عنده، فإن ما لا تهديه إلى غيرك سيفنى بين يديك»

انتهى كلام المعلم، فقام الطلبة من أماكنهم، وانصرفوا كل إلى حال سبيله، وبينما كانا يهبطان التلة، سأله لينوس:

- كيف تشعر؟

- أشعر وكأن أحدهم قد ألقى على رأسي بحجر. هل لي أن أقرأ ما تكتبونه عن المعلم بيثاس؟

قال لينوس متردداً:

- دعني أستاذنه أولاً.

قال مبتسمًا:

- لو أنك فهمت ما قاله المعلم، لمررت إلى القراطيس بغير تردد.

قال لينوس ضاحكًا:

- هزمتني بالحجة! غدا أعطيك إياها.

في اليوم التالي جاءه لينوس بالكتاب، صاحبه السجل أيامًا لم يقض مثلها في حياته. كان يذهب كل ظهيرة، إلى غيضة النحام، التي قلت أعداد الطير بها، بعد أن رحل عزابها وبقي الأزواج منها مع أفراخها الصغيرة في انتظار الشتاء، فكان يجلس فوق الربوة، ويستسلم لتلك السكينة التي تنتابه كلما قرأ عبارة من تلك العبارات التي نقلها لينوس عن المعلم. وتذكر حينما قال له لينوس إن المعلم بيثياس قد أوتي من كل شيء خبرًا، فحين يتحدث عن الحكمة يفوق أرسطو، وحين يتحدث عن الفلك يفوق طاليس، وحين يتكلم عن الجغرافيا والبلدان، يفوق هيرودوتس الفارسي. ولكنه حين يتحدث عن الصانع الأول، فإنه يأتي بكلام ليس من كلام البشر. وأحس بذلك حين وصل إلى تلك الفقرة من وصاياه: «من فمي خذوا الحقيقة، إن الأسباب هي أحبال السماء التي تمسك بالمصائر والأقدار وتتدلى بها إلى الأرض، والمأفون من يظن أنها قيد، فيكبل بها رسغيه وقدميه، ويحيط بها عنقه، ثم يقول هذا قدر، فمن أوتي منكم سببًا فليتبعه إلى منتهاه، فما جعلت الأسباب إلا لنتقل بها من حال إلى حال ونبدل بها المصائر والأقدار».

قرأ العبارة فحبس دموعه وقد مست وتر الشوق في قلبه. شعر بأن الأقدار قد ألقت له بحبل الحب لغاية لا يدركها. هل كان يتخيل أن تتبدل حياته بسبب هذا الحب، فينسى بسببه العبث والغواني، ويصير من رواد أروقة العلم والفلسفة، ويقترب من هذا المعلم الذي يدهم عقله بالحيرة؟

وفي تلك اللحظة عزم على أن يدافع عن حبه ويصل بحبل الحب لمنتهاه. هو لا يمتلك العلم ولا يمتلك المال ولا يمتلك القوة ولكنه يمتلك الكلمة، وسيجعل من الكلمة سلاحًا يقاتل به من حرموه من محبوبته.

(15)

الحياة بلون وردي

La vie en rose

غادرت المكتب وأنا أشعر بالسقم، وإحساس بالمرارة يملأ حلقي. حاولت أن أفتش عن مبرر لهذا الشعور فلم أجد. فأنا بالطبع لا أحب أبريل، ولا يعنيني أن يخون سلطان زوجته مع امرأة أخرى، فما بالي أشعر بالحقد عليهما؟ هل لأنهما أفسدا علي متعة أن أرى في عينيها الفرحة بالهدية، أم لأنني اكتشفت أن هناك الكثير من المشاعر التي تنقصني حين رأيتهما تذوب بين ذراعيه وتعلق شفتيه؟ تجنبت المرور على مكتبها حتى لا أراها، وعدت إلى الانغماس في دراستي حتى أنهي وضع نموذج معياري لجهاز الموجات الصوتية الذي سأقوم باستخدامه في أطروحتي. وكنت أحياناً أستشير رفيقي في المكتب، أحمد رحماني بعد أن علمت أن له ما يزيد عن عشرة أبحاث في مجلات علمية مرموقة، في الجيولوجيا.

والحقيقة أنني تحيرت في أمر هذا الشاب، ففي بداية الأمر، توقعت منه رفقة مملة، تتمحور حول الحديث في الدين، وهموم الشرق من فقر، وجهل، واستبداد، ولكنه على غير ما توقعت، كان شديد الهدوء، قليل الكلام، لدرجة العزلة، ويقضي أغلب أوقاته في المرصد أو المكتبة. كانت أحاديثنا عابرة، إلا إذا سألته في مسألة علمية، فحينها يستفيض في الشرح، حتى لو استغرق الأمر منه ساعة كاملة. وكانت المرة الأولى التي تحدثنا فيها في أمر يخص الدين، في صبيحة يوم من أيام الآحاد، في الطابق الأوسط من السكن. وكان هذا الطابق استراحة للطلبة، به عدد من الأرائك المريحة وشاشة تلفاز كبيرة، وماكينات لصنع القهوة وطاولة للعب تنس الطاولة، وتقدم فيه السيدة كلير مديرة المسكن بعض الوجبات الخفيفة. في ذلك الصباح، حيت السيدة كلير وطلبت منها كوب قهوة باللبن، وقطعة كرواسون بالزبد، فابتسمت لي بغم أحاطت به التجاعيد كنقوش كعكة عيد وقالت:

- هلا انتظرت قليلاً، وأعطيك فطيرة تفاح طازجة بدلاً

من الكرواسون؟

أغرنتني الرائحة التي تصاعدت من الفرن، فقلت:

- لا بأس.

حينها رأيته يجلس على الطاولة مستغرقًا في الكتابة، وإلى جواره عدد من الكتب من بينها مصحف، ومجلدات تفسير، ونسخة من الكتاب المقدس، وبعض الكتب الأخرى ويدير التلفاز بغير صوت على قناة الأخبار التي كانت تعرض مشاهد لزلزال وقع منذ أسابيع في أزميد بتركيا، وتسبب في سقوط آلاف الضحايا. تناولت أحد الكتب الموجودة على الطاولة فوجدته بعنوان الكوارث الطبيعية، فقلت مازحًا:

- كتب عن الكوارث، وأخبار عن الزلزال، أليست هذه جرعة كبيرة من التشاؤم في بداية اليوم.

تلقي كلامي بجدية لم أعنها، فأغلق جهاز التلفاز، وقال:

- أنت محق.

ثم أردف بلهجته الجزائرية:

- راح أغلقه.

أخجلني أدبه، فجلست، وقلت محاولاً فتح حوار معه:

- أصبحت تقضي وقتًا أطول في المكتبة، هل تجري بحثًا جديدًا؟

- أراجع مقالة عن مخاطر الوجود سأنشرها قريبًا في دورية أمريكية.

قلت بحماس:

- ماذا تقصد بمخاطر الوجود؟

- الأشياء التي قد تتسبب في انهيار حضارة الإنسان، والعودة إلى مرحلة بدائية. مثل النيازك، الزلازل، الفيضانات، الأوبئة الكبرى. وفي هذا المقال أتناول البراكين تحديدًا بحكم دراستي.

لمعت عيني بانبهار:

- وما الجديد الذي ستقدمه في ذلك البحث؟

- أحاول الربط بين هذه المخاطر، وبين ما ورد في الأديان.

قلت وقد انطفأ حماسي:

- وهل هناك رابط؟

- نعم، الكثير من النصوص الدينية، تتحدث عن تلك الظواهر.
- لا أدري لماذا أحسست بالخيبة! أدركت أنه يعاني من المتلازمة نفسها التي يعانيها العلميون المتدينون في بلادنا، الذين يلتفون حول معاني الدين، ثم يلبسونها ثوب العلم لإثبات أنها صالحة لكل زمان ومكان. العجيب أنني لم أجد بوذيًا ولا هندوسيًا ولا حتى يهوديًا أو مسيحيًا، يحاول أن يلبس دينه رداء العلم، مثلما يفعل المسلمون، سألته في هدوء:
- وما فائدة ذلك؟
- أن يعرف الناس أن هناك خالق.
- ولكن العلم يثبت في كل يوم خطأ ما جاءت به الأديان.
- كيف؟
- عرفنا أن للخلق قصة أخرى غير التي جاءت بها الأديان وأن للكون قوانينه التي تحكمه من دون الحاجة إلى
- ترددت قليلًا ثم قلت:
- من دون الحاجة إلى خالق.
- العلم قد يجيبنا عن «كيف»، ولكن هل يجيب عن «لماذا»؟
- أثار انتباهي، فقلت:
- ماذا تقصد؟
- قد نعرف بالعلم كيف نشأ الكون، ولكن هل سيخبرنا لماذا نشأ؟
- ولماذا نشأ؟
- لأن هناك خالق أراد ذلك.
- أدركت أنه من العبث الاستمرار في جدال عقيم، لن يغير من قناعاتي شيئًا، فهو يكرر ما يردده رجال الدين منذ مئات السنين. قلت:
- وأين ستنشر هذا المقال؟
- في دورية الدراسات العلمية للأديان.
- ظننتها دورية منخفضة التأثير، ولكنني فوجئت به يقول:

- وهي تابعة لجمعية الدراسات العلمية للأديان في جامعة هارفارد.
تعجبت أن يكون في جامعة هارفارد، «جمعية للدراسات العلمية للأديان»
وشعرت بقدر كبير من التناقض في اسمها الذي يجمع بين العلم والدين!
قطعت كلير حديثنا وهي تضع فطيرة التفاح والقهوة. فقلت عبارتي الأثيرة
لأنهي هذا النقاش:
- العلم هو نبي هذا الزمان، ولا حاجة للأديان في وجوده.
ابتسم وقال:
- ولكنه نبي كاذب لو دعاك إلى الجحود بدلاً من الإيمان!

استيقظت يوم الاثنين مبكرًا، لحضور اجتماع الدكتور سلطان مع الفريق في مكتبه، دخلت إلى الحجرة، فصافحت لوبي وهاجلند، وانتظرنا قدوم الدكتور سلطان. اختلست النظر إلى أبريل، التي وضعت بعض الملفات على الطاولة أمام مقعد الدكتور سلطان الغائب، يعين زائغة، وذهن شارد لدرجة أنها لم تلتفت لوجودي، وانصرفت من دون أن تلقي عليّ تحية الصباح. علمت من لوبي أن الدكتور سلطان مازيس سيسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في رحلة تستغرق عشرة أيام، لحضور حفل تكريم من الجمعية الأمريكية لعلوم الفيزياء، فربطت بين حالة الوجوم التي تعلو وجهها وسفره. دخل الدكتور سلطان باسمًا، نشطًا. ألقى علينا تحية الصباح، ثم جلس وهو ينظر في ساعته وكأنه يوحى إلينا بأنه في عجلة من أمره. استمر الاجتماع حوالي نصف ساعة فقط، عرض خلالها لوبي فكرة الدراسة، ومنهجية البحث المقترحة، وعرضت أنا النموذج المعياري لجهاز الموجات الصوتية الذي سنستخدمه في حساب عمق الخزانات الجوفية. تحمس الدكتور سلطان للخطة التي وضعناها ثم أشار إلى أننا سنبدأ الدراسة الميدانية بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية. وقبل أن تغادر فاجأني قائلاً:

- ستعرض نتائج هذا البحث في مؤتمر الخريف القادم يا عمر.

قلت مندهشًا:

- أنا؟

- نعم فأنت الباحث الأساسي في هذا البحث. أما لويي وهاجلند فسيقدمان أبحاثًا أخرى.

ثم أردف:

- المهم أن تنتهوا من رصد النتائج الميدانية مبكرًا.

شكرته ممتنًا، رغم شعوري بالقلق، فقد كنت أظن أن أمامي سنوات طويلة من العمل حتى أصبح قادرًا على تقديم بحث في وجود علماء من أوروبا! ولكن يبدو أن سلم الطموح هنا يتحرك تلقائيًا إلى أعلى بأسرع مما يتوقع المرء. ودعنا ثم انصرف، وحين خرجت، ألقيت نظرة على مكتب أبريل، فوجدتها تجلس وهي تضم كفيها أمام وجهها، خيل إليّ أنها تبكي، فشعرت بشفقة عليها، رغم نفوري منها منذ رأيتهما بين أحضان سلطان. لا أدري لماذا قادتنني عاطفتي إلى أن أذهب إليها وأقول:

- أبريل، هل أنت بخير؟

رفعت عينيها ثم قالت بابتسامة باهتة:

- نعم بخير. شكرًا.

ثم انتهت إلى أنها لم ترني طيلة الأيام الماضية فقالت:

- أين كنت طيلة الأيام الماضية؟

قلت متلعثمًا:

- كنت منشغلًا في العمل.

قالت بعتاب أشعرنني بالخجل:

- هذا لا يمنع من أن تمر على مكثبي لتقول لصديقتك أبريل بونجور أو لتناول بعض القهوة.

ازداد وجهي حمرة، وقلت:

- أنت محقة.

طال الصمت المربك بيننا للحظات إلى أن قلت:

- انتظري لحظة.

ذهبت إلى مكتبي مسرعًا، ثم أحضرت الهدية التي اشتريتها لها ولم أقدمها.
قدمت لها الهدية وقلبي يكاد ينفجر من اللهفة وأنا أقول:
- أحضرت لك هذه.

تناولت الصندوق مندهشة، ثم أخرجت منه علبة الموسيقى، وحين فتحتها، دار
الراقصان، وانطلق صوت إيديث بياف وهي تقول «حين يأخذني بين ذراعيه ...
ويتحدث معي بهمس ... أرى الحياة بلونها الوردي. تلون وجهها بلون وردي
فعلاً، نظرت نحوي ممتنة، وقد لمعت عيناها بالدموع، ثم احتضنتني بقوة
وقالت:

- شكرًا يا عمر، أنت شديد الرقة.

هممت أن أنصرف، ولكنها فاجأتني بقولها:

- ماذا ستفعل في عطلة نهاية هذا الأسبوع؟

- لا شيء، الذهاب إلى المغسلة، وكى بعض الملابس، وشراء بعض الحاجيات
من البقالة. ومزيد من القراءة للاستعداد للتجربة الميدانية.

ابتسمت قائلة:

- كل هذا!!

ثم أردفت:

- كنت أود أن أصطحبك في جولة في مارسيليا، ولكن يبدو أنك منشغل.

قلت بجدية:

- لدينا في مصر كلمة اسمها طظ.

قطبت حاجبيها وقالت:

- طظ؟

أومأت قائلاً بالجدية نفسها:

- نعم، وهي تعني لا أبالي.

قالت متعجبة وقد ساورها الشك في جديتي:

- هل تعني أنك لا تبالي بعرضي للجولة؟

- بل طظ في مشاغلي، طالما سأرافك في رحلة.

ابتسمت وقالت:

- أنت مخادع. هل يناسبك السبت صباحًا؟

- بكل تأكيد!

هممت بالانصراف فأمسكت يدي ثم ضمتني إلى صدرها مرة أخرى قائلة في رقة:

- حقيقي أنت شديد الرقة يا عمر.

وحين غادرت حضنها، خفق قلبي خفقةً شعرت بها كوخزة مخياط يحبك عقدته الأولى في نسيج مشاعري نحوها.

(16)

أنوسطس

اكتسى القمر بغلائل السحب، فشحب نوره ودنا قرصه الأصفر الباهت من الأرض وكأنما أثقلته أحزان تلك الليلة في مارسيليا. كان أنوسطس عائداً إلى المدرسة وقلبه مثقل بالهموم. دخل إلى حجرة الدرس، فخلع حذاءه وعباءته، ثم توجه إلى البئر الموجود في زاوية الحجرة. غسل كفيه، وقدميه بالماء، ثم جلس يمارس تأمله المسائي عملاً بوصية المعلم الأكبر بيتاغورس «لا تدع عينيك تغفو مستسلمة للنوم، قبل التأمل ثلاث مرات في أفعالك التي فعلتها طيلة النهار، وانظر أيها أجدتها، وأيها أخفقت فيها وأيها أهملتها». زفر بائساً قبل أن يبدأ تأمله، فأى نهار هذا الذي مر عليه، وكل أعماله لا يعلم هل أجاد فيها أم أخطأ؟

مرت عليه أحداث اليوم، كهجمات الموج المتتابع، تسلمه الواحدة للأخرى، ولكن أعتاها كانت المحاكمة التي انتهت منذ قليل. ففي الصباح جمع الدعاة، ليختار منهم اثني عشر محلفاً لمحاكمة أنجوس ومعهم كبير الدعاة أركانسو. أعد العدة جيداً، فأحكم اختيار المحلفين، وأوحى إليهم بضرورة إصدار حكم بطرد أنجوس طرداً أبدياً من الجماعة. ولكن حين بدأت المحاكمة، تخاذل المحلفون، وبدا أن أنجوس قد باغته بخطة مضادة، حتى أن أركانسو كبير الدعاة دافع عنه واتهم أنوسطس ضمناً بالتحامل على أنجوس أمام باقي الدعاة. النظرات الصامتة التي تبادلها مع أنجوس بعد انتهاء المحاكمة كانت معبرة للغاية، وذكرته بالحديث الذي دار بينهما قبل المحاكمة مباشرة:

- كيف يهون عليك طردي؟
- لأنك خالفت عهدي.
- أنا رجلك الأول وتلميذك النجيب.
- أصبحت رقمًا خاطئًا في معادلة صحيحة والأرقام الخاطئة يجب حذفها.
- ستعلم أن المعادلة لن تكتمل من دوني!
- ماذا تقصد؟
- قريبًا ستعرف.

خرج من المحاكمة وهو لا يتخيل أن هذا البربري الذي أنقذه من الموت وضمه إلى جماعته مشردًا طريدًا يهدده ويتحداه أمام مجلس دعاة!

تذكر اليوم الذي كان عائدًا فيه من الأجورا إلى حي الإخوة، فرأى رجلاً من البربر مصفدًا بالسلاسل يضربه الحراس بالسياط، ويتعثر في أغلاله وهم يدفعونه أمامهم. كانت التهمة التي أعلنها المنادي هي تعدي ذلك البربري على صاحب عمله بالسباب، وكانت العقوبة هي قطع اللسان. كان يكره تلك العقوبات الجسدية التي تهين الإنسان، فأى شيء أكثر قبحًا من إيذاء إنسان، بقطع لسانه أو كيه بالنار إذا اقترف خطأ. لو قدر له أن يؤسس جمهورية، لأسقط كل الأحكام المؤذية جسديًا، ولمنع القتل والجلد، والحرق، وبتير الأعضاء، ولاكتفى بأحكام التطهير النفسي. فأصحاب النفوس المريضة لا يحتاجون إلى أجساد مشوهة كي يرتدعوا، وإنما يحتاجون فقط إلى تطهير.

وقعت نظرة الشاب المستجدية أمام قدميه، وكأنها تتمسح به، شعر نحوه بتواصل غريب، على نحو ما رواه المعلم فيثاغورس حين أوقف رجلاً كان يضرب كلبًا يعوي، لأنه سمع في صوت الكلب صوت أحد أصدقائه، وحين سقطت عيناه على صاحب العمل الذي صدر الحكم لصالحه، شعر بالشفقة أكثر على البربري المسكين. فقد كان صاحب العمل هو دان القصير المشهور باستغلاله لحاجة الغرباء والفقراء. فكان يقرضهم المال، ثم يسخرهم للعمل عنده مقابل سداد فوائد ديون لا تنتهي، وإذا حاول أحدهم التملص منه، عمد إلى محاكمته وإيذائه. اعترض الموكب، ثم أوقف دان الذي كان يتدحرج خلفهم في شماتة، مرتديًا طاقيته السوداء الصغيرة التي تغطي صلغته، وتلمع عيناه بالفرحة، وكأنما يزف الرجل إلى مصيره. قال له:

- أما تكتفي بطرده بدلًا من قطع لسانه؟

- ومن يعوضني عن الإهانة والمال الذي خسرت به بسببه؟

- أعوضك أنا عن المال، وأظن أن هذا سينسيك الإهانة، فما رأيك؟

حك دان أنفه ثم قال بعد تفكير:

- كم تدفع؟

- أسدد عنه ديونه.

- والفوائد؟

- أخذت مكانها عملاً.

حسبها دان في رأسه سريعًا ثم قال:
- موافق.

دفع له المال، وحين فك الحارس القيد عن الشاب البربري، سار وراءه كقط ممتن، وهو يقول غير مصدق:

- أنا مدين لك بهذا الكرم أيها السيد.
قال من دون أن يلتفت نحوه:

- ما اسمك؟

- أنجوس.

- من أين أتيت؟

- من صحراء أفريقية.

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- أردت البحث عن عمل في مارسيليا، فأوقعني الحظ في دان اللعين.

- وما عملك؟

أطرق مترددًا، وكأنه يخشى الإجابة، ثم قال:

- سأعترف لك يا سيدي، فلا يجوز لي أن أكذب أمامك. كان خالي قرصانًا، يسطو على السفن المبحرة عند خليج ليجوريا وكنت أشاركه القرصنة، وذات يوم كنا نسطو على سفينة قرطاجية ولم نعرف أنها مسلحة. باغتتنا السفينة بالهجوم، وطاردتنا حتى سواحل مارسيليا وقتلت عددًا كبيرًا من رجالنا من بينهم خالي، هربت أنا والناجون إلى مارسيليا، وبحثت عن عمل شريف، حتى دلني أحدهم على دان اللعين، الذي منحني صكًا بالحماية مقابل العمل عنده ثلاث سنوات بلا مقابل سوى القليل من الطعام والشراب، وكلما احتجت مالا أقرضني القليل بفوائد باهظة، حتى عجزت عن السداد. احتملت بغضه وقهره لشهور ولولا حراسه لقتلته.

سأله:

- وأين زملاؤك؟

- تفرقوا في مارسيليا، بعضهم يعمل في الميناء وبعضهم يتسول، وبعضهم يعيش على السرقة في حي البربر.

لو كان للكلمات الفتى وقع في أذنه، فهو وقع الطرب. كانت كل كلمة يقولها تتحول في رأسه إلى خطة عمل، ووسيلة تقربه من الهدف، والحلم المنشود الذي عاش من أجله، حلم تأسيس «جمهورية إخوة بيثاغورس» في أرض الآباء في ساموس. فحين تشرذمت الجماعة في أصقاع الأرض بعد أن مات معلمهم، وطردهم حلفاؤهم من كولونيا، لم يجمعهم مكان واحد سوى حي الإخوة في مارسيليا الذي أسسه والده، والذي نجح بالمال والهدايا في انتزاع قرار من مجلس الشيوخ يتيح لهم حرية العقيدة في مارسيليا، وأن يحتكموا إلى شريعتهم إذا وقع خلاف بينهم، ورغم ذلك لم يشعر أبوه أبدًا بأن مارسيليا وطنه، فقد كان قلبه دومًا معلق بأرض الآباء والأجداد في ساموس، وكورتونا وكولونيا ويحلم باليوم الذي تنضم فيه هذه المدن تحت حكمه في جمهورية واحدة، جمهورية إخوة بيثاغورس. تذكر حين جاءه ذلك الرجل المسن من ساموس بعد موت أبيه بعام، وقال له إنه من سيحقق نبوءة بيثاغورس التي لم يحققها أبوه! سأله متعجبًا:

- «أي نبوءة؟!»

فأخبره بالنبوءة التي اقشعر لها بدنه: «وحيث يدور الزمان دورة الكمال ويكتمل مربع الثالث عشر سيخرج من الغرب رجل اسمه من اسمي فيسير إلى ما وراء الشمس، ويكون مرآتي ومكمل سري». ثم ودعه قائلًا:

- لقد دار الزمان وآن الأوان، واكتمل مربع الثالث عشر والمؤمنون من ساموس بانتظارك!

ظلت الفكرة تلح عليه لسنوات، زار خلالها ساموس سرًا، ونشر هناك بعض الدعاة ليحدثوا أهلها عن عظمة بيثاغورس الذي خرج من أرضهم وولد اسم مدينتهم، كما نجح في شراء أصوات بعض النخبة الذين ألهبوا خيال العامة بالجمهورية الفاضلة التي ستملأ العالم بالحكمة والفضيلة والعدل، لو عاد إخوة بيثاغورس إلى أرضهم. وحين جاءت الرسائل من أنصاره تخبره بأن كل شيء قد صار مهيبًا للهجرة تريث! تريث لأنه تعلم من التاريخ، وأدرك أن أنصار اليوم قد يكونون أعداء الغد، وأن الغدر الذي وقع بالإخوة في كولونيا قد يتكرر في ساموس إن لم تكن هناك قوة تحميهم! وهنا قرر لأول مرة أن يكون للإخوة ذراع تبطش، ذراع تحميهم من الغوغاء، وتدافع عنهم عند وقوع النوازل والشدائد، ولكن كيف وهم رجال فكر وليسوا رجال حرب؟ وحين استمع إلى أنجوس في تلك اللحظة، شعر بأن الأقدار قد أهدته ما يبحث عنه، فهذا البربري يحمل كل الصفات التي يريدها، بحار، مقاتل، شجاع، له خبرة بالإبحار، وفوق كل هذا غريب عن مارسيليا! كانت كل العناصر ملائمة، ولكن

يبقى تحدٍ وحيد، كيف سيصنع من هذا البربري رجلًا صالحًا يمكنه أن يصبح عضوًا في جماعة الإخوة؟ أتنه الإجابة من الشاب حين قال:

- اجعلني عبدك يا سيدي فأنا مدين لك بنجاتي.

- لا يوجد عندنا عبيد، ولكن رفقاء وتلاميذ.

- دعني إذن أرافقك.

- لكن الدخول إلى جماعتي له شروط.

- موافق عليها قبل أن تمليها.

- شروط غير هينة!

- اختبرني يا سيدي، وسترى.

- ستلتزم الصمت ستة أشهر.

- موافق.

- ستمتنع عن أكل اللحوم إلى الأبد.

- سأفعل.

- ستجلس في خلوات فوق الجبال لشهور، تلتحف فيها السماء وتأكل من أعشاب الأرض.

- لا يهمني.

- بقي أهم شرط!

- ما هو؟

- أنا سيدك الأوجد.

- والأبدي.

والحق أنه فوجئ بقدرة الشاب المذهلة على الالتزام والتعلم أيضًا، كان كل شهر يمر، يثبت فيه تفوقًا بدنيًا وعلميًا على كل شبان الجماعة. كان يتابع التغيرات التي تطرأ عليه، ويشعر بالفخر لأنه صنع من هذا البربري إنسانًا متحضّرًا. الشيء الوحيد الذي فشل في تقويمه هو غضبه السريع، خصوصًا على كل من يحاول أن يناله أو ينال الجماعة بالأذى. حتى قال له جادًا ذات مرة:

- أشعر بأنك كنت كلبى فى حىة سابعة.

فانحنى فى سعة وقبل يده. وبعد عام من الاختبار، أفصح له بالسرى، وأخبره بأن الجماعة ستؤسس جمهورية جةة فى ساموس، وأنهم بحاجة إلى الحماية، فرقة مسلحة من البربر يختارهم بعناية، تكون ذراع الجماعة القوية التى تبطلش بمن يحاول المساس بها. ابتهج أنجوس بالمهمة، وتعهد بتنفيذها بسرية، ودقة. بحث فى حى البربر عمن يصلح، ولكنه لم يجد سوى القليل، استأذنه فى السفر إلى مسقط رأسه فى أفريقية، ليعود بأعداد أكبر، وبعد شهور عاد بسفينة محملة بعشرات البربر، أقام لهم معسكرًا فوق جبل جارلابان بعيدًا عن أعين الناس فى الحى، وبدأ فى تأهيلهم بنفسه على الولاء والطاعة التامة له، ولكنه لم يتبع أسلوبه فى التطهير، بل استخدم أسلوبًا أبسط وأسرع، فالطاعة يقابلها المال، والعصيان يقابله الطرد! لأن التطهير فى رأيه وسيلة لا تصلح مع جميع البشر. كان سعيدًا بما حققه تلميذه من نجاح، ولكنه لم يكن سعيدًا بالتغير الذى طرأ عليه. كان يرى شذرات الشر وهى تحرق أغصان الحكمة التى غرسها فى قلبه. لمعت عيناه بالشبق، واهتزت حدقتاهما بالريبة، وفاحت مع أنفاسه رائحة اللحم، والخمر. شعر بالحيرة بين عقابه، أو أن يتركه ليكمل الحلم الذى صار على أعتاب الواقع. حسم أمره، فدعاه إلى مجلسه ذات صباح، وطلب منه أن يصعد إلى جبل جارلابان فى خلوة لمدة شهر، لأنه يشعر بتغير فى سلوكه. العجيب أن الشاب لم يسأله عن هذا التغير، بل أناخ رأسه فى خنوع، ثم نفذ الأمر وكأنه يقر بما فيه.

وفى أثناء ذلك قرر أن يذيع الخبر لمجلس الدعاة، فهو لا يريد أن يتهمه المجلس بالانفراد بالرأى، خصوصًا بعد أن ألمح بعض الدعاة إلى المميزات التى يحصل عليها أنجوس من دونهم، فأخبرهم بأمر الرحيل المرتقب إلى ساموس، وعظم فى أعينهم الدور الذى قام به أنجوس. وطلب منهم أن يبقوا الأمر سرًا وألا يخبروا أحدًا خارج المجلس حتى ابنته أيولا. ورغم اعتراض أركانسو كبير الدعاة على إسناد تلك المهام لأنجوس، وانتقاده لإنفاق الأموال على البربر وقطاع الطرق، فإن باقى الأعضاء تقبلوا كلامه بسعادة، واستبشروا جميعًا بجمهوريةهم الجديدة.

وعاد أنجوس من الخلوة بعين أكثر ثقة، وأشد وقاحة، عززها ذلك التملق الذى قابله به الدعاة بمن فيهم أركانسو، وغازله ذلك التقارب بين الاثنين وتوجس من ورائه شرًا. ولم يخب ظنه، فبعد أيام جاءه أنجوس، وطلب منه برجا يدنو من الوقاحة، أن يضمه لمجلس الدعاة. رد عليه فى حسم:

- لن يقبل الدعاة ذلك يا أنجوس! فأنت غريب!

- غريب!

تردد ثم قال:

- نعم! فأنت في نظرهم لست من الإخوة!

- وهل هناك من الدعاة من هو أكثر إيمانًا أو ولاء مني؟ قل لهم يا سيدي من أنا ولن يرد أحدهم قولك!

ارتبك أمامه لأول مرة، شعر بأن الشاب يُكرِّهُه على ما لا يريد، هو لا يعدُّه من الجماعة، هو كليب عقور رباه ليدفع الغرباء عن بيته، فكيف يسمح له بالإقامة داخل البيت. علق أمانيه على رفض الدعاة لطلبه، ولكنه فوجئ بموافقة أغلب الدعاة على ذلك، حتى أركانسو.

وذات يوم كان يجلس معه ليدبرا خطة الرحيل، اقترح أنجوس شراء سفينة لتتنقل الجماعة عبر بحر أرخبيل، ومنها إلى ساموس، فهذا أقل خطرًا من السفر عن طريق البر، ولن يثير الأقاويل في القرى والمدن التي يمرون عليها. فوافق رغم التكلفة الباهظة للسفينة التي اقترح أنجوس بناءها. وبينما هما كذلك إذ دخلت عليهما أيولا. صرفه حتى لا تعلم أيولا بما يدبران، ولكنه لمح في عينيه تلك النظرة الوقحة التي رمق بها ابنته. وبعد أيام جاءه أنجوس بعد أن فرغ من الدرس. جلس بين يديه، وطأطأ رأسه ثم قال:

- سيدي المعلم، هل لي أن أطلب منك طلبًا.

- ما هو؟

- أريد الزواج من أيولا.

فارت الدماء في رأسه، وفشل وهو الرجل الحكيم في السيطرة على غضبه! كيف سولت لهذا البربري نفسه أن يخطب أيولا المدللة حفيدة بيثاغورس التي لا تضاهيها فتاة في مارسيليا، بل في العالم بأسره؟

وضع عصاه على عنقه، في حركة فاجأته وقال:

- أوافق بشرط أن تقدم روحك قربانًا لها.

فأحنى رأسه وقال:

- روحي فداء لها ولك يا سيدي.

لهث من الغضب ثم قال وكأنه يبصق الرد عليه:

- نحن نختار لإناث ماشيتنا أفضل السلالات يا أنجوس، فما بالك ببناتنا؟
ثم أردف:

- انسَ هذا الأمر، وحاول أن تنجز السفينة في أسرع وقت، فأنت بحاجة إلى
خلوة طويلة فوق جبل جارلابان قبل أن نرحل.

فقام الشاب حانقًا، وقبل أن ينصرف استوقفه مرة أخرى قائلاً له وعيناه
تقطران وعيدًا:

- أتدري يا أنجوس ماذا نفعل فيمن أصيب بالشُّعار؟

- ماذا تفعل يا سيدي؟

- نضع أمامه صحنين أحدهما به ماء والآخر سم الشوكران، أتدري ماذا يختار؟
تنهد ثم قال:

- ماذا يختار يا سيدي؟

- يختار سم الشوكران لأنه يخشى الماء.

وبعد أيام أتته أيولا، وحدثته عن ذلك الفتى العاشق، الذي يتودد إليها، وكأنما
تأمرت عليه هي الأخرى. أمرها ألا تتردد على دروس الموسيقى، حتى لا
يكتشف أنجوس الأمر. ولكن الشاعر الأرعن أتى إلى الحي وجعل للفضيحة
صوتًا. يومها جاءه أنجوس إلى حجرة الدرس وقال في شماته:

- أخبرتني بأنك تختار لماشيتك أفضل السلالات حين تزوجها، فمالي أرى
حظيرتك مستباحة لكل وثابٍ هائج!

قال في غضب:

- ماذا تقول يا أنجوس؟

أحنى رأسه ثم قال ببرود:

- معذرة سيدي إن كنت أغضبتك. ولكني تعلمت منك أن الحب شهوة دنيئة
ينبغي أن نتطهر منها إن لم يحكمها العقل. ولهذا غضبت حين علمت أن ابنة
معلمي تقضي الوقت تحت ظلال السنديان في أحضان هذا الشاب المتهتك
الذي يقرض الشعر ويراقص الغانيات. أليس ذلك من شهوات الحب الدنيئة يا
سيدي أم أنه من أعمال العقل؟

لم يجد ما يقول، فتابع الخبيث بوضوح:

- زوّجني إياها يا سيد أنوسطس، فأنا تلميذك النجيب، زوّجني إياها، فأرفع قدرك بين الدعاة، وأحقق لك حلمك في جمهورية إخوة بيتاغورس. وأحميك من أطماع أركانسو!

تكشفت أوراق الحرب بينهما، واكتشف أبعاد الخيانة، أركانسو الطامع في منصبه، قد تحالف مع أنجوس.

واللعين الآن يقايضه بابنته، اعترف بأنه أخفق حين وضع الخيوط كلها في يد هذا البربري، واعترف بأنه أهمل حين وضع نفسه وابنته في ذلك الموقف المخزي. دارت رأسه من الارتباك، قال له:

- أزوجك إياها، ولكن بشرط.

- ما هو؟

- بعد أن نصل إلى ساموس.

- موافق، ولكن بشرط.

- ما هو؟

- أخبرها بذلك الآن.

ذهب إلى ابنته منكسرًا، وأخبرها بموافقته على خطبتها من أنجوس، وهو يعلم أنه يذبحها بسكين ثلم، لم يشعر بالقهر مثلما شعر في ذلك اليوم. بات ليلته في المدرسة، وبكى وهو يحاسب نفسه حسابًا شديدًا، اعترف بأنه أخطأ في حق نفسه وحق ابنته وحق الجماعة. تمنى أن تحدث معجزة، يعيد بها ترتيب الأمور إلى وضعها الصحيح.

وجاءته الاستجابة حين أتى ذلك الشاعر ورفيقه، وكشفوا حقيقة أنجوس أمامه. حينها قرر أن يتخلى عن كل شيء. سينقي حلمه من بذور الشر التي نثرها أنجوس. سيتر أطرافه التي تمددت داخل الجماعة، وبعد أن يتخلص منه سيعيد ترتيب أوراقه. ويستأنف حلمه بطريقة أخرى.

وحين غادر قاعة المحاكمة، تلاقت نظراته مع أنجوس للمرة الأخيرة، تجاوزه بكبرياء، وهو يرى في عينيه نظرة الكلب التي رآها أول مرة يوم أن كان مقيّدًا بالسلاسل، ولكنه لم يكن ذلك الكلب المستجدي للرحمة، وإنما كلب عقور يتوعد بالانتقام. انتهى من تأمله، ثم ختمه قائلاً «يا من نظم الكون وفق العدد، امنحنا الانسجام في أجسادنا كما في الأفلاك» ثم مد يده إلى سطل الماء المقدس واحتسى منه ثلاث رشقات، ثم تمدد على الفراش، وفي خياله

ابنته أيولا. لقد كان قاسيًا معها في الأيام الأخيرة، ولكنه سيعوضها قريبًا، سيخرج معها في خلوة وسيمكث معها أيامًا فوق جبل جارلابان، وسيبذل قصارى جهده ليصلح ما أفسده أنجوس اللعين بينهما. أسلمه الإرهاق إلى غفوة بسيطة، ولكنه استيقظ على غثيان شديد، اعتدل فوجد فاه يطفح باللعب، وبطنه يتشنج بالألم. همّ بأن يقوم فخارت ساقه، وطاح سطل الماء إلى جواره، سقط متشنجًا، وهو يجاهد ليلقف أنفاسه من حلقه الممتلئ بالزبد. شعر بعينه تغادر محجريهما وتضيء بضوء النهاية، ولكنه كان ضوء مصباح يحمله أنجوس في يده، وهو يقترب منه، ويقول:

- لماذا اخترت سم الشوكران بدلاً من الماء المقدس؟

ثم جثا على ركبتيه إلى جواره، ومسح خيط اللعب الذي سال من فيه وهو يقول:

- معذرة سيدي المعلم. آآ الأوان أن تستريح

وصل وفراق

استيقظت يوم السبت وقد دغدغت الحماسة عقلي، قمت نشطاً، فتحممت، ثم ارتديت ملابسني وتناولت فطوراً سريعاً، ولم أنس أن أحمل معي الكاميرا قبل أن أغادر متجهاً إلى ناصية شارع لوبانير. لم يمض وقت طويل حتى ظهرت أبريال، وهي ترتدي قميصاً قطنيًا أبيض، يحكمه عند الخصر بنطال ضيق أزرق اللون، أظهر رشاقة قدها، وأفصح عن أنوثة كانت تسترها ملابس العمل الرسمية، خاصة بعدما عقصت شعرها في باقة خلف رأسها تدلت كذيل مهرة شقراء جعلها تبدو كفتاة جامعية. شعرت بالخل من مظهري الرسمي، فقميصي الأبيض ذو الأكمام الطويلة والأزرار السوداء وبنطالي الذي اتسع خصره، حتى استوى حزامه عند سرتي، وحذائي الجلدي اللامع، قد جعلتني أبدو مفتش آثار وليس سائحًا متجولاً. ولم تفوت أبريال فرصة التعليق، قالت:

- تبدو أنيقًا على جولة صباحية! هل أنت متأكد من أنك لن تعود إلى الجامعة بعد انتهاء الجولة؟

ضحكت قائلاً:

- بل أتأنيق لأنني في جولة مع سيدة جميلة!

ثم سألتها:

- أين سيارتك؟

قالت وهي تخرج من جيبها تذكرتين ملونتين:

- لا نحتاج، سنستقل حافلة الجولات السياحية.

بعد قليل كنا نرتقي سطح حافلة ملونة، مكشوفة السقف، يجلس في مقدمتها مجموعة من السياح تتحدث إليهم مرشدة سياحية، وفي آخر مقعد جلست هي عن يميني، وقد اقتربت بفمها من سماعة أذني، تهمس فيها بالكلمات، حتى لا تضيق مع لفحات الهواء المحملة بضجيج الشارع. وبين الفينة والأخرى، تمس ركبتني بحماس، أو تضع يدها على كتفي وهي تشير إلى أحد الآثار، حتى طننت من شدة شغفها، أن المباني توشك أن تومئ إلينا

بالابتسام. وعلمت حينها أن شغفها الحقيقي هو الإرشاد السياحي وليس العمل بالجامعة.

توقفنا عند مدخل الميناء القديم وصعدنا سيرًا على الأقدام إلى طريق مرتفع في اتجاه ربوة تعلوها قلعة رينية التي تربض على فتحة الخليج. كان المشهد رائعًا، نسمات الهواء اللطيفة القادمة عبر فتحة الخليج، وبرج القلعة الشاهق، وصوت أبريال العذب وهي تتحدث، كلها كانت مثيرات ملأت حواسي بنشوة لا تقاوم. أخبرتني بأن برج القلعة هو موضع الفنار القديم، وأن القلعة كانت حصنًا من حصون فرسان المعبد الهوسبتاليين في العصور الوسطى وقاعدة كانت تُرسل الفرسان إلى الأراضي المقدسة في أثناء الحروب الصليبية، ولكنها دُمّرت ثم أعيد بناؤها لتصبح متحفًا للحضارات. تعجبت لهذا التحول من حصن لنشر الحروب والكراهية، إلى متحف للحضارات.

سألتني:

- هل تحب أن تزور المتحف من الداخل، أم ننتقل إلى محطة أخرى؟

أخذت نفسًا عميقًا، ثم رفعت رأسي إلى أعلى البرج، وقلت:

- بل أود أن أصعد إلى هذا البرج.

تراجعت وقالت مبتسمة:

- لا يمكن.

ثم أردفت:

- هل أنت جاد؟!

أومأت برأسي وقلت:

- جاد جدًا.

بعد وقت قصير مر كساعات، انتهينا من صعود مائتين وعشرين درجة حلزونية! بلغنا السطح ثم سقطنا على أرضيته، وضحكنا اللاهثة تملأ الأفق، علقت أبريل ذراعها فوق كتفي وأسندت رأسها على جبهي المتصبية عرقًا وقالت:

- يا إلهي، أنت مجنون يا عمر، جئت هنا عشرات المرات ولم أحاول صعود هذا البرج في أية مرة!

قلت ضاحكًا وأنا ألهث:

- هذا يجعلها مرة مميزة.

ثم قمت من مكاني وتقدمت نحو السور. تطلعت ببصري نحو الأفق المهيّب، الذي تعانقت زرقته مع زرقة المياه، ثم ملأت صدري بعبق الهواء المنعش، لم أر في حياتي مشهدًا بهذا الجمال، أغمضت عيني منتشيًا وحين فتحتهما، رأيت ما هو أجمل، رأيتها تنظر نحو الأفق، وقد انعكس بريق الشمس على عينيها اللتين نافستا في زرقتهما زرقة البحر. أمسكت بالكاميرا، وضبطت عدستها، وحين شرعت في التقاط صورة لها، ابتسمت، فرسم ثغرها، قوسًا ناعمًا، تمنيت لو أقبله. مرت ساعات من البهجة، وبعد منتصف اليوم توقفنا عند محطة المركز التجاري لتناول الغداء. قادتني إلى مطعم راق يحمل طابع العشرينيات، يشغل ناصية الميدان المواجهة لمبنى البورصة. تكسو طاولاته مفارش بيضاء نظيفة، وتعلو كل طاولة مزهية صغيرة بها زهرة أوركيد بنفسجية، تنسجم مع شعار المطعم، الذي يحمل اسم زهرة الأوركيد. قادنا

النادل إلى طاولة لفردين، فكان مجلسنا، أمام مبنى البورصة الذي تزينت واجهته بعدد من التماثيل الإغريقية. بينما احتل الرصيف المواجه له، فتى وفتاة كانا يغنيان أغنية شهيرة لداليدا وألان ديلون، وقد التف حولهما عدد كبير من المارة والسائحين. فركت يديها بحماس وأخذت تردد كلمات الأغنية ثم قالت:

- أغنيتي المفضلة، وداليدا هي مطربتي المفضلة أيضًا.

لم أكن أعرف لداليدا سوى أغانيها بالعربية، فقلت لها:

- أغانيها بالعربية أجمل.

- تعجبني ألحانها، ولكني لا أفهمها.

ثم قالت بأسف:

- هل تعلم أنني بكيت بشدة حين علمت بانتحارها؟

قلت متعجبًا:

- أندesh ممن يقدمون على الانتحار وهم يمتلكون المال والشهرة.

غشيتها كآبة لوهلة وهي تقول:

- الحياة أعقد من ذلك يا عمر.

ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت:

- لقد فكرت في الانتحار ذات مرة، ولكنني تعافيت!
قلت متشككًا:

- أنت غير جادة، أليس كذلك؟
- لماذا؟

- تبدين مشرقة، مبتهجة، مقبلة على الحياة.
ضحكت قائلة:

- هذا من علامات التعافي!
ثم أردفت:

- أحيانًا نفقد ثقتنا في أشياء كثيرة، تجعل الحياة عبثًا.
قلت باسمًا:

- ولكن الحياة أجمل من أن ننهيها بقرار.
قالت بوجوم:

- تظل جميلة ما لم يكن هذا هو القرار الوحيد.

قطع حديثنا النادل وهو يضع الطعام، ثم ابتسم متمنيًا لنا طعامًا شهيقًا. فانصرفت عن الموضوع بالحديث عن جودة الطعام، ورقى المطعم وبعد أن أنهينا الغداء، خرجنا إلى شارع لاكازيير، وسرنا بمحاذاة مبنى البورصة، كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أسير إلى جوارها، يتلامس كتفانا، فأطيل اللمس وكأنني أستعذب نشوة القرب منها بعد هذا اليوم الحافل بالدهشة. فجأة وقعت عيني على تمثال فوق واجهة مبنى البورصة، لرجل يرتدي عباءة، ويمسك بيده عصا ويرقد إلى جواره جرو يشبه الماعز! تعجبت من نظرة التمثال الشاخصة إلى السماء وسبابته المرتفعة لأعلى.

سألته:

- من هذا؟

قرأت الاسم المكتوب أسفل التمثال ثم قالت:

- اسمه بيثياس.

- من هو؟

- رحالة ومستكشف قديم من مارسيليا!

- وما الذي اكتشفه؟

مطلت شفيتها ثم قالت:

- كل ما أعرفه أنه قام برحلة عجيبة في المحيط الأطلسي نحو الشمال!

عاد الدكتور سلطان من الولايات المتحدة الأمريكية مختلاً بزهو التكريم، أقام حفل عشاء في بيته احتفالاً بهذه المناسبة، دعا إليه رئيس الجامعة، وعددًا من زملائه، وفريق البحث بالكامل. تناقل الحضور همسًا أن الدكتور سلطان أصبح بعد هذا التكريم مؤهلاً للترشح لجائزة كبرى في العلوم، وأنه ليس من المستبعد أن يصبح من المرشحين لجائزة نوبل. وأظنه أشار إلى ذلك ضمناً، حين ذكر أنه قابل رئيس أكاديمية نوبل في حفل التكريم الذي أقيم على شرفه في نيويورك. كنت فخورًا به، وتمنيت أن أسير على دربه، رجل من أصل عربي، وابن من أبناء المهاجرين، نجح في الوصول إلى تلك المكانة متكئًا على عصا الطموح فقط. وجمعنا حديث علمي مثير بعد العشاء، تحدث فيه الدكتور سلطان عن مشاكل التغيرات المناخية، وتأثيرها على القطب، وكيف أن الولايات المتحدة قد رصدت بلايين الدولارات على ملف التغيرات المناخية وتأثيرها على القطب الشمالي.

ثم مال على أذن رئيس الجامعة وقال مبتسمًا:

- قريبًا سنحصل على منحة كبيرة للمشاركة في هذا الملف!

فجأة دخلت علينا زوجته التي جاءت لتحيتنا. كان يبدو من ملابسها ولغة جسدها، أنها راسخة في الأرستقراطية، كما بدت أكبر سنًا من الدكتور سلطان، الذي كان مفعماً بالحيوية والشباب إلى جوارها. علمت من أبريل لاحقًا، أنها كانت في الأصل حقوقية قبل أن تتقاعد، وأنها من أسرة لها تاريخ سياسي كبير في فرنسا، فقد كان أبوها رئيسًا لبلدية باريس حين تزوجها سلطان. وأدركت حينها، أن الطموح والجهد لا يكفيان وحدهما للوصول إلى دائرة النخبة، بل يحتاج الأمر إلى تخطيط جيد، واستغلال لجميع الفرص. وبينما كانت المرأة تتحدث وتبتسم في خيلاء لضيوفها، تساءلت رغما عني، هل تعلم هذه السيدة الأرستقراطية أن زوجها يخونها مع سكرتيرته؟

انتهى حفل العشاء، وعدت إلى السكن. شعرت بشوق لأبريال، كنت أظن أنني سأنعم برؤيتها في الحفل، ولكنها لم تحضر، وما إن ولجت الشقة، حتى

اتصلت برقمها. جاءني صوتها على الهاتف فسألتها مباشرة:

- لماذا لم تحضري الحفل؟

تنهدت طويلاً ثم قالت:

- لست مدعوة!

ثم أردفت وكأنها شعرت بخطأ ما قالت:

- أقصد أنني اعتذرت لأنني كنت مرتبطة ببعض المواعيد.

امتد الصمت بيننا للحظات، قبل أن أقول:

- هل أنت بخير؟

جاءني صوتها ممتزجاً بالحزن، وهي تقول:

- نعم بخير. كيف صار الحفل؟

حكيت لها كل التفاصيل، شكل البيت والحديقة، والأثاث، أسماء المدعوين، والأحاديث التي دارت بينهم، ترتيب المائدة، وأنواع الطعام التي قدمت، حكيت كل شيء، حتى أنها كانت منبهرة بقدرتي على حكي كل التفاصيل، وأدركت في تلك المكالمة أن المرأة تحب من يشاركها التفاصيل على تفاهتها. وحين بدأنا في الحديث عن زوجته، انتقلت إليها عدوى الثثرة فشرعت تحكي لي عن تاريخ الزوجة، وكيف تعرف عليها الدكتور سلطان وقصة زواجهما. كانت المكالمة طويلة على غير ما توقعت، ولكنها لم تكن أطول مكالمة جمعتني بها، فمنذ تلك الليلة توطدت علاقتي بها، وجمعتنا أحاديث تليفونية كنا نبدأها في أول الليل وننتهيها مكرهين قبيل الفجر حتى تتمكن من الاستيقاظ للعمل في اليوم التالي، وتعجبت من حالي! تعجبت كيف تطورت قدراتي للحديث مع امرأة، من عبارات قليلة كقطرات الغيث الحذر، إلى حوارات طويلة متشابكة، كروافد نهر لا ينقطع، أصبح فيه عارياً وقد خلعت عني عباءة الانطواء والخجل. تحدثت عن كل شيء، عن أفكار، مخاوفي، أحلامي، عن عائلتي وبلدي، حتى الجنس، نال نصيبه من النقاش بيننا، وكنت رغم خجلي أشعر بلذة كبرى حين نبدأ في الحديث عنه. اندهشت حين أخبرتها بأنني لا أملك أي تجارب جنسية، فسألتني:

- كيف لم تمارس الجنس وأنت على مشارف الثلاثين؟

- في ثقافتنا لا نمارس الجنس بغير زواج! وأنت؟

- الجنس عندي مقرون بالحب.

- وهل أحببت من قبل؟

- بالتأكيد.

- إذن فأنت تمتلكين تجارب لا أمتلكها!

ضحكت قائلة:

- لأنني أكبر منك!

- وهل تحبين الآن؟

صمتت قليلاً ثم قالت:

- لماذا تسأل؟

- ربما أبحث عن فرصة.

- سوف أمنحك فرصة لو كففت عن الأسئلة الصبيانية!

أسعدتني عبارتها رغم هزلها، ووجدت فيها وعدًا، جعلني أتمثلها في خيالي في ليال كثيرة وهي تمنحني حبها المشروط. ورغم الألفة المتسارعة بيننا، كنت أقف أحيانًا حائرًا أمام نظراتها المضطربة حين ترى سلطان، ورغمًا عني كنت أتذكر ما رأيته بينها وبينه،

فيصيني الخجل من نفسي، وشعور بالخسّة. ورغم قسوة هذا الشعور، لم أجرو يومًا على سؤالها عن علاقتها بسلطان أو أن أشير إلى ما رأيته بينهما من قريب أو بعيد.

وذات صباح، وكنا في منتصف الخريف، جمعنا الدكتور سلطان مازيس وأخبرنا بأننا سنبدأ العمل الميداني. وفوجئت به يغير موقع الدراسة الميدانية من بركان روجن الذي اتفقنا عليه سلفًا، وهو بركان صغير يقع على بعد ساعة إلى الشمال من مارسيليا، إلى سلسلة جبال القبة المخروطية البركانية التي تقع في منتصف فرنسا، على بعد عشر ساعات. ثم أردف:

- رتبت لكم كل شيء، وستكون معكم مدام سيلين مديرة معمل باسكال في القبة المخروطية، لتدلل لكم أية عقبات.

بان على وجهي الضيق، وغمرني إحساس بغربة مرتقبة لم أشعر به حين غادرت مصر. تعجبت كيف تنمو ألفتنا بالمكان في سرعة شجرة جهنمية

بمجرد أن نجد من نحب! وأن مغادرته بعد ذلك تصبح مؤلمة كإقتلاعها من جذورها. عدت إلى المكتب واجمًا، وأحسست بي أبريل، فسارت خلفي وأغلقت الباب وراءها. التفتُ نحوها، وقلت:

- هل كنت تعلمين؟

- نعم.

- هل ستأتين معنا؟

- بالطبع لا.

استدردت وأنا أقول في حزن حقيقي:

- سوف أفتقدك.

تقدمت نحوي ووضعت يدها على كتفي وقالت في عذوبة:

- وأنا أيضًا سوف أفتقدك يا عمر.

لم أستطع أن أمنع نفسي هذه المرة من احتضانها، ولم أقدر العواقب. فلم أكد أضمها، حتى أحسست بها كقطعة جليد تذوب في حرارة جسدي، اعتصرتها بين ذراعي، وانحنيت على شفيتها أقبلها، واستسلمنا للحظات غبنا فيها عن العالم، إلى أن دفعتني في صدري برفق وهي تقول:

- عمر! كفى!

شعرت بالخجل، فأمسكت يدها. وأنا أقول:

- أنا آسف...

أفلتت يدها برفق، وهمت بأن تنصرف، ولكنني تشبثت بيدها مرة أخرى وأنا أقول:

- أبريل، انتظري أرجوك.

ثم قلت بحلق جاف:

- أبريل أنا أحبك.

ارتعش خدها، أخذت نفسًا عميقًا، ثم ضمت كفيها أمام أنفها وكأنها تصلي، ثم قالت:

- لا يمكن!

تابعت وكأنني أرجوها:

- صدقيني يا أبريل، أنا فعلاً أحبك!

تساقطت دمعة حبيسة من عينيها وربما تبعثها أخريات، ولكنني لم أرها فقد كانت تخفي وجهها بكفيها، وحين كشفت عينيها، كانت شديدة الاحمرار وهي تقول:

- اعتنِ بنفسك يا عمر، فسوف أفقدك!

ثم غادرتني، وأغلقت الباب خلفها. انهزت جالسًا خلف المكتب، أمسكت برأسي، وأنا أشعر بطنين سماعتي، يدوي بداخلها كبوق سيارة إسعاف، خلعتها ثم ألقيتها لاعتنا وجودها المقترن بالعجز. وبعد أن هدأت عاصفة الانفعال بداخلي، قمت والتقطتها. فجأة سمعت حركة في مكتب رحماني، فتحت الباب الذي ترك مواربًا، وحين ألقيت بصري على أرض الحجر، وجدته يجلس على الأرض عاطفًا ركبتيه، وكأنه فرغ لتوه من الصلاة.

زهرة القمر

استيقظ خادم المدرسة في الصباح، ليجد جسد المعلم أنوسطس متصلبًا في أرض الحجرة. صراخ الرجل الذي ملأ الحي، جمع الناس من كل الأرجاء، ووصلت الجلبة إلى بيت كبير القضاة أركانسو، الذي جاء حافيًا بقميص نومه. أفسح له الجمع طريقًا إلى الجسد المسجى، وما إن وصل حتى انهار باكياً، تحسس الجسد بذعر وحزن، ثم أخرج من جيب الجثمان لفافة بردي، فتحها بيد مرتعشة، ثم قرأ باكياً:

- «وحين تخلف البدن وتحلق في الهواء الحر، ستكون خالدًا، ربًا لا يموت، ولن تعود من أهل الفناء»

كانت العبارة إحدى الآيات الذهبية للمعلم بيثاغورس. نظر التلاميذ لبعضهم بعضًا في ذهول، وكأنهم يسمعونها لأول مرة، أو سمعوها، ولكنهم لم يفهموا مدلولها في تلك اللحظة، وحين طوى أركانسو الورقة قال:

- «اختار المعلم أن يحيا مع الخالدين».

بكوا بكاءً لم يخفف من صدمتهم. تعجبوا كيف ينهي المعلم حياته بيده، وهو من علمهم أن الإنسان عليه ألا يتعجل خروج الروح من الجسد قبل اكتمالها، وأن الانتحار فعل مشين. ولكن كلام القاضي أركانسو حسم الأمر حين قال:

- إن اختيار الموت برهان مطلق على الرغبة في التحرر، وقد اختار المعلم ذلك. فأعدّوا له موكب الدفن السماوي. وأرسلوا لابنته أيولا كي تلقي عليه النظرة الأخيرة.

بعد ساعات كان الجسد المعطر منبسطًا فوق محفة، تستقر على عربة جنائزية يجرها حصانان، وقد التف في رداء أبيض، كشف عن وجه يبدو هادئًا رغم زرقته، ويحيط به إكليل من أغصان الزيتون، ويستقر فوق صدره وشاح يحمل صورة المثلث العشري. وكانت جوقة من الموسيقيين الجنائزين تلتف حول العربة، وتعزف ألحانًا باكية تمزق وشائج القلب، استعدادًا لتشيع معلمهم إلى مستقره الأخير في بطون الطير الجارحة. فقد كانت طقوس الدفن السماوي تستلزم أن يهب طالب التحرر الأبدي جسده لجوارح الجبال لتأكل منه حتى تشيع، ثم يُطحن ما تبقى من الجسد، ويُصنع منه خبز تأكل الطير منه، فلا يبقى شيء من الجسد إلا وقد دفن في السماء.

كان كل شيء معدًّا لبدء رحلة النهاية، ولم يتبق إلا وصول أيولا، كي تلقي نظرة الوداع الأخيرة على أبيها.

مر الوقت، وانتصف النهار، ولم تحضر ابنة المعلم. أثار غيابها الأقاويل، وشعر أنجوس بالتوتر، وأمر رجاله بالبحث عنها في كل مكان، بينما أمر القاضي أركانسو بتنفيذ المراسم من دونها.

وبعد أن عادوا من تشييع الجنازة عقد مع الدعاة مجلسًا ترأسه، للاتفاق على اختيار رئيس جديد، فقد كانت قوانين الجماعة تمنح لكبير القضاة الحق في إدارة المجلس في حال وفاة الرئيس بغير إنجاب ذكور ولحين انتخاب رئيس جديد. جلس أنجوس على رأس الطاولة إلى جوار أركانسو رغم أنه كان أحدث الدعاة انضمامًا. تحدث أركانسو قائلاً:

- إن قوانين الجماعة تحتم أن ينتخب لها رئيس من مجلس الدعاة، ولهذا اجتمعنا لاختيار واحد منا رئيساً للجماعة.

وقبل أن يرفع أحد يديه بالكلام، قال:

- وبصفتي كبير القضاة، وأكبر الدعاة سنًا، فإني أترشح لمنصب الرئيس، فإن كان منكم من يرى أنه أولى مني فليتكلم أو ليبيع.

صمت الجميع، فقال:

- إذن فهي المبايعة.

ثم أردف:

- أما بالنسبة لمنصب كبير القضاة فإني أرى أن خير من يتولاه من بعدي هو السيد أنجوس.

نكس الدعاة رؤوسهم، وقد عجزوا عن النطق. تمنى أركانسو أن يعترض أحدهم، تمنى لو يقول واحد منهم كيف، وهو أحدث الدعاة انضمامًا؟ أو كيف، وقد حاكمه أنوسطس وأراد طرده؟ ولكن أحدًا لم ينطق! شعر بالأسف على الجماعة، وشعر بالغضب من أنوسطس، ربّي فيهم أنوسطس الطاعة ولم يربّ فيهم الشجاعة، جعلهم أتباعًا، ولم يجعلهم دعاة. يستحق أنوسطس ما جرى له، فهو الذي آوى الذئب حتى التهمه، والكل يهادن الذئب الآن كي لا يؤكل. هو الوحيد الذي أعلن كراهيته لأنجوس من أول يوم، ولكنه الآن لا يستطيع أن يتصدى له وحده، عليه أن ينتظر حتى يرحلوا إلى ساموس وهناك ربما يستطيع أن يواجهه بشعب جديد!

ربما الشيء الوحيد الذي عرّى ضميره به أمام نفسه هو تلك الرسالة التي ألقاها في بيت أيولا ليلة مقتل أنوسطس، رسالة من سطر واحد كُتِبَ فيها «اهربي الآن، أو ستعيشين ذليلة للأبد»

كانت ساحة الأجورا تكتظ بالناس الذين أتوا من كل مكان ليشاهدوا العرض الجديد للشاعر قدموس. وقف مدبر الحفل خلف أحد الأعمدة، يراقب الوفود التي ترد إلى المسرح في سعادة ثم التفت إلى قدموس الذي كان يتأهب لبدء العرض وقال:

- لم يبق مكان لقدم على الدرج.

تطلع قدموس إلى المسرح المكتظ، فشعر بالرهبة، طاف بعينه بين الحضور، وتساءل هل وصلت أنباء العرض إلى تلة الإخوة؟ وهل تعلم محبوبته أنه سيقف فوق المسرح مقاتلاً من أجلها؟ كان قد ذهب إلى مدبر الاحتفالات في الأجورا قبل أيام وذكره بنفسه، وأخبره بأنه يريد أن يقدم عرضاً على المسرح. فقال له:

- ولكن حفلات النصر قد انتهت يا قدموس.

قال له بجدية:

- سأقدم عرضاً خاصاً، وسأدفع لك خمسين دراخمة، وأوزع الحلوى على الحضور ولكن بشرط، أن يعلم الجميع في مارسيليا من تلة دوميز، وحتى تلة الإخوة أن الشاعر قدموس سيقدم ملهاة كبرى فوق مسرح الأجورا!

تفكر مدبر الحفل في عرضه المغري، ثم قال:

- وما اسم العرض؟

- «مأساة أيولا زهرة القمر»

في الأيام التالية كانت جميع الطرقات في مارسيليا تتعلق على أعمدتها أوراق مرسوم عليها فتاة ذات شعر أحمر، ومكتوب أسفلها: المأساة الكبرى، «أيولا زهرة القمر» للشاعر قدموس. لم يربط أحد بين الصورة والاسم، باستثناء لينوس الذي ذهب إلى أخيه، وقال:

- أنت تعلن الحرب على إخوة بيثاغورس يا قدموس.

- لا أمتلك سوى الكلمة.
 - من حق أبيها أن يقاضيك وقد يبارزك أنجوس دفاعًا عن الشرف.
 - هناك العشرات من الفتيات اسمهن أيولا.
 - وماذا ستكسب من وراء ذلك؟
 - ستعلم أنني قاتلت من أجلها.
- انتهى من كتابة القصائد، ثم استعان ببعض الممثلات من غانيات نقفور، قام بتحفيظهن الأشعار، وتدريبهن على الغناء، وحين استمع نقفور إلى الأشعار في أثناء التدريب طلب مشاركته في العرض بدور البربري المعتوه، ولم يمانع في أن يصيغ وجهه باللون الأسود.
- دقت الطبول وأعلن المدبر بدء العرض، ووقف قدموس فوق نصف عمود من الحجر متقمصًا دور الراوي، ثم ألقى مقدمة شعرية جذبت الانتباه، قال فيها:
- «هنا في مارسيليا،
حيث يتنفس العشاق السهر،
ويتعطر الليل بعبق السحر.
نبتت أيولا، زهرة القمر،
نبتت من ليل وعطر،
وموسيقى وشعر.
ومع ذلك، لم ير شكلها بشر،
ولم يتنسم عبيرها أحد؛
إذ حجبها صاحبها وقال:
«هذه زهرتي أنا،
سأفرض عليها الحصار،
ولن يمسها نهار!
سأجعل أنفاسها ليلاً،

وسماءها غيمًا،
ولن يراها غيري إنسان»
وذات ليلة،
انزاح الغمام
فكشف عن وجه القمر
رنت إليه في شوق
فهوى إليها في صمت،
ثم قبلها في عشق،
ففاح شذاها،

وتنسم الليل عبيرها
قالت: «خذني إليك.»
قال:

«كيف، وأنا أسير الظلام؟
ولكني أزورك في ليالي البدر،
فأناجيك بأحاديث العشق،
وأقبلك في كل شهر
قبلة من ضياء.»
وحين رأى صاحبها ما جرى،
اشتعل قلبه بالأذى،
قال: «من فعل هذا بزهرتي أنا؟»
ثم أتى بحارس من البرابرة، وقال:
«كل من يدنو من زهرتي يقتل!»

فتربص الأحمق ثلاثين ليلة،
وحين اكتمل القمر،
رآه يدنو منها،
يقبل تاجها،
ويداعب بتلاتها
فجرى نحوه كالمجنون، وقال:
«...»

توقف عن الإلقاء، وحينئذ، دخل نقفور إلى المسرح وهو يجري كالمعتوه وقد
ارتدى قميصًا قصيرًا يكشف عن بطن مهول تتوسطه سرّة عظيمة، وقد
صبغها باللون الأسود، وأخذ يصيح:

- ألقيت القبض عليك أيها العاشق الجبان وسأقتلك الآن!
انفجرت الساحة بالضحكات، فانتظر قدموس حتى عاد السكون ثم تابع:
«وظل المعتوه يحارب الضي

بسيف من خشب،
فما ناله سوى التعب.
فمد يده يريد أن ينزع الضي من حضنها،
فنزعها من أرضها.
شهقت أيولا، زهرة القمر،
ففاح شذاها وانتشر،
ثم ذبل ضياؤها واندثر.
فتراصت النجوم خلف القمر،
وأنشدن جميعًا بصوت القدر:
«عادت أيولا لحضن القمر»
وحينئذ خرجت الغانيات فوق المسرح وأنشدن بصوت شجي:

«عادت أيولا لحضن القمر،

عادت أيولا لحضن القمر»

انتهى العرض بتصفيق حاد، والتف الناس حوله يهنئونه، تقبل تهانيهم بعين زائغة، وبعد أن انصرف الناس وقف معه لينوس، وقال:

- لم أعلم أنك موهوب لهذه الدرجة يا قدموس، لقد أسرت قلوب الجماهير، وصرت شاعر مارسيليا الأشهر يا فتى.

ثم أردف:

- كنت أتلفت طيلة العرض من حولي، وأخشى أن أجد أنجوس يتربص بك!
ابتسم وقال:

- أظن أنه سيتربص بنقفور بعد الآن.

ابتعدا عن الأجورا وقبل أن ينصرف لينوس قال:

- قدموس، أريد أن أخبرك بشيء!

- ما هو؟

- لقد وافق المعلم بيثياس على القيام بالرحلة إلى أرض القصديرا!
قال مندهشًا:

- حقًا، يا له من رجل جريء!

صمت لينوس قليلًا ثم قال:

- وسوف أرافقه في تلك الرحلة!

(19)

القبة المخروطية

اقتربت سيارات الدفع الرباعي من قمة جبال القبة المخروطية بعد رحلة طويلة استغرقت عشر ساعات من مارسيليا إلى هناك. كنت أنا وهاجلند، وأحد الفنيين في سيارة واحدة. بينما كان لويي يجلس مع سائق المقطورة التي تقل المعدات والخيام وأجهزة الموجات الصوتية إلى موقع العمل. وكان من سوء حظي أن اخترت هاجلند لرفقة السيارة، فقد أفسد علي رغبتني في الهدوء، ولم يكف عن التثرثرة والحديث طيلة الرحلة. كان يتحدث بحماس عن كل شيء عن الشمس المشرقة في مارسيليا مقارنة بالشمس المحتجة أغلب العام في آيسلندا، الجبال الخضراء في فرنسا مقارنة بجبال آيسلندا المكسوة دائماً بالجليد. والمزعج، أنه كان لا يكتفي بحديث من جانب واحد فقط، بل كان يجذبني عنوة للحوار، بأسئلة كثيرة عن بلادي، تاريخها، أهلها، مع آمانياته بأن يحيا في بلد كمصر تسطع فيها الشمس طيلة العام ويتعاقب فيها الليل والنهار بصورة طبيعية. أغمضت عيني متظاهراً بالرغبة في الاسترخاء، ولكنه مع ذلك سألني:

- لماذا اخترت دراسة البراكين؟

قلت وأنا أثناء ب:

- أنا لم أختارها لقد ساقطني الأقدار لدراستها عنوة.

قال متعجباً

- هل لديكم براكين نشطة في مصر؟

- لا.

ضحك ضحكة هستيرية جعلتني أشعر بالاستفزاز وهو يقول:

- لا أتخيل أن جامعتك قد أرسلتك لدراسة البراكين وأنتم لا تعاونون من مشاكلها!

وربما شعر بضيقني، فتابع حديثه قائلاً:

- معذرة، ولكننا في آيسلندا نعاني من هذه المشكلة كثيرًا، فلدينا ما يزيد عن ثلاثين بركانًا نشطًا.

أتعلم أنه قد وقع خمسة وخمسون انفجارًا بركانيًا في آيسلندا خلال المائة عام الماضية، منها ثلاثة انفجارات فقط في العام الماضي؟

رفعت حاجبي دهشة، وسألته:

- وكيف تعيشون بجوار تلك المخاطر؟

قال في بساطة:

- اعتدنا على ذلك، تصالحنا مع الطبيعة، نتحمل نوبات غضبها، والآن نحاول أن نتوقع متى تغضب، ولهذا جئت إلى هنا.

تعجبت من اختلاف المشاكل في منطقتنا عن باقي شعوب العالم. في بلادنا تصالحت الطبيعة معنا، ولكننا لم نتصالح مع أنفسنا! سألته بفضول:

- وهل شاهدت انفجارًا بركانيًا من قبل؟

شمر ببنطاله، فرأيت آثار حرق كبير على ساقه، مطمورة بوشم ضخمة ثم تابع قائلاً:

- هذه جزء بسيط من آثار انفجار إحداها على جسدي.

أقشعر بدني حين رأيت ساقه وقلت:

- كيف حدث ذلك؟

تهدج صوته، وقال:

- أتذكر التاريخ وتفاصيل الحادثة وكأنها وقعت بالأمس. كنت في السادسة من عمري أعيش في قرية الصيادين في جزيرة ويستمان، جنوب آيسلندا. وكان أبي يمتلك عدة مراكب للصيد، ولدينا منزل جميل يطل على الساحل الذي يقابل جبل إيلدفييل. وذات يوم رأيت سحائب الدخان البيضاء تعلو الجبل فسألت أمي عنها مذعورًا، فقالت «لا تخف! إن الأرض تتنفس فقط، ولكنها ليست غاضبة!»، وعلمت حينها الأسطورة التي توارثناها من أجدادنا، التي تقول إن الآلهة حين خلقت الأرض جعلت أنفها في آيسلندا، وأن الأرض تتنفس من حين لآخر في أثناء نومها، فتخرج منها سحائب بيضاء، ولكنها حين تغضب تطلق دخانًا أسود، قبل أن تزفر الحمم من أنفها.

صمت قليلًا متأثرًا، ثم قال:

- لا ندري لماذا غضبت الأرض علينا فجأة ليلة الثالث والعشرين من شهر يناير عام 1973. ارتجت المدينة بصوت انفجار مهول ثم انبثقت الحمم من فوهة البركان بغير سابق إنذار. تساقطت الحمم في الميناء واحترقت معها عشرات السفن، من بينها مراكب أبي. وتسببت الحجارة المقذوفة في تدمير أربعمئة منزل وطمرتها تحت الغبار. أجلت قوات الإنقاذ سكان الحي، وكان منزلنا محاصرًا ببركة من المياه الحامضية التي تصل حرارتها إلى 70 درجة مئوية. وكنت أنا وأمي، وأختي عالقين بداخله. ظللنا نصرخ بينما كان أبي ورجال من الحي يحاولون صنع جسر من الخشب كي نعبر عليه، عبرت أختي أولاً، ثم حملتني أُمي لتعبر بي، ولكن فجأة انهار الجسر الخشبي، وسقطت أنا وأمي. شعرت بالآلام مهولة في ساقي، وجلدي ينكمش كشريحة لحم وضعت في زيت مغلي. كدت أفقد وعيي من الألم، وشعرت بيد رجل الإنقاذ تنتزعني في سرعة. لم يستغرق الأمر دقائق، ولكنها كانت كفيلة بأن ألزم الفراش لعدة أشهر، وأن أجري خمس جراحات تكميلية.

شعرت بشفقة شديدة عليه، وقلت:

- وماذا عن والدتك؟

انكسر صوته الجهوري وهو يقول:

- لم يحتمل جسدها الحامض الملتهب، فماتت.

ثم أردف في حقد حقيقي:

- حتى لو تصالحنا مع الطبيعة يا عمر، بيني وبين البراكين ثأر كبير!

توقفت السيارات أمام معمل أبحاث باسكال للطبيعة المقام فوق القبة المخروطية، نزلنا من السيارة، فوجدنا في استقبالنا مدام سيلين مديرة المركز، التي رحبت بنا، واستضافتنا في مكتبها، ثم قدمت لنا مشروبات دافئة وقطعًا من حلوى الماكرون. وبعد أن انتهينا قالت:

- أريدكم أن تلقوا نظرة عامة على المنطقة الجبلية التي ستعملون بها.

سرنا وراءها في الساحة الخلفية للمعمل العتيق المقام منذ القرن الثامن عشر، ثم وقفنا بجانب السور المعدني المطل على حافة الجبل. أحسست بالرهبة لرؤية السحاب المتداخل مع قمم الجبال العالية، والوديان العميقة التي تتلوى بين الجبال لتحكي قصص الرياح التي مرت بها والمياه التي

حفرتها. لا شك أن الطبيعة مخيفة، لكنه خوف مقرون بالدهشة والانبهار. أشارت السيدة إلى مدينة تبدو منازلها كقطع المكعبات الصغيرة، وتتوسطها كاتدرائية سوداء يشق برجها السماء وقالت:

- هذه مدينة كليرمونت أقرب منطقة سكنية لنا، المسافة ليست بعيدة فقط خمس عشرة دقيقة بالسيارة، كما توجد ممرات مشاة لمن يهوى منكم صعود الجبال. وأحب أن أقول لكم إن بليز باسكال نفسه، قد خرج من هذه المدينة ذات صباح وصعد سيرًا على الأقدام إلى هذا المكان الذي نقف عليه، ليضع لنا قانون باسكال عن تأثير الضغط الجوي على السوائل.

تبادلنا نظرات الدهشة وأطلق هاجلند صافرة إعجاب بغمه، قبل أن تنتقل بنا إلى جانب آخر من السفح، وتشير إلى جبل يعلوه بناء قديم وتقول:

- أما هذا الجبل، فنسميه الجبل المقدس! وهو يقع على طريق الحج الذي كان يسلكه الحجاج الرومان قديمًا، نحو مغرب الشمس. وقد أقيم عليه معبد ديني للإله عطارد.

سألتها باهتمام:

- طريق الحج؟

- نعم، كان الرومان ومن قبلهم الإغريق يعتقدون أن نهاية الأرض من جهة الغرب عند مدينة كيب فينستري الإسبانية، وكانوا يمرون في منتصف الطريق على هذا الجبل للعبادة قبل أن يكملوا مسيرهم إلى المدينة، ليروا آخر غروب للشمس على الأرض.

ثم اتجهنا إلى جهة أخرى، فأشارت السيدة إلى بحيرة زرقاء جميلة، يزيد قطرها عن نصف كيلومتر، وتحيط بها الجبال من كل جانب، وهي تقول:

- أما هذه البحيرة فهي بحيرة بافن، وسيكون معسكركم هناك.

ثم أردفت:

- هل تعرفون معنى بافن باللاتينية؟

أجاب لويي مبتسمًا:

- البحيرة المرعبة.

ابتسمت وقالت:

- بالضبط، فلا يخدعك هذا المنظر الجميل، فهذه البحيرة بحيرة بركانية وتدور حولها الكثير من الروايات المخيفة هنا!

سألها هاجلند في حماس:

- ما هي؟

- حسناً تقول الأسطورة إن الشيطان اختطف فتاة جميلة وأتى بها إلى هنا ليتزوجها، ولكن الفتاة وأهل القرية دعوا الرب لينقذها، فأتى ملاك الرب واسترد الفتاة، فجلس الشيطان في هذا المكان يبكي حتى ملأت دموعه الوادي وصنعت هذه البحيرة التي عاش بداخلها. وفي العصور الوسطى لاحظ الناس أن البحيرة تصدر أصواتاً في الليل، وأنها تقذف عليهم الحجارة في بداية كل عام، فقالوا إن السبب هو الشيطان القابع في البحيرة. ولهذا تدق أجراس كنيسة بيسي القديمة في منتصف ليلة الحادي والثلاثين من ديسمبر من كل عام لتخيف الشيطان القابع في البحيرة.

ابتسمنا، فقالت:

- بالطبع هي أسطورة، ولكن بها أشياء حقيقية! ستسمعون في الليل أصواتاً، وقد تقذف عليكم بعض الحجارة من البحيرة! بسبب انفجار غاز الميثان في القاع.

أدركت على الفور سبب رائحة الغاز التي كانت تملأ الجو.

أنهت المرأة حديثها فشكرناها، وبينما كان الجميع يتحرك تجاه السيارات، توجهت نحو السور، وتجولت بصري في الأفق ثم أخذت نفساً عميقاً، وتمتمت بصوت خافت:

- معمل للفيزياء، وجبل مقدس، وبحيرة للشيطان، يا له من تجمع مثير في مكان واحد!!

المواجهة

تلاحقت أنفاسها وهي تزحف في السرداب حاملة غرارة بها إرث أبيها، تراكم عليها الخوف وثقال عليها الوقت، كلما أوغلت في السرداب الذي بدا بلا نهاية. استعاد عقلها لحظات الرعب التي عاشتها في تلك الليلة كي تحفز جسدها على الصمود. كانت تدور في بيتها من القلق، ترتب الكلمات، وتنتظر عودة أبيها من المحاكمة، وقد عازمت أن تبدأ حوارًا جديدًا معه عن قدموس، كانت على يقين من أنه سيستمع إليها هذه المرة، بعد أن أخفق في تقديره لأنجوس. ستقول له صراحة إنها تحب ذلك الرجل، الذي تحمل من أجلها الإهانة مرتين. ستترجاه أن يختبره وهي على يقين من أنه سينجح في الاختبار. غربت الشمس، وانقضى شطر الليل، وهي تجلس في صحن البيت المكشوف تتطلع إلى القمر الشاحب في السماء منتظرة عودته لكنه لم يعد. غلبها النعاس وهي جالسة، وانزلقت في جب من الأحلام المتلاطمة، فجأة سمعت طرقًا على الباب، فتحت عينيها، وتلفتت حولها مفزوعة، ففتحت الباب فوجدت رسالة مطوية ألقاها أحدهم أمامها. فتحتها فوجدتها من سطر واحد: «أهربي الآن أو ستعيشين ذليلة للأبد». شعرت بالفزع، ذهبت إلى حجرتها فوجدت فراشه البارد كما هو. وقفت في صحن البيت متحيرة، ظنت أنها في حلم بغيض بسبب مشاعرها المثخنة بالخوف، ولكن الرسالة في يدها حقيقة! قررت أن تذهب إلى مبيته بالمدرسة، رغم تأخر الوقت. تناولت مشعلًا، ودلفت إلى السرداب، ثم أحكمت إغلاقه وراءها، سارت منحنية ببطء حتى وصلت إلى الحجرة السرية، دفعت الحجر الذي يفصل بين الحجرتين بجهد كبير، ثم ولجت من الفتحة لاهثة، ثبتت المشعل على الحائط، وحين استدارت هالها ما رأت. كان جسده متصلبًا وقد جحظت عيناه في رعب ارتعش فكها، وهي تدنو منه، وما إن وقع بصرها على وجهه الأزرق الذي انعكست عليه ظلال المشعل حتى صرخت صرخة مهولة كتمتها بيدها، سقطت على صدره تقبل وجهه، وتخضبه بدموعها الساخنة، لم تدر ماذا تفعل؟

هل تخرج إلى ساحة الحي وتصرخ؟ أم تعود إلى البيت وتنتظر مصيرها المعلق بيدي أنجوس؟ قررت أن تنجو بنفسها. الحل أن تهرب من الحي بإرثها. لو كان أبوها حيًا لأمرها بالهرب، وإلا لماذا صنع ذلك السرداب، ولماذا أطلعها على سره؟ جمعت برديات المعلم بيثاغورس، والمثلث العشري ورمح

أباريس الذهبي ووضعتها جميعًا في غرارة. ثم بدأت رحلة الهروب. ألقت بالغرارة في السرداب الواصل إلى الميناء، ثم شرعت تزحف خلفها كدودة تدفع أمامها وريقة شجر. بدا أن النفق المظلم لا نهاية له، تحملت ألم السحجات على جلدها وأنين عضلات ساقها المتقلصة، وشعرت بأنفاسها تزهق، ومع ذلك لم تتوقف للحظة عن الزحف حتى وصلت إلى نهاية النفق، انقلبت على ظهرها ثم ضمت ساقها وثنت ركبتها وبكل ما أوتيت من قوة، دفعت الحجر الذي يسد المخرج بقدميها فانزاح الحجر جانبًا ورأت أمامها صفحة القمر الشاحب يرنو إليها بشفقة من بين الغمام. خرجت من الفتحة بصعوبة، وملأت صدرها بالهواء البارد النقي، وما إن رأت الفضاء يحيط بها، حتى أفرغت صرخاتها التي كتمتها في أرجائه وسقطت فاقدة الوعي.

استيقظت على لسان يلعقها، ففتحت عينيها لتجد كلبًا يتشممها بخطم يسيل باللعب. نبج الكلب حين جفلت صارخة، فإذا بصوت ينهره من خلفها، فابتعد عنها. التفتت فرأته رجلًا رث الهيئة، أشعث الشعر واللحية يمتلأ وجهه بالبثور، وقد جلس القرفصاء، يعبث بأوراقها. وغرس رمح أباريس الذي انعكست عليه أضواء الفجر الأولى إلى جواره، قالت له في رجاء:

- أرجوك اترك هذه الأشياء فهي لن تفيدك.

لم يرد عليها وظل يقلب في محتويات الغرارة. اقتربت نحوه تريد أن تستخلص إرثها من بين يديه، ولكن الكلب نبج عليها محذرًا. فالتقطت رمح أباريس، ولوحت به مهددة. نقل الرجل بصره بينها وبين الكلب، وفي لمح البصر قفز الكلب نحوها، فعقر يدها، وسقط منها الرمح الذهبي، أمسكت ذراعها متألمة بينما قام الرجل من مكانه وسار نحوها وهو يعرج على قدمه النحيلة، التفت الرمح ثم مد يده نحو صدرها منتزعًا قلادة صدرها بقوة أَلَمَتها، وقبل أن ترفع صوتها بالصراخ عاجلها بضربة قوية من الرمح فوق رأسها، ترنحت لها ثم غابت عن الوعي وهي تتمتم: قدموس...!

لم يستطع النوم في تلك الليلة، ولم يدر هل بسبب حماسته التي لم تنطفئ بعد انتهاء العرض، أم من حديث لينوس معه. فحين أخبره لينوس بأمر الرحيل، شعر بالحزن، وبالخوف أيضًا، سأله:

- ألا تخشى السفر في بحر الظلمات؟

- ما دمت مع المعلم بيثياس، فلا أخشى شيئًا؟

- متى السفر؟

- لا يزال الوقت مبكرًا، يعد المعلم الخطة وسيعرضها على مجلس الشيوخ وعلى ليوفانوس رئيس الأكاديمية.

ابتسم قائلاً:

- أستم بحاجة إلى شاعر يجيد عصر الزيتون؟

- بل نحتاج إلى شاعر يكتب عنا تلك الملحمة.

ثم أردف:

- حين أعود، سوف أخبرك بالكثير من القصص التي ستلهب خيالك.

وصل إلى الميناء في ساعة مبكرة، فجلس مرتكئًا إلى صخرة على الشاطئ، وأخذ يراقب حركة الموج أمامه. ما أشبه الحياة بذلك الميناء! مد وجزر، ذهاب وإياب، لقاء ووداع، الكل عنه راحل يتساوى في ذلك الكاسب والخاسر.

انتبه على هميس خف يقرع حصى الشاطئ بإيقاع رتيب. نظر إلى مصدر الصوت فوجده مشردًا يغمز في مشيه، ويتدلى من وراء ظهره زنبيل منتفخ، ويسير خلفه كلب، يتشمم حصى الشاطئ ويلتقط بلسانه بعض الرخويات التي قذفتها الموج. مسح عن عينيه النوم، وتابع الرجل، ببصره. رآه يقف أمام خباء مهجور، نادى على من فيه، فخرجت منه امرأة لا تقل قذارة عنه. جلسا، ثم وضع الرجل الزنبيل بين ساقيه المنفرجتين وأخذ يتفقد محتواه. تعجب، حينما رآه يخرج أشياء متنوعة، صواعًا من البرونز، وفأسًا من الخشب، وركوة من الجلد، وضعها أمامه بغير اكتراث، قبل أن تلمع عيناه إثارة وهو يخرج رمحًا قصيرًا من الذهب، أمسكه بين يديه ثم قبله في سعادة، والمرأة تصفق من الفرح. تأكد أن الرجل لص، ولكنه تحير، ماذا يفعل، هل يتركه لحال سبيله، أم يتتبعه. فجأة أخرج الرجل قلادة بسطها بين أصابعه وظل ينظر إليها وهو لا يزال على نشوته، فشبهت المرأة، وأحنت عنقها ليلبسها القلادة. مسح قدموس عينيه مرتين ليتأكد مما يراه. القلادة تنتهي بنجمة خماسية. خفق قلبه بشدة. ولم يتمالك نفسه، انطلق نحو الرجل وهو يقول:

- أيها اللص سوف أسلمك إلى رجال الشرطة.

صرخت المرأة، بينما فزع الرجل، وألقى بالأشياء من يده، بينما نبج الكلب وحاول الهجوم عليه، دفع الكلب بقدمه، ثم عاجله بضربة حجر أصابت عجزته، وجعلته يتعد عنه وهو يعرج كصاحبه، ويصرخ بنباح كالمواء. هربت

المرأة بينما تراجع اللص زاحفًا على مقعدته أمام هجمته المفاجئة، فأمسك بتلابيبه في قوة، ورفعته إليه وهو يقول:

- من أين أتيت بهذه القلادة؟

أرغى الرجل، بكلام غير مفهوم، فشدد قبضته على عنقه وهو يقول:

- قلت لك كيف حصلت عليها.

احتقن وجه الرجل وشعر بأنه سيختنق، فقال كلمة واحدة كررها مرتين حتى يتخلص من قبضة مهاجمه:

- امرأة، امرأة.

أرغى قدموس يده، ثم قال له:

- أين هي؟

لقف الرجل أنفاسه، ثم أشار غربًا وقال:

- فوق تلك الربوة.

رفعه قدموس عن الأرض بيده، ثم ضم قبضته أمام وجهه وهو يقول:

- خذني إليها.

ثبت الرجل في مكانه، ثم أغمض عينيه وهو يتحاشى قبضة قدموس المتأهبة أمام وجهه وقال متلعثما:

- لقد ماتت.

لم تسقط اللكمة التي كان يتوقعها على وجهه، بل سقطت يد قدموس التي كانت تمسك بعنقه، إلى جواره، وتهدلت كتفاه وهو يقول في ذهول:

- ماتت!

زاغت عيناه وخارت ساقاه، التفت نحو الربوة، ثم سقط على ركبتيه غير مصدق، ماتت محبوبته وهي على بعد خطوات منه. ماتت زهرته من دون أن يقبلها للمرة الأخيرة. التفت نحو الرجل ليقول: «خذني إليها»، فإذا بالرجل يرفع رمح أباريس، ويهوي به على رأسه.

أنجته ردة فعله من إصابة قاتلة، حين انحنى قليلاً فسقط الرمح على كتفه. صرخ من الألم، وهو يبتعد عن الرجل الذي رفع الرمح مرة أخرى وهم بأن

يسدد له ضربة أخرى قاتلة، ولكن فجأة شق الهواء سهم استقر في صدر الرجل، الذي جحظت عيناه ثم سقط أرضًا منكفئًا على وجهه. وحين عوى كلبه مهددًا، استقر سهم آخر في رأسه، فسقط إلى جوار صاحبه. استدار قدموس ليرى منقذه، فإذا به أنجوس ومعه اثنان من البرابرة يهرولان نحوه!

كان يشعر بالمدلة في كل مرة يدخل فيها إلى حي الإخوة، ولكن هذه المرة كانت الأكثر إذلالًا. قيده أنجوس ورجاله، من خلاف وأحاطوا عنقه بحبل سميك أدمى جلده، وهم يجذبونه بقوة إلى الساحة التي التف حول محيطها أهل الحي، وصنعوا دائرة مكدسة بالبشر، توقف أنجوس في منتصفها، ثم ألقي زنبيلًا انفتح على الأرض ليظهر مخطوطات المعلم بيثاغورس، والمثلث العشري، ورمح أباريس الذهبي. صرخ أهل الحي في دهشة، بينما اتسعت عينا أركانسو وهو ينظر إلى الأشياء التي أخفاها أنوسطس لسنين حتى ظنوا أنها وهم ادّعى اقتناؤه. ولم يفوت أنجوس الفرصة ليصنع مجددًا، قال بصوت جهوري:

- يا إخوة بيثاغورس لقد أقسم أنجوس أن يحمي الجماعة وأن يكون ذراعها الطولى التي تبطلش بمن يحاول أن يعتدي عليها. وفي كل مرة كان أنجوس يبر بقسمه.

ثم التفت إلى قدموس باحتقار، وقال:

- لقد رأيتم ذلك اللص من قبل وهو يحوم حول الحي، ولولا سماحة المعلم أنوسطس لفتكت به حينها. ولكن هذا الحقير قد عاد مرة أخرى ليسرق إرث بيثاغورس، إرثه الذي يعني لنا الشرف والعزة والمجد، فماذا ترون في أمره يا أتباع بيثاغورس؟

صرخت الجماهير في صوت واحد:

- القتل! القتل! القتل!

رفع أنجوس كفه لكي يسكت الجماهير ثم قال:

- ولكن هذا الوغد قد اختطف ابنة معلمكم أنوسطس ولا يريد أن يقر بمكانها، فماذا نفعل به؟

أطلقت الجماهير العنان للشر، ونسوا في ذروة نشوتهم تعاليم بيثاغورس التي تدم العقوبات الجسدية، وتباروا في اختيار العقوبة:

- نحرق لسانه!

- نفقأ عينه!

- نقطع يديه!

أشار أنجوس بيده، وقال:

- ولكنني أرى شيئاً آخر. أن نصلبه على تلك الشجرة أمام ساحة الحي، فإما أن يقر بمكانها، أو تأكله الطير الجوارح وهو حي.

هتفت الجماهير:

- الصلب، الصلب، الصلب.

أدرك أركانسو أن أنجوس قد فك زمام الشر في الجماعة، فرفع يديه ليسكت الجماهير وقال:

- يا إخوة بيثاغورس، إن الجماعة مدينة بالفضل لابنها البار أنجوس، ونحن على يقين من أنه سيعيد ابنة المعلم كما أعاد إرث بيثاغورس، ولكن دعوا الحكم على ذلك المعتدي لمجلس الدعاة، فهؤلاء هم المنوط بهم إصدار أحكام القضاء من دون غضب ولا رغبة في الانتقام.

هدأت حماسة الجماهير أمام كلمات أركانسو، الذي تابع كي يعيد الهدوء، ويفض الجمع:

- اذهبوا الآن وتفكروا كم كان المعلم الأكبر رؤوفاً بنا، حين ترك لنا ذلك الإرث لتفكر فيه، ونتدبر تعاليمه، وحين تنتهوا ألبسوا الأطفال أفضل الملابس، وتغنوا بأنشودة المجد لمن أعطانا دليلاً.

انصرف الناس تباعاً، وأشار أركانسو إلى الحارسين الممسكين بقديموس قائلاً:

- اذهبا به إلى المدرسة، واحبساه في القبو.

ثم جذب أنجوس من يده، وذهب به إلى بيته، وحين دلفا قال:

- أحسنت يا أنجوس في إعادة المسروقات، ولكن ما كان ينبغي أن تأتي بالرجل إلى هنا!

قال مستنكراً:

- وهل أترك له أيولاً؟

رد عليه في حلق:

- فليأكلها الطير كأبيها! أعدّ العدة، نريد أن نرحل إلى ساموس!

قال في غضب:

- اسمع يا أركانسو، لن أرحل بغير أيولا!

خفف من حدته حتى لا يغضبه، وقال:

- اسمع أنت يا أنجوس، سيثير ما فعلته الناس في مارسيليا، فلا يحق أن تفعل ذلك مع رجل مارسيلي، نريد أن نرحل في سرية، وألا يعلم أحد شيئاً عن خططنا.

زفر في تبرم، ثم أخرج من جيبه ورقة بردي وقال:

- بل يحق لي قتله دفاعاً عن الشرف، لقد فضحنا المتهتك على مسرح الأجورا أمس! وأنا على يقين من أنه يخفيها.

تمعن أركانسو في الورقة التي رسمت عليها صورة أيولا، وكتب تحتها: «مأساة أيولا زهرة القمر»، ثم قال:

- لو كانت عنده ما فعل ذلك!

فجأة، صدرت جلبة كبيرة في الحي، خرجا مسرعين فوجدا فرقة من جنود مارسيليا أثارت حوافر خيلها سحابة من الغبار ملأت سماء الحي. اندفع أركانسو نحو قائدهم وقال:

- خيرًا أيها القائد، لم يحدث أن غشيت فرقة من جنود مارسيليا حي الإخوة بهذه الطريقة.

قال القائد في صرامة:

- أنتم متهمون بختف الشاعر قدموس!

قال أركانسو:

- ومن الذي يتهمنا؟

فجأة ظهر لينوس ومعه نقفور، وهما يشقان طريقهما بين الجنود، وجاء صوت لينوس قويًا عاليًا وهو يقول:

- أنا يا أركانسو!

وعقب عليه نقفور قائلاً:

- وأنا أشهد على ذلك!

نفرت العروق في عنق أنجوس وقال:

- تقصد قبضنا على لص سرق خزائننا وخطف ابنة معلمنا!

قال الجندي:

- إذن فأنتم تعترفون بخطفه!

قال أركانسو متلجلجاً:

- كنا سنسلمه للشرطة أيها القائد، ولكنكم تعجلتم المجيء!

- ومن سمح لكم بأسره؟!

قال أنجوس:

- لقد كانت المسروقات معه!

قال الجندي:

- لقد اعترفت زوجة المشرّد بأن زوجها سرق فتاة فجر أمس، ثم قتلها!

شهق أنجوس، وقد ارتعش جفنه، وقال:

- قتلها!

- نعم، وهذا يعني أن الشاعر قدموس بريء وأنت ستحاكم.

قال أركانسو وهو يرفع سبابته:

- أذكرك أيها الجندي أن الإخوة لهم قانونهم الخاص ولا يجوز التدخل في شؤونهم إلا بموافقة مجلس الشيوخ.

- هذا لو كان الأمر يتعلق بكم يا سيدي، ولكن الشكوى مقدمة من مواطن من أهل مارسيليا.

خطفتموه وأذيتموه.

قال نقفور:

- ورجل آخر مشرد قام بقتله!

- ستسقط التهمة عن قتل المشرّد، ما دام قد ثبت أنه لص طبقًا لقانون مارسيليا.

قال أركانسو محاولًا احتواء الموقف:

- سيدي الجندي، نحن لم نخطفه أو نخفه، لقد احتجزناه فقط لحين مثوله بين أيديكم.

قال الجندي في حسم:

- أين هو؟

ازدرد أركانسو لعبه، ثم أشار إلى الحارسين، فذهبا إلى المدرسة، وعادا بقدموس مقيّدًا بالحبال، وقد أدمى عنقه وتلطّخ وجهه بالكدمات. انفطر قلب لينوس حين رأى أخاه الأصغر على تلك الهيئة، وصرخ في هلع:

- قدموس.

ثم هرول نحوه واحتضنه، فكّ الحبال عن عنقه ويديه وهو يبكي شعور الإهانة الذي لحق بأخيه. بينما قال قائد الجند في غضب:

- هيا يا سيد أنجوس، ستمثل أمام قاضي مارسيليا للمحاكمة.

احتج أركانسو مرة أخرى، وقال:

- أنت تخالف قانون مارسيليا أيها الجندي، دعني أتحدث إلى قاضي القضاة أولاً.

علا اللغط والجدل بينهما إلى أن قطعه صوت لينوس وهو يقول:

- عفواً أيها الجندي، أنا أرفض محاكمة السيد أنجوس.

نظر إليه الجميع في دهشة، فأردف:

- أنا أطلب نزاله دفاعًا عن الشرف، في مبارزة حتى الموت.

ثم أردف في حسم:

- الآن.

لم يشهد حي الإخوة نزالاً كهذا. تحلق الناس في دائرة كبيرة حول الساحة ليشهدوا أول قتال في حياتهم. فعلى مدار عقود لم تقم في تلك الساحة سوى مبارزات الغناء، ومنافسات الشعر والموسيقى. اكتظت الساحة بالحضور ووقف من لم يجد مكاناً له فوق أسطح المنازل وفي شرفات الدور. تسليح كلا الخصمين بسيف وغدارة، وفي حين رفض أنجوس أن يمسك درعاً في يده، أحاط لينوس ذراعه بدرع من الخشب. وقف الشرطي بينهما وتلا عليهما قواعد النزال. يتوقف القتال إذا حل الليل من دون أن يُهزم أحد، عقوبة الخسارة هي الموت، ومن سقط جريحاً ولم يقو على القتال، يطعنه الآخر طعنة مباشرة في القلب بغير تمثيل بالجسد ولا نبش للعينين. وإذا طلب المهزوم العفو، يستجيب له المنتصر بعد أن يوسم خده بوشم الخزي.

تواجه الخصمان بعينين تملأهما الكراهية، باعد لينوس بين ساقيه، ووقف منحنيًا، قابضًا على يد حسامه منتظرًا إشارة البدء بينما وقف أنجوس على الجهة المقابلة منتصب الهامة، ومصوبًا بصره على عنق لينوس النافرة بالعروق. أعلن الشرطي بدء النزال، فجرى لينوس نحو غريمه في سرعة، ثم هوى بالسيف على نحره، ولكن الأخير صدها بنصله وأعقبها بضربات قوية متتابعة، تشقق لها درع لينوس، الذي انفلق إلى نصفين. ألقى لينوس بالدرع المكسور أرضًا ووقف مكشوف الصدر متحديًا خصمه. لم يشعر قدموس بالخوف في حياته، قدر خوفه في تلك اللحظات، مرت على رأسه ذكريات كان لينوس يجبر فيها ضعفه أمام الآخرين حين يتعارك من أجله، ولكن اليوم يقدم لينوس حياته فداء له، تشبث بذراع نففور، وهو يشعر بكل ضربة من سيف أنجوس تشطر روحه إلى نصفين. أفاق على قعقة النصلين المتشابكين في الجولة الثانية، لم يتخيل أن أخاه يجيد القتال إلى هذه الدرجة، وربما اندهش أنجوس هو الآخر من خفة لينوس وسرعة ضرباته، التي بذل جهدًا في تفاديها، وحين شج سيف لينوس كتفه الأيسر، وسالت الدماء منه، صرخ صرخة عظيمة، تأوهت لها الجماهير، وخفق لها قلب قدموس. لم تكن صرخة ألم، وإنما صرخة غضب، انقض بعدها على لينوس بسيفه، ضرب وطوح وطعن ولوح، وهوى بنصله مرات عديدة يريد عنقه. ارتعشت يد لينوس تحت وطأة ضربات أنجوس القوية والمتتابعة، وفي لحظة ضعف، طار السيف من يده، ليس وحده، وإنما بكفه التي بترت من معصمها. صرخ لينوس في ألم، وصرخ قدموس في هلع، وصرخت الجماهير التي لم تر عنقًا كهذا في رعب. اندفع قدموس نحو أخيه، الذي كان يتلوى نازقًا، ولكن الحراس أمسكوا به ومنعوه من دخول الحلبة. وقف أنجوس منتشيًا، وهو يرفع سيفه عاليًا منتظرًا هتافات الجماهير له بالنصر، ولكنه فوجئ بأحد الجماهير، يهتف قائلاً:

- الرحمة.

وتبعه باقي الجماهير:

- الرحمة .. الرحمة .. الرحمة.

تقدم قائد الحرس من لينوس الذي كان ممددًا على الأرض، وهو يمسك ساعده النازف بيده الأخرى، وقال برفق:

- هل تطلب العفو من أنجوس؟

التفت برأسه نحو قدموس، رآه يهز رأسه برجاء وكأنه يحثه على القبول، تفرقت الدموع في عينيه، كان يتمنى ألا يخذل أخاه، ولكنه لا يستطيع أن يعيش موسومًا بعلامة الخزي. أطبق جفنيه على دموع الفراق وقال في صوت واهن:

- كلا أيها الشرطي!

وبعد أن شق سيف أنجوس قلبه، سمع صوت أخيه وهو يصرخ:

- لينوس!

(21)

بحيرة الشيطان

تنقلنا بسيارات الدفع الرباعي المحملة بأجهزة الموجات الصوتية، من بقعة إلى أخرى لعمل مسح حول البحيرة، لتحديد عمق الطبقة الغازية بواسطة جهاز الموجات الصوتية الذي عايرته، كان الجهاز يرسل دقات عالية من الموجات الصوتية تُستقبل في المجسات المزروعة حول البحيرة. وبعد بضعة أيام من المحاولة، فشلنا في تسجيل أية نتائج، فقد كانت الموجات التي نرسلها تذهب سدى في باطن الأرض، ولا يرتد منها شيء، وكأننا نصرخ في أذن مارد أصم. أصابنا الإحباط، وكان رأي لويي أن مقدار الطاقة الذي حسبته غير كافٍ، وأنها حقًا سنحتاج إلى أجهزة موجات صوتية أخرى بطاقة أكبر حتى نستطيع أن نصل إلى عمق أبعد. شعرت بالضيق ووجدت في كلماته لومًا على خطأ مني في المعايير، رغم أنه لم يقل ذلك. وتفتق ذهني عن اقتراح كان فيه بعض المخاطرة،

فقلت:

- لماذا لا نقوم بالمسح في قاع البحيرة بدلًا من التربة؟

هز لويي رأسه رافضًا الاقتراح وقال:

- سيتلف الجهاز لو أنزلناه إلى البحيرة.

ثم قال في بساطة، من دون شعور بالأسف على ضياع الوقت والجهد:

- سنسجل في البحث فشل التجربة، ونعيدها مرة أخرى بطاقة أكبر.

قال هاجلند بعد تفكير:

- أظن أن اقتراح عمر جيد من الناحية الجيولوجية!

قال لويي باهتمام:

- كيف؟

- البحيرة عمقها صغير، كما أنها تقع فوق منفذ رئيسي للبركان، وهذا سيجعل الموجات ترتد إلى المجسات من دون أن تفقد طاقتها في صخور التربة الصلدة.

تفكر لوبي قليلاً ثم سأله:

- وماذا عن سلامة الأجهزة؟

قال هاجلند ببساطة:

- يمكننا تغليفها جيداً بأكياس مقاومة للماء.

في اليوم التالي كنت أقف أنا وأحد الفنيين فوق سطح مركب خشبي صغير في منتصف بحيرة بافن، أمسك بسلك طويل يتدلى منه مسبار الموجات الصوتية الذي غلفناه جيداً بأكياس مقاومة للماء، أنزلنا المسبار إلى أقصى عمق ممكن داخل البحيرة بينما كان لوبي، وهاجلند يجلسان على الشاطئ خلف شاشات الحاسوب، يراقبان الإشارات المرتدة التي تلتقطها المجسات المزروعة حول البحيرة. لا أدري لماذا تذكرت أسطورة شيطان البحيرة حينها، فابتسمت وأنا أقول للفني:

- أتمنى ألا نزعج الشيطان القابع أسفل البحيرة!

ضحك ثم أدار زر تشغيل الجهاز، وقال:

- سنرى.

نظرت نحو الشاطئ، وكان لوبي وهاجلند يتابعان شاشة الحاسوب باهتمام، كان من الواضح أن الإشارات التي وصلت غير كافية، فأشار لوبي إلينا كي نرفع مقدار الطاقة. أدار الفني مؤشر الطاقة لأعلى، فأصدر الجهاز طنيناً عالياً تداخل مع سماعتي، فخلعتها عن أذني ووضعتها في جيبتي. ترقبت النتيجة بقلق، وبعد مرور دقائق، صفق هاجلند بيده، وأطلق صفيراً، ثم قام ملوفاً لنا في سعادة، وهو يرفع إبهامه لأعلى. التفئت نحو الفني، وأنا أقول له في فخر:

- لقد كان اقتراحاً جيداً أن نضع المسبار في البحيرة.

كررنا التجربة عدة مرات، وكان لوبي في كل مرة يطلب منا رفع الطاقة إلى مستوى أعلى و ينتظر حتى تصله الإشارات ثم يسجلها، حتى وصل مؤشر الجهاز إلى أقصى مداه. اشتد طنين الجهاز حين وصل المؤشر لنهايته ورددت الجبال صدى الصوت، ولم أعد قادراً على سماع الفني الذي يرافقني، فاكتفيت بلغة الإشارات بيني وبينه. لاحظت سرباً من الطير يحلق فوقنا وكأنه يشاركنا الفرحة، فشعرت بالامتنان للطبيعة الأم التي منحتنا اليوم جزءاً من أسرارها. فجأة رأيت سرب الطير ينسحب بعيداً حين ارتج المكان بصوت مخيف اهتز معه المركب، نظرت إلى سطح الماء فرأيت فقاقيع هواء تطفو

على سطح الماء وكأن أحدهم يتنفس في سرعة، اشتد الصوت في أذني، ورن صداه بداخلي كيوم فقدت سمعي، شعرت بألم يشق رأسي إلى نصفين ودوار يكاد يسقطني، تكاثف الغمام أمام عيني فحال بيني وبين رؤية لوبي وهاجلند، وسطعتني رائحة الكبريت. التفتُ لأنادي الفني، لكنني وجدته ساقطاً في قعر المركب، لا يحرك ساكناً، سرى الخدر في رأسي، وترنحت، فتشبثت بسور المركب حتى لا أسقط في الماء، رأيت وجوهاً كثيرة تطفو على السطح، رأيت وجه أبي، وأمي، والشيخ حسونة، وعمي منير، شعرت بلسعات عصا أبي فوق ظهري، فوضعت يدي على أذني كي أحميها، فجأة رأيته يشق طريقه، ويدنو من السطح في سرعة، أطاح بكل الوجوه التي أعرفها ومد ذراعيه وكأنه أتى من أجلي، وقبل أن أصرخ: «لقد خرج شيطان البحيرة» وقع انفجار ثان أطاح بي وألقاني فوق المركب.

اقتنص الوعي من إغمائي ومضات شعرت معها بالآلام مبرحة في ذراعي المكبلة بجبيرة بلاستيكية، فتحت عيني لأجد نفسي مستلقياً على سرير في حجرة منخفضة الإضاءة، ويقف إلى جوارِي شاب يثبت في وريدي أنبوباً ينساب بداخله محلول. تلقتُ حولي مندهشاً وقلت:

- أين أنا؟

- في مستشفى كليرمونت!

عاودني الصداق مرة أخرى، تحسست ساعدي المكبل بالجبيرة، وقلت متألماً:

- ماذا حدث؟

- كسر بسيط من جراء الانفجار.

قلت في ذعر:

- كسر، وانفجار؟!

- لا تقلق كل شيء على ما يرام. حاول أن تستريح الآن.

ثم حقن سائلاً في المحلول المتصل بوريدي وقال:

- سيخبرك الطبيب بكل التفاصيل، وسيساعدك هذا السائل على النوم.

ثم خرج، مغلقاً وراءه الباب، وبالفعل، لم يمض وقت طويل حتى نمت، وفي غياهب النوم، انفتحت مخاوفي مرة أخرى على أفق معتم يموج بأشباح عائلتي، رأيته أسير في وعي مضطرب، أشعر بثقل الهواء في صدري، ورائحة النار والكبريت تملآن أنفي، ودوي الانفجارات يمزق الأرض من تحتي

بأخايد كالجروح. فجأة نبضت السماء فوقى بوهج أحمر غريب، هرولت باحثًا عن مخرج، أعبر منه إلى يقظة آمنة، ولكن فجأة انفجر ذلك الوهج، وغشي السماء دخان بدا ككفن رمادي مهول. عجزت عن الهرب فانكمشت مستلقًا، ورفعت رأسي مستجيرًا بالسماء المحتجة خلف الدخان، ثم صرخت بأعلى صوت: «يا الله».

في اليوم التالي عرفت تفاصيل ما حدث، أخبرني لويي بأن الطاقة العالية المنبعثة من مسبار الموجات الصوتية تسببت في انفجار جيب يمتلئ بغاز الميثان في قاع البحيرة. ومن حسن الحظ أن الانفجار كان محدودًا. ولكن الغازات المنبعثة تسببت في فقدانى الوعي أنا والفني. ثم قال آسفًا وكأنه يشعر بمسؤوليته عما حدث:

- كان ينبغي أن أرفض نزولكما إلى البحيرة.

قلت مهوئًا:

- لا بأس، هل الفني بخير؟

- نعم، وخرج من المستشفى أمس.

- وهل حصلتم على نتائج جيدة؟

- بل نتائج رائعة.

- حقًا؟

- نعم، جعل الانفجار التجربة تحاكي الحقيقة، واستطعنا تسجيل عمق الجيب المنفجر ومكانه.

ثم أردف:

- أخبرت دكتور سلطان بما حدث، وطلب أن نكتفي بالنتائج التي حصلنا عليها من القبة المخروطية. ومنحك إجازة شهرًا حتى أعياد الكريسماس.

شعرت بعزاء من هذه الأخبار الجيدة، فأحيانًا تحمل المصادفات السيئة جوانب مشرقة، فقد حققنا النتائج المطلوبة سريعًا، وأنهينا التجربة في وقت أقصر مما هو مطلوب، ومنحني البقاء في المستشفى وقتًا أنجزت فيه بعض الأمور التي كنت مشغولًا عنها. هاتف دكتور صوّان رئيس القسم، وطمأنته على سير البحث، وكتبت خطابًا لصديقي أحمد عقل الذي انقطعت صلتى به منذ سافرت، ثم حادثت أمي محادثة طويلة، أخبرتني فيها بأنها رأتني في

المنام ثلاث مرات متفرقات، وكانت فيها مضطربًا. تعجبت، من إحساسها، فرؤيا أمي دومًا حق لدرجة تثير المخاوف.

مرات عديدة، ولكن أخوفها كان قبيل وفاة أبي، حين رآته في المنام يشتري حقائب سفر، فمات الرجل في سريره بعدها بأيام بغير مرض ولا علة. طمأنتها مصدقًا على ما تقول بضغوط العمل، من دون أن أخبرها عن الحادثة. سألتها عن أمل، فوشى صوتها ببعض الضيق وقالت:

- تقيم عندي في البيت.

ثم علمت أن الخلافات تجددت بين أمل وزوجها بعد أن وضعت طفلتها الرابعة، وزادت الخلافات حدة، بعد أن رشح مندور نفسه في انتخابات مجلس الشعب وصار منشغلًا بجولاته الانتخابية مع أفراد جماعته. تعجبت من أن يكون مندور عضوًا في مجلس الشعب، وأسفت على حال بلادي، التي أصابها خرق في منطقتها ما زال يتمدد ويتسع كقارب يوشك على الغرق. وتيقنت من أن قراري بالسفر كان قرار نجاة. ودعنتي أمي في نهاية المكالمة وهي تكرر أمانيتها الثلاث؛ العودة العاجلة، والزواج، والذرية الصالحة التي تتمنى رؤيتها قبل أن تموت. فخطر لي أن أمارحها قائلًا:

- من يدري، ألا يمكن أن أفاجئك بزوجة فرنسية؟

لم ترد. فتابعته مازحًا:

- امرأة شقراء، تنجب لك أحفادًا بعيون خضر، تفاخرين بهم أهل البلدة؟

فإذا بالصمت بيننا يطول أكثر، حتى ظننت انقطاع الخط، إلى أن قالت بصوت كاسف:

- أجنبية؟! هل تريد أن تكسر قلبي يا عمر؟

- لماذا يا أمي؟

- ابن معلم القرآن، يتزوج من أجنبية لا نعرف لها أصلًا ولا دينًا. هل تريد أن تخذل أباك في قبره؟

انزعجت وقبل أن أناقشها قالت:

- إياك يا عمر، إياك. ستكون خيبة أكبر من خيبة عمك منير. نساء البلدة يتساءلن متى يتزوج عمر؟ وأقول لهن بافتخار: بعد أن يحصل على الشهادة من فرنسا! أرى في عيونهن الطمع، وأستمتع به. حتى زوجة خالك عثمان،

التي تتعالى على الجميع، تُعرّض بابتها مريم وتقول إنها تتابع النشرة الجوية لتعرف درجات الحرارة في فرنسا من أجلك.

صمتت ثم أردفت:

- أتعلم يا عمر؟ لو كتب الله لك الزواج من مريم، لارتاح قلبي واطمأن عليك!

تذكرت آخر مرة رأيت فيها مريم، وكانت تجدل صغيرتها، وتحمل حقيبتها المدرسية على ظهرها، ابتسمت وأنا أقول:

- مريم؟! أليست في المدرسة؟

- لقد دخلت الجامعة هذا العام.

هزرت رأسي ضاحكًا في خفوت، وأنا أعقد مقارنة في ذهني بين امرأة مثل أبريل تملأ حياتي، وبين مريم التي تتابع درجات الحرارة من أجلي، ثم قلت:

- كل شيء بميقات يا أمي، مع السلامة.

عزيزي أحمد عقل

ربما أراك الآن في مخيلتي تجلس على المقهى عاقداً ساقيك، تقرأ رسالتي بعين مبتسمة، وتنفث حروفها مع دخان المعسل الذي أفتقد رائحته، وتقول ما الذي ذكره بي بعد مرور عام أو يزيد؟ والحقيقة يا صديقي أنك لم تغادر مخيلتي يوماً واحداً طيلة السنة الماضية. ففي كل مرة أقف فيها حائراً على عتبات المقارنة بين عالمين، أحدهما يضطرب بالعشوائية، والآخر يضطرب بالدهشة، أتذكرك، وأتمنى لو أفصحت لك عن كل انطباع في حينه وعلى حدة، ولكنني كنت أرجئ الحكم على انطباعاتي حتى تهدأ فورة الانبهار، ويخبو زبد الدهشة. فكل شيء هنا يؤكد أن مريضنا الذي يعيش في غيبوبة ويحتاج إلى محفزات للوعي كي يعود للحياة، من الأفضل له أن يموت! فلا جدوى من عودته إلى الحياة بعجز دائم، وعلة لا تبرأ. ولولا أنك طبيب تقسم على علاج مرضاك، لدعوتك لترك قوانين الطبيعة لتأخذ مجراها، فالطبيعة لا تحابي العجزة والضعفاء وتنتخب من بينهم الأفضل والأقوى. ولكنني قرأت مؤخراً مقالاً علمياً عن نظرية الفوضى المنتظمة، التي تحكم الكون، فمنحتني بعض الأمل. وأردت أن أشاركها معك. هل تعلم أن كل الظواهر العشوائية التي

تحيط بنا، هي في مضمونها عشوائية منتظمة. وأن رفة لجناح فراشة في الغرب قد تكون سبباً في وقوع إعصار في الشرق بعد مئات السنين. إنهم يسمونها هنا نظرية تأثير الفراشة وحين قرأتها تساءلت: هل نبش أظافر المصلحين أمثالك، على سطح الواقع المتجمد، قد يؤتي أثره ولو بعد حين، أم أن العشوائية التي نحيها ستفضي إلى كارثة تجهز على المريض الواقف على حافة الموت؟

وبمناسبة الموت، لقد تعرضت لحادث تسمم بغاز الميثان منذ أيام، برئت منه، ولكنه خلف أثراً أحتاج إلى مشورتك فيه. فمِنذ وقع الحادث لم تفارق أنفي رائحة الكبريت التي تبدو كرائحة بارود يحترق. استشرت الأطباء هنا فلم يجدوا تفسيراً سوى أنها وهم من أثر الصدمة النفسية للحادث، رغم أنني أشعر بالرائحة تحرق أنفي. فقل لي يا صديقي العزيز، هل يمكن أن تخوننا الحواس إلى هذه الدرجة وتقودنا إلى وعي زائف؟ أم أن هناك من الطب ما يفسر ذلك الشعور؟

صديقك: عمر القداح

المصير

كان يقرأ في أشعار سابقيه أن المصائر تتبدل كما يتغير وجه البحر، فتكون هادئة تارة، وعاصفة تارة أخرى، وأن آلهة القدر تمسك بأيديها بمصائر البشر لتغزل منها ثوب الحياة. وفوق تلة دوميذ، نسجت له الأقدار ثوبًا جديدًا، فُتِلَ نسيجه من خيطين فقط، الفقد والحزن. في تلك الليلة التي غام فيها القمر حمل جثمان لينوس على عربة أحضرها نقفور، وصعد بها إلى التلة وهو لا يعرف ماذا يفعل بجثمان أخيه! كل ما يعرفه عن تجهيز الموتى أن الميت يحرق، أو يدفن، ولكنه كان يكره طقوس الحرق ولا يزال جسده ينتفض كلما تذكر والده وهو يحرق جثمان والدته بعد موتها. أخبره نقفور بأنه سيتولى الأمر، فهو يعرف حفارًا متمرسًا للقبور، كما وعده بتجهيز موكب من النائحات، وعربة يجرها ثور للطواف بالجنائز على المدينة في الصباح، ولكنه ما إن وصل إلى بيته حتى فوجئ بالمعلم بيثياس يصعد إليه، ومعه عدد من زملاء لينوس، وقد ارتدوا ملابس بيضاء، وحملوا بأيديهم المباخر والشموع وأكاليل الزيتون. فاضت عيناه بالدمع، حين ضمه المعلم إلى صدره، وربت على كتفه وهو يقول:

- لا تحزن فقد أتم دورته وأكمل نغمته وانحل من قيده، وخرج من كثافة الأرض إلى مدارات النور وهو الآن ينعم بالسكون والحكمة والعلم الكامل.

أسكنت كلمات المعلم قلبه المضطرب، بعد قليل شرع تلاميذ المعلم في تجهيز الجثمان، غسلوه، وعطروه ثم وضعوه في لفائف من الكتان واستقبلوا به الشمال، ثم وقف المعلم بيثياس خلف الجسد المسجى وأخذ يتلو بعض الصلوات، اقشعر لها بدنه وبدن نقفور، لم يفهم تأويلها ومعناها ولكنها مست قلبه بالرهبة وروحه بالسكينة. وبعد أن انتهت مراسم الدفن، ضرب أصحاب لينوس على صدره برفق معزين، فاغرورقت عيناه بالدموع، وقد أدرك أن الصحبة هي ملجأ الإنسان الآمن في حياته وعند موته. جلس المعلم إلى جواره. ثم قال:

- لطالما حدثني لينوس عنك.

قال في حزن:

- أبى إلا أن يموت لأجلي حتى أعيش معذبًا بفقده.

- ولماذا تسميه فقدًا؟
- وهل هناك اسم آخر؟
- أنت شاعر، أليس كذلك؟
- بلى يا سيدي.
- هل كتبت يومًا شعرًا، فأحسست وأنت تكتبه بأنك تشم رائحة الزهر، وتسمع صوت الغدير، وترى العصافير تحلق؟
- نعم، يا سيدي.
- هل كان هناك زهر أو غدير أو عصافير أم أنها العاطفة التي جعلتك تشعر بذلك؟
- بل العاطفة.
- هل لهذا علاقة بعالم الموجودات؟
- كلا يا سيدي.
- إذن فالعاطفة من نداءات الروح، ولو غاب الجسد، فالروح لا تغيب، تحدث إليه يا فتى، وسيسمع نداءك ويجيبك، لن تسمعه أذنك، ولن تراه عينك، ولكن سيشعر به قلبك!
- شعر بالسكينة والطمأنينة وكأن الكلمات تربت على قلبه المكلوم، تمنى حينها لو استمع إلى نصائح لينوس المتعددة بأن ينضم إلى صلبة المعلم. فإذا بالمعلم يقول له وكأنما استمع إلى ما حدث به نفسه:
- كنت قد اخترت لينوس لمرافقتي في الرحلة، ولكن الأقدار اختارته قبلي، ولعله أفسح طريقًا لك لتكون معنا يا قدموس.
- ماذا تقصد يا سيدي؟
- إن شئت رافقتنا إلى أرض القصدير؟
- قال مذهولًا:
- أنا يا سيدي! ولكني لا أفقه شيئًا في الفلك، ولا في أمور البحر.
- ولكنك شاعر، وستروي عنا تلك الملحمة!

تذكر أن هذه كانت كلمات لينوس في آخر حديث دار بينهما، أدرك أنه من طلب من المعلم ذلك خشية أن يبقى وحيداً في مارسيليا. تنهد في سره وكاد ييكي وهو يقول: «آه يا لينوس! وكأنك ترعاني حيا وميتاً»، ثم قال للمعلم:

- أشكرك أيها المعلم، فقد عازمت على الرحيل عن مارسيليا على أية حال، ولن أجد خيراً من صحبتك!

ثم أردف:

- ولكن اسمح لي أن أظل إلى جوارك حتى موعد الرحلة، وأعدك أن أكون كـ(لينوس) فلا أعصي لك أمراً!

قال المعلم:

- على الرحب والسعة يا بني.

حينئذ تحدث نقفور وقال:

- وسأرهن منك المعصرة يا قدموس حتى تعود من الرحلة، وسأعطيك ثمنها، وليشهد المعلم على ذلك.

في اليوم التالي جمع حاجياته، وأغراضه ثم وضعها فوق عربة أخيه ذات العجلات الثلاث، وودّع نقفور باكياً، وألقى بنظرة أخيرة على المعصرة، جذب غصناً من الزيتون، وتشممه، وكأنما يودّع الرائحة التي رافقته عمراً بأكمله. رنا ببصره إلى قبر لينوس، ثم دفع العربة التي أصدرت عجلاتها صريراً وهي تهبط تلة دوميز، لمرة قد تكون الأخيرة. وبينما كان يصعد تلة الفنار إلى منزل المعلم بيثياس، شعر بأن الأقدار قد أضافت إلى ثوبها الذي تحيكه له، خيطاً جديداً اسمه المعلم بيثياس.

حين أفاقت كان جسدها ينتفض بالحمى، تلفتت حولها فوجدت نفسها في حجرة مظلمة، إلا من شمعة تتراقص ذؤابتها في ركن الحجرة. تعجبت كيف أتت إلى هذا المكان؟! تذكرت اللحظات الأخيرة قبل إغمائها، شعرت برأسها تتصدع حين استعاد عقلها الضربة التي نالتها من الرجل المشرد، ونبج ذراعها بالألم حين تذكرت عضه الكلب. انتابها خوف من أن يكون أنجوس، قد وجدها. وازدادت خوفاً حين طرق سمعها وقع أقدام تقترب. ارتعدت حين رأت أحدهم يحمل الشمعة، ويقترب نحوها. أغمضت عينيها، ومع ذلك شعرت بضوء الشمعة يخترق جفنيها المرتعشين.

أحست بيد تتحسس عنقها الخافق بالنبض، فكتمت أنفاسها، وحين مست اليد ذراعها الملهب صرخت من الألم، باعدت بين جفניה في خوف، لترى زائرهما.

وجدته رجلاً مسنّاً، انعكس ضوء الشمعة على وجهه الشاحب فبدا كحارس نفق الموت، لف الرجل حول عضدها زمامًا ثم جذبه، شعرت بالألم يسري في يدها ولكنه بعد لحظات تحول إلى خدر. فجأة شق الرجل ساعدها بمبضع وظل يفصد الجرح بيديه بقوة، جعلتها تصرخ صرخات قوية متتابعة حتى سقطت في نفق هاديس المظلم. استيقظت في اليوم التالي على أشعة الشمس تداعب جفניה، تلفتت حولها ببطء لتجد

نفسها في الفراش مبتلة، وإلى جوارها فتاة صغيرة. تأوهت من ذراعها المضمودة، بينما قالت الفتاة في فرح:

- المجد لربات الفن اللائي أخذن بيدك من نفق هاديس المظلم.

قالت بوهن:

- أين أنا، ومن أنت؟

- أنت في بيت العذارى، وأنا أيريس أصغر عذراوات المعبد سنًا.

- كيف أتيت إلى هنا؟!

- خرجنا بعد الشروق لجمع حبات الكرم من بساتين سيلفا، فوجدناك ملقاة على التلة قرب الشاطئ. كنت فاقدة الوعي وبعد ساعات أصبحت تنتفضين من الحمى، فأنت لك الكاهنة بالطبيب.

شكرتها في وهن، فقامت الفتاة مسرعة، وهي تقول:

- سأخبر الكاهنة، بأنك قد أفقت.

حين أتت إليها الكاهنة تذكرتها، كانت إحدى المدربات اللائي دربنها، على الموسيقى والألحان، قالت في جزع حين رأتها:

- أيولا! ماذا حدث؟

حكّت لها ما حدث وهي تبكي، شعرت الكاهنة بالأسف عليها، ولكنها طمأنتها وقالت:

- أنت الآن آمنة يا أيولا ولن يصل إليك أحد هنا، انتظري معنا حتى تبرأي.

ثم التفتت إلى أيريس وقالت:

- وحذار من ثثرة العذراوات، يا أيريس، لا نريد أن يعرف أحد بمكانها!

ظلت أيامًا حتى ذهبت الحمى وبرأت ذراعها من القيح، واستعادت شيئًا من قوتها وكثيرًا من أحزانها. لأول مرة تشعر بأنها وحيدة في الحياة، حتى حبيبها لا تعرف مكانه، جلست حبيسة بين حجرات الفتيات في معبد ربات الفن، لا تجرؤ حتى على الخروج إلى شرفاته حتى لا يراها أحد. تذكرت المعلم الأكبر بيثاغورس الذي لجأ إلى ذات المعبد في كورتونا ليقضي أيامه الأخيرة محاصرًا هناك، وتأكدت من أنها وريثته حتى في المصير المؤلم.

وبعد أيام، طلبت كبيرة الكهنة رؤيتها، قصت عليها كل شيء، فقالت لها في عطف:

- وماذا ستفعلين يا أيولا؟ إن شئت بقيت معنا، وأعدك إلا يؤذيك أحد.

لم يكن أمامها خيار، ولكنها كانت تتمنى لو يعرف قدموس بمكانها. قالت لها:

- أشكرك يا سيدتي ولكن هل لي أن أطلب شيئًا؟

- ما هو؟

- أريد أن أخبر الشخص الوحيد الذي أحبني بصدق بأني هنا.

- من هو؟

- الشاعر قدموس.

حينئذ شهقت الفتاة الصغيرة أيريس التي كانت تقف بالقرب من باب الحجرة، وقالت:

- أنت أيولا زهرة القمر؟

- ماذا تقصدين بزهرة القمر؟

- لقد تغنى الشاعر قدموس بقصة حبكما، وألقى مأساة على مسرح الأجورا أبكت الناس جميعًا.

انفطر قلبها، وهي تقول:

- أرجوك أيتها الكاهنة، أريد أن أراه.

تفكرت الكاهنة قليلًا، ثم قالت:

- أنا لا أعرف مكانه، ولكنني سأتحسس أمره.

في اليوم التالي أخبرتها الكاهنة بأن قدموس باع معصرته، وغادر مارسيليا، بعد أن فقد أخاه. سحقت كلماتها ما تبقى من عزميتها ورغبتها في الحياة، ولولا الموسيقى لغادرت تلك الحياة التي خلت من كل أحبتها فجأة. وذات مساء دخلت عليها الفتاة الصغيرة أيريس وهي تقول هامسة:

- عرفت مكان الشاعر قدموس!

دق قلبها بالحياة وقالت بلهفة:

- أين؟

- في منزل المعلم بيثياس.

- كيف عرفت؟

رفعت أنفها في فخر، وقالت:

- بفضل ثرثرة العذراوات!

ثم أردفت:

- كنا نجمع الكرم، ومعنا فتاة تعمل في منزل السيد ليوفانوس. قالت إنها تتمنى أن يحبها رجل مثلما أحب الشاعر قدموس أيولا زهرة القمر، فأخبرتها بأنني أعرف أيولا الحقيقية، فأغاطتني بأنها رأت الشاعر قدموس في منزل السيد ليوفانوس بصحبة المعلم بيثياس!

لم تصدق أذنيها، طفرت دموع الفرحة إلى مقلتيها، ولكنها سرعان ما جفت حين قالت الفتاة:

- ولكنها قالت إنه سيرحل مع المعلم بيثياس إلى أرض القصدير بعد أيام..

في المساء دقت مطرقة الباب ثلاث دقات على البيت القابع فوق تلة الفنار، فتح الخادم الباب، فوجد السيد ليوفانوس وبجواره شخص يطأطي رأسه، ويغطي شعره بحرملة سوداء. أدخلهما إلى حجرة جانبية، ثم أخبر المعلم بيثياس بوجودهما. مر وقت طويل قبل أن ينادي المعلم عليه مرة أخرى ويأمره باستدعاء قدموس. دخل قدموس الحجرة وهو يفرك عينيه النوم. وجد المعلم يجلس على كرسي وأمامه أريكة يجلس عليها ليوفانوس وذلك الرجل الغريب الذي يغطي رأسه. قال المعلم مبتسمًا:

- هل ذهبت عنك سكرة النوم؟

- نعم يا سيدي.

- لقد أحزنك أن ترحل عن مارسيليا فردًا، ولكن شاءت الأقدار أن ترحل بمن
تحب.

ثم أشار إلى الضيف الذي حسر الحرملة عن رأسه، فتوهج شعره الأحمر في
ضوء المصباح، وخفق قلب قدموس وهو يصرخ غير مصدق:
- أيولا!!

ميلاد سعيد

ودعت هاجلند ولوبي بعد أن سجلا كل البيانات، وجمعا كل المعدات في سيارات الدفع الرباعي. كنت أتمنى العودة معهما، ولكن الطبيب أمرني بالبقاء في كليرمونت أسبوعين آخرين للمتابعة. غادرت المستشفى، واستأجرت شقة فندقية بالقرب منها، وقررت أن أمنح نفسي وقتًا للقراءة والاستجمام. حملت الكاميرا وتجولت في المدينة القديمة، زرت كاتدرائية كليرمونت ثم قررت أن أزور المعبد الروماني فوق الجبل المقدس. كانت مفاجأة لي أن وجدت شابًا من أصل مغربي حاصل على الماجستير من جامعة كليرمونت في تاريخ الحضارات القديمة، ويعمل بجانب دراسته العليا، مرشدًا بالمعبد. قادني الشاب من البوابة، وسار بي بين الأعمدة، وبدأ يتجاذب أطراف الحديث معي بالعربية، مقلدًا اللهجة المصرية التي تعلمها من الأفلام. كان يتحدث باستفاضة عن تاريخ المعبد، الذي تنقلت ملكيته عبر الأزمنة من قبائل السلت إلى الإغريق، ثم قبائل الغال، ثم الرومان، حتى صار مركزًا للحروب الصليبية في العصور الوسطى، وفي جميع الأزمنة كان لهذا المعبد قدسية لأنه يقع على طريق الحج القديم. ثم أكد على ما ذكرته سيلين من قبل من أن قبائل الإغريق والسلت كانوا يسIRON عبر كليرمونت إلى سواحل الأطلسي في مدينة كيب فينيستري فيشاهدون غروب الشمس الأخير على العالم القديم، ويصلون لأرواح موتاهم التي يعتقدون أنها تقبع في المحيط الأطلسي. دخلنا حجرة المقتنيات، وتجولنا بين محتوياتها من أوان وتمائيل تعود إلى عصور شتى، إلى أن وقع بصري على تمثال من الرخام الأبيض وضعت له قاعدة رخامية كبيرة فلفت انتباهي. كان التمثال لرجل يرتدي زيًا فخماً من أزياء اليونان، ولكنه محطم الأنف مطموس العينين وكأنما أراد أحدهم أن يشوه وجهه. التقطت له صورة، ثم قرأت الاسم المكتوب على قاعدة التمثال فوجدته «تمثال بيثياس - أثينا 450 ق.م.».

لا أدري لماذا تذكرت الاسم، ربما لأنني لا زلت أذكر كل تفاصيل الرحلة التي قمت بها مع أبريال، فقلت:

- هل هذا هو ذات الرجل الموجود على مبنى البورصة في مارسيليا؟

هز رأسه وقال:

- كلا، هذا تمثال لرجل آخر من أثينا اسمه بيثياس أيضًا.

- ولماذا تحطم وجهه هكذا؟

استحسن دقة ملاحظتي، فابتسم وقال:

- كان بيثياس الأثيني نبيلًا، وخطيبًا موهبًا في عصر الإسكندر الأكبر، ولكنه كان معارضًا للسلطة في أثينا، فحارب الرشوة والفساد، وخاض حربًا ضد مجلس الشيوخ رافضًا تأليه الإسكندر الأكبر، ولهذا اكتسب عداء النبلاء، والساسة، ووصفه معارضوه بالوقح، وطردوه من أثينا، وأعتقد أن تشويه وجه التمثال بهذه الطريقة حدث انتقامًا منه.

سألته بشغف:

- وماذا عن صاحب التمثال الآخر في مارسيليا؟

- التمثال الآخر لبيثياس المارسيللي، وكان أيضًا في عصر الإسكندر الأكبر، ولكنه رحالة، وعالم فلكي عظيم، وصل إلى إنجلترا، وإسكتلندا وأيسلندا، والقطب الشمالي، وكان أول من وطئ أرض الشمال بقدميه من المستكشفين!

ثم أردف باسمًا:

- ولكنه تعرض أيضًا للاضطهاد في عصره!

قلت له مندهشًا:

- أليس عجيبًا أن كليهما اسمه «بيثياس» وكليهما عاش في عصر الإسكندر، وكليهما تعرض للاضطهاد، ألا يمكن أن يكونا الشخص نفسه؟!

أحنى رأسه، وقال:

- ملاحظة جيدة، ولكن لا يوجد عليها دليل علمي.

تأملت التمثال مرة أخرى ثم انحنيت نحو قاعدته، وقرأت الاسم المكتوب وسألت الشاب:

- ما معنى اسم بيثياس؟

قال بعد تفكير قصير:

- ربما يكون مشتقًا من اسم بيثيا النبية كاهنة الوحي في معبد أبوللو التي اشتهرت بالنبوءات، والكلمة تطلق عادة على الوسيط بين الآلهة والبشر.

- يقصد الكاهن؟

- أو النبي.

عدت إلى البيت في وقت متأخر بعد أن أنهيت جولاتي وتناولت عشاءي، كان السكون يخيم على المدينة الصغيرة التي لا يزيد عدد قاطنيها عن بضعة آلاف نسمة، نصفهم من السائحين، الذين انخفضت أعدادهم كثيراً مع اقتراب أعياد الميلاد. سرت في الشارع الساكن وحدي، مرتدياً معطفي ووشاحاً من الصوف يلتف حول عنقي، أتأمل أنوار الكريسماس التي تزين الأشجار وواجهات المحلات التي أغلقت أبوابها، وتتسلل إلى أذني أصوات الموسيقى والأغاني، وبعض الضحكات الشاردة التي تأتي من بعيد، وتهب المدينة الساكنة نفحة من الحياة. حين وصلت إلى مدخل المنزل كانت أجراس الكاتدرائية تدق الثامنة مساءً. لفحني الدفء في مدخل البناية، فخلعت معطفي ثم حبيت موظف الاستقبال، الذي كان يستعد للمغادرة. سألتني إن كنت محتاجاً إلى شيء باستثناء زجاجات المياه التي وضعها في شقتي، فشكرته، وهممت بالضغط على زر المصعد، ولكنه استوقفني، قائلاً:

- هناك سيدة بانتظارك بالمطعم منذ ثلاث ساعات.

تعجبت قائلاً:

- سيدة؟!

ثم ولجت إلى المطعم، فخفق قلبي حين رأيته. كانت أبريل، تجلس على أريكة وقد خلعت معطفها، ووضعته على حقيبة سفرها، ثم توسدت ساعديها المنعقدين فوق الطاولة التي أمامها ونامت. تقدمت منها ثم مسحت على شعرها برفق وأنا أقول:

- أبريل!

أفاقت، وحين رأنتي ابتسمت بعينين ناعستين وقالت لائمة:

- عمر، لقد تأخرت كثيراً، وأفسدت المفاجأة.

نظرت إليها غير مصدق وأنا أقول:

- هذه أجمل مفاجأة.

وضعت يدها على ذراعي المصابة برفق وقالت بأسف:

- أنا آسفة لما حدث لك. لم أعرف بأمر الحادثة إلا بعد أن قابلت لوبي صدفة.
تعجبت من أن الدكتور سلطان لم يخبرها، وابتلعت لعابي، وأنا أقول:

- وكيف عرفتِ أنني هنا؟

- اتصلت بالمستشفى، فأعطوني هذا العنوان.

اختلج وجهي وأنا أنظر إلى عينيها ثم قلت ممتنًا:

- لا أتخيل أنك قطعت كل هذه المسافة من أجلي!

ارتبكت وهي تقول:

- أحزنني أن تقضي عيد الميلاد وحيدًا ففي مثل هذه الأوقات يتضاعف
الإحساس بالوحدة على من لا يملكون الرفقة.

ثم تتابعت أنفاسها وهي تقترب مني وتمسك بطرفي الوشاح الذي يلتف حول
عنقي وتقول بصوت منهزم:

- وقد اكتشفت أنني وحيدة مثلك تمامًا يا عمر.

عانقتها في حضن كان الصمت فيه أفصح من أي كلام، انتظرت حتى انتظمت
أنفاسنا المتلاحقة، ثم ربت على ظهرها في حنان وقلت:

- هل أكلت؟

- كلا.

حملت حقيبتها، وأنا أقول:

- حسنًا تعالي معي سأصنع لك أسوأ شطيرة برجر يمكن أن تتذوقها في
حياتك.

بعد قليل كانت تغتسل في الحمام، بينما أعددت لها شطيرة من البرجر،
والبيض. وضعت في طبق، زينت حوافه بقطع من الطماطم والخيار، وإلى
جواره كوب من عصير البرتقال. خرجت من الحمام، فرأيتها ترتدي سروالًا
ضيقةً، وسترة فضفاضة للنوم، وتفك تشابك شعرها المبتل بفرشاة. نظرت
إلى رواء وجهها المشرق مفتونًا وأنا غير مصدق. كانت هذه هي المرة الأولى
التي أقترب فيها من امرأة إلى هذه الدرجة. لم أكن أشعر بالإنارة، بقدر
شعوري بأنني أخطو فوق عتبات مدهشة نحو عالم تأخرت كثيرًا في ولوجه.

وضعت الطعام على منضدة، ثم قدمت لها عصير البرتقال، وجلست إلى جوارها وأنا أقول مبتسمًا:

- ليس لدي نبيذ.

- لا يهم، أحضرت معي زجاجة بوردو.

ثم قامت وأخرجت من حقيبتها زجاجة نبيذ، صبت كأسين منها ثم قدمت لي واحدًا وهي تقول:

- أنا سعيدة لأنني سأقضي أعياد الميلاد معك.

تناولت الكأس، وارتشفت منه. سألتني عن الحادثة، وهي تقضم من الشطيرة قطعة صغيرة بأسنانها اللؤلؤية. فحكيت لها كل شيء عن التجربة ونتائجها، وعن الحادثة وآثارها التي خلفتها في يدي، وأنفي المتوهمة لرائحة الكبريت. ثم أنهيت القصة مازحًا وأنا أقول:

- أخشى أن أفقد حاسة الشم، كما فقدت حاسة السمع في أذني وأنا صغير.

سألتني باهتمام لأول مرة:

- هل فقدت السمع بسبب حادثة أيضًا؟

تعرق جبينني قليلًا ثم قلت:

- نعم كنت طفلًا في السادسة.

قطبت حاجبيها بحزن، وقالت:

- ماذا حدث؟

ترددت قليلًا ثم قلت ساخرًا:

- ضربني أبي كي يؤدبني.

وضعت يدها على فمها مذهولة، ورغم أنني نطقت العبارة ساخرًا، فقد كانت أثقل على نفسي مما أظن، شعرت بجبهتي تتعرق، وبأذني تطن، وبظهري يتقلص وكأنما سقطت عليه لتوه لسعة من عصا أبي، أدت وجهي، كي أخفي رعشة في جفني. فردَّته إليها، ثم أحاطته بكفيها. ابتسمتُ كي أداري ارتباكِي، ففعلتُ ما لا أتخيله، مدت يدها إلى أذني، وأزالت السماعة عنها ثم اقتربت بشفتيها حتى لامست لحمتها المشوهة، وقالت:

- أحبك.

لم تقلها صوتًا، ولكن بحركة شفيتها، كان لوقع كلمتها وقع أكبر من الأثر الذي أحسسته يوم سمعت صوت عمي منير. فجأة تحررت الأجواء من صمتها، وملأتها أنفاسنا المفعمة بالإثارة ورائحة النيذ، وما إن تلامست الشفتان حتى انكسرت قدسية الرهبة،

وانسابت أرواحنا في رقصة حب هائلة، امتزجت فيها دقات القلوب اللاهثة، مع الأكف الحائرة والسيقان المرتعشة، وحين استحال النبض إيقاعًا نتشاركه، غشيتني النشوة كموجة حب عاتية رفعتني إلى جبل من اللذة، ثم انحسرت بي إلى عالم من السكون.

الرباط المقدس

في غبش الفجر هبط حماران من فوق تلة الفنار من جهة الغرب، وسارا بين الجبال، وهما يحملان زوجين من العجر، أحدهما رجل يرتدي عباءة سوداء، ويغطي رأسه بعمامة، والآخر امرأة ترتدي حرملة سوداء، وتغطي رأسها بخمار يخفي تحته شعرًا أسود، كان يتوهج بالاحمرار قبل يوم واحد فقط. كان الرجل هو قدموس، وكانت المرأة هي أيولا. لم تكتف أيولا بالتنكر بالزي فحسب، ففي اليوم الذي سبق الرحيل دخل عليها قدموس فوجدها تطحن ديدان العلق السوداء وتمزجها بلحاء الكاسيا والحناء، فسألها متعجبًا:

- ماذا تفعلين؟

- أصبغ شعري.

- لماذا؟

- ما أسهل العثور على فتاة ذات شعر أحمر ثائر!

قال في ضيق:

- ولكنني أحب لون شعرك!

ابتسمت وهي تفرك شعرها بعجينة الديدان والحناء

ثم قالت:

- سيعود كما كان بعد أيام.

هبطا من التلة فأشرف أمامهما الميناء، شعر بالوجد، وتلفت حوله في حنين بدا كضباب خريفي، وقد لامست نظراته الأماكن برفق وكأنها تصافحها للمرة الأخيرة. تذكر ما قاله لهما المعلم عن الخطه، سيرجلان وحدهما، حتى يصلا إلى نبع نهر إيجالاديس، وهناك سيمكثان حتى تأتي الحملة التي يقودها المعلم، ثم يرحلون جميعًا على طريق الحج إلى مغرب الشمس.

سارا على ربوة عالية بمحاذاة الشاطئ في خشوع الفجر الذي تشققت ظلمته ببواكير الضياء، وضجت سماؤه بأصوات طيور النورس التي غدت مبكرًا، وحلقت فوق لجج الموج المصطفقة بالشاطئ. ربما لو تراثًا قليلًا،

لأدركا أن طيور النورس لم تكن تزرق لأجل صيد الأسماك فحسب. فهناك أسفل الربوة وفي مكان لا ينظرونه، كانت ترقد جثة أركانسو، وقد غمر الماء معظمها، وحامت فوقها الطيور، التي كانت تزرق فزعًا من نسر مهول، تخترق جوارحه عنق الرجل، ويعبث بمنقاره الحاد في وجهه.

ابتعدا عن مارسيليا، وكانت الشمس قد ارتقت إلى السماء، فسرى الدفء في جسديهما، وخلعت أيولا، حرملتها، مطلقه شعرها في الهواء. تطلعت إلى الآجام الساحرة حولها، بينما تطلع قدموس إلى صفحة وجهها البيضاء المشربة بشحوب وردي، وقد افترش خديها نمش خفيف كزهرة أوركيد مرقطة الحواف جعلها تبدو متألئة في ضوء الشمس. حانت منها التفاتة نحوه، فرأته ينظر إليها، قالت في خجل:

- كف عن النظر نحوي.

- لقد صرتِ زوجتي!

- ليس بعد!

- لقد أعلن المعلم بيثياس أنني وأنت قد اتحدنا في رباط مقدس، وشهد على ذلك ليوفانوس.

- ولكنك لم تؤد شروط الزواج في شريعتنا!

- وما هي؟

- أن تقسم أننا متساويان في الحقوق والواجبات.

- أقسم على ذلك.

- وألا تخرق ناموس شريعتنا؟

صمت قليلًا ثم قال:

- وألا أخرق ناموس شريعتك.

- وأن تزرع لي شجرة حب!

قطب حاجبيه، وقال:

- وأين أزرعها؟

- حين نصل إلى نبع إيجالاديس.

وقبيل الغروب، وصلا إلى نبع نهر إيجالاديس، الذي كان ينساب من بين الصخور في شلال بديع، وصوت خرير الماء ينسج من حوله لحناً هادئاً يلامس القلب، وتتجمع مياهه في بركة مياه تتلألأ صفحاتها بأشعة الغروب، أشارت إلى النبع وقالت:

- هذه هي دموع الأرض الفرحة!

أعجبه التشبيه وظن أن جمال المشهد قد ألهم قريحتها، ولكنها قالت:

- كان أبي يقول إن الينابيع العذبة هي دموع الأرض الفرحة، والينابيع الحارة هي دموع الأرض الحزينة!

عقلا حماريهما، ثم نصبا خيمة تحت أجمة كثيفة الأغصان بجوار النبع، ثم سارا نحو النبع الذي تفتحت حوله أزهار برية زاهية. شمر قدموس عن ساعديه، وأخرج مديّة من نطاقه، قصف بها غصناً من الورد لم تفتح براعمه بعد. ثم حفر حفرة إلى جوار النبع، غرس فيها الغصن. ثم قام وغرف الماء من النهر بكفيه، وأخذ يسقي الغصن الذي غرسه بيديه، ويساوي الأرض من حوله. وبعد أن فرغ غسل يديه في النهر، ثم اقترب منها وهو يقول:

- ها قد زرعت شجرة حبنا، هل صرت الآن زوجتي؟

تطلعت إليه بهيام، ثم انفرجت شفتاها، وقالت هامسة وهي تومئ برأسها:

- نعم!

تطلع إلى شفتيها المنحيتين في انسياب كقوس كيوييد، مسها بأنامله ثم ضغط على نثرتها التي تشبه قيثارة أبوللو، فازدادت انفراجاً. انحني عليها ومسها في قبلة، شعر بها كنسيم فجر دافئ، اهتزت لها روحه، وأيقظت أحلامه الندية، فحملها إلى الخيمة وقضى ليلة امتلأت فيها كأس الوحشة بالحب، وغابت عنهما الشمس ثم عادت، لتشرق على جسد عار إلى جواره بلله الصبح بالندى ونثرت العصافير حوله شدوها.

انسحب من جوارها في هدوء، ثم خرج من الخيمة، تطلع إلى البحيرة، فرأى سرّاً من الأسماك يقفز فوق البركة في مرح وكأن أسماكه تبحث عمن يمسك بها. دبّت فيه الحماسة، فجرى نحو البركة، ثم غط في مائها، خرجت أيولا بعد أن ارتدت ملابسها، وصاحت به

مندهشة:

- قدموس، ماذا تفعل؟

لم يرد عليها، وظل يطارد الأسماك، وبعد قليل أمسك سمكتين أخذتا تتلويان في قبضته في رقصة وداع أخيرة، التفت نحوها ورفعهما صائحًا:

- أمسكت بهما.

فصرخت فيه قائلة:

- قدموس، اتركهما؟

- لماذا؟

- سيموتان!

ضحك قائلاً:

- لن أنضجهما على النار حبيبتي!

قالت متألّمة:

- كلا، اتركهما أرجوك.

أفلت السمكتين، اللتين شقتا طريقهما في البركة في سرعة، وذهب إليها متعجبًا. وقال:

- ما بك يا أيولا؟

قالت لائمة:

- كيف ترهق روحًا لتأكلها؟ ألا تدري أنها من الممكن أن تكون إنسانًا، عاد إلى الحياة في تلك الصورة كي يتطهر من أثامه في حياة سابقة.

- ماذا تقولين؟

شرعت توضح له آراء المعلم الأكبر بيثاغورس، في أن الأرواح التي لم ترتق بالأعمال الصالحة إلى درجة الخلود، تعود إلى الأرض في صورة أخرى حتى تتطهر من ذنوبها، وأنها قد تعود في هيئة بشرية أو في هيئة أخرى، بقدر درجة صلاحها. لم يقتنع بكلامها، ولكنه أراد أن يجاريها، فسألها:

- وهل تظنين أنني عشت حياة سابقة يا أيولا؟

قالت:

- بالتأكيد.

ابتسم، وقال في فخر:

- وكيف ترين حياتي السابقة؟

ظن أنها ستخبره بأنه كان شاعرًا مرموقًا، مثل هوميروس أو سوفكليس ولكنها تفكرت قليلاً ثم قالت:

- قرد؟!

بهت من كلامها فقال:

- قرد!!

- نعم، فأنت نشيط، وسريع وذكي مثله!

هز رأسه، ثم أصدر صوتًا كصوت القرد، وظل يقفز حولها، وهي تكاد تسقط من الضحك، ثم توقف عن العبث، فاقتربت منه في دلال ثم قالت:

- لو طلبت منك أن تكف عن أكل اللحوم، هل ستفعل ذلك من أجلي!

لفحته أنفاسها، فقال في أسف كاذب:

- ولكنني أحبها لدرجة تجعلني أظن أنني كنت أسدًا في حياة سابقة.

لثمت شفثيه وقالت:

- وماذا لو كنت أنا فريستك؟!

اعتصرها في حضنه وهو يقول ضاحكًا:

- قرد إلى جوارك خير من أسد من دونك!

وحين هم أن يغيب معها في قبلة، سمعا صليل عربات تقترب من الوادي، تركا مكانهما، ثم تطلعا نحو السفح، فخفق قلباهما لهية المشهد، فقد جاءت حملة المعلم بيثياس، مترسة بآلات الحرب، وقد رفرفت في مقدمتها رايتا مقدونيا ومارسيلييا. وحين دنا الركب أكثر رأى المعلم بيثياس يمتطي صهوة جواد أرقط وإلى جواره قائد العسكر فيلون، وكبير البحارة أوتياس، وقد بدا المعلم في زيه الساطع في ضوء النهار كفارس هبط من السماء!

لم يدر بخلده أن الرحلة إلى مغرب الشمس ستتحمل معها كل تلك الدهشة، فحين غادر مارسيليا كانت أقصى أمانيه أن يفر بمن يحب، ولكنه اكتشف في أثناء الترحال، أن يومًا في رفقة المعلم بيثياس يعدل سنوات من حياته السابقة. مرت أيام كانوا يبدأون فيها المسير بعد الشروق، ثم يتبعون مسار الشمس نحو الغرب، وكانهم يلاحقونها، وكانوا كلما قطعوا فرسًا يأمرهم المعلم بالتوقف، ثم يقيس طول الظل وزاويته عند تلك البقعة بآلة عجيبة تشبه المزولة يسميها العقرب، وكانت بها الكثير من الدوائر والأرقام، التي يحدد بها الاتجاه. ثم يدون تلك القياسات في سجل معه، حتى يستعينوا بها في طريق العودة. وفي أوقات الراحة، كان المعلم بيثياس يعقد مجلسًا قصيرًا يتحدث فيه عن الأخلاق، والحكمة والمنطق، حديثًا سهلًا بسيطًا، أحبه البحارة وصاروا يرددون بعض كلماته. كان قدموس مستمتعًا بتلك الدهشة التي تحيط به، دهشة الحب، ودهشة الترحال، ودهشة القرب من المعلم بيثياس، الشيء الوحيد الذي أفسد عليه متعته، هو ذلك النفور الذي كان يراه

على وجه أيولا حين تستمع إلى دروس المعلم بيثياس، ويومًا بعد يوم صارت تعزف عن الاستماع إليه، وكفت عن حضور مجلسه. سأله قدموس:

- ما بك يا أيولا، هل أغضبك شيء؟

لم تستطع أن تكتم ضيقها فقالت:

- أشعر بالوحدة يا قدموس!

قال متعجبًا:

- الوحدة وأنا معك.

تراجعت قائلة:

- أقصد الغربة! عشت عمرًا لا أفارق حينًا، وفي غضون أسابيع صرنا ننتقل من واد إلى واد ومن تل إلى آخر. وعما قريب سنركب البحر إلى أرض بعيدة.

قال مهوّنًا:

- أنا أيضًا أتعجب من هذه الحياة الجديدة، ولكن يكفيني أن جمعتني الأقدار بك وبالمعلم بيثياس في رحلة واحدة.

شعرت بالغيط حين ذكر المعلم بيثياس، فقالت محتدة:

- أنا ما خرجت لأجل المعلم بيثياس.

تعجب من حديثها فقال مندهشًا:

- أيولا ما! بك؟

طفرت دموعها، وهي تقول منفعة:

- هذا الرجل ينخر بكلماته في عقيدتي، وكأنما يتعمد زعزعة إيماني بها.

تفهم غضبها، فاقترب منها واحتضنها قائلاً:

- لا تسمعيه بقلبك يا أيولا، ولكن اسمعيه بعقلك. كنت مثلك أنفر من كلامه حين ينتقد أرباب الأولمب، ولكني أصبحت مؤمناً بكلامه!

ابتعدت عنه وذكرته قائلة:

- قدموس! لقد أقسمت أن تحترم ناموس شريعتنا!

- نعم أحترمه، ولكني أؤمن بأفكار المعلم بيثياس.

بهتت، وانتابها صمت حزين، اقترب منها وهو يقول برفق:

- لا تفسدي ما بيننا يا أيولا بتلك الأفكار! فكل شيء يهون ما دمنا سوياً!

ترقرقت الدموع في عينيها ثم قالت:

- كم أفتقد أبي!

فاحتضنها طويلاً، وأخذ يربت على ظهرها حتى هدأت، ثم أبعد رأسها عن صدره، ومسح دموعها، وشرع يغني لها بصوت ندي أغنيتها المحببة:

«أحببت فتاة اسمها أيولا

ذات جبين منحن وخذ أسيل

يموج شعرها الأحمر في الفضاء

فتشرق الشمس من أطرافه في الصباح

ويضيء القمر من حواشيه في المساء

وحين نازعني عقلي في حبها

وسألني...

كيف تحب فتاة غريبة؟

أجبتة..

أنا أيضًا غريب!

ويكفي أن اسمها أيولا!»

لوحة النور

كانت تنام على صدري، أحيط عنقها بذراعي، وأداعب شعرها الذي انساب على كتفي، وهي تفضي بصوت حالم بقصتها وكأنها بين النوم واليقظة:

«لم أكن يومًا فتاة مدللة، فقد نشأت في بيت تديره أم بلا زوج، بعد أن هجره الأب فجأة بغير رجعة، وكان عمري حينها لا يتجاوز الخامسة. أتذكر بيتنا في حي «لوبانير» القديم ذي الشوارع الضيقة المتعرجة والدرج الذي نحلت حوافه آلاف النعال، أتذكر ساحة شارل التي كان يفتح عليها باب بيتنا، والتي تأوي إليها عشرات العائلات الفقيرة من المهاجرين، الذين يعيشون على التسول أحيانًا، والسرقة في أغلب الأحيان. في هذه البيئة كان بيتنا، الذي غاب عنه أمان الرجل، فاستبدلت به أُمِّي دولا بملابس كنا نحركه كل ليلة كي نوصد به الباب من الداخل، ونأمن شرور الجيران. كافحت أُمِّي في عملها كي أتعلم، وتنقلت من عمل إلى عمل ومن مهنة إلى أخرى، حتى وصلت في تعليمي إلى المدرسة العليا. وفي تلك الأيام قابلته! شاب طويل أسمر ذو عَيْنين ساحرتين أتى من باريس ليزور أبويه القاطنين في الحي البائس، فتعشرت في حبه. ألهمني حديثه وكأنما بعث بكلماته أشلاء ثقتي الممزقة في الرجال بسبب أبي. عشقته، وصرت أنتظر الأيام التي يأتي فيها إلى مارسيليا، كي أستمِد منه ما يعينني على الانتظار لبضعة أسابيع أخرى. لم أتخيل أن أقع في هوى شاب من أبناء المهاجرين، وأنا التي عشت حياتي أنفر منهم. وحين حصلتُ على البكالوريا، وحصل هو على البكالوريوس في العلوم، احتفلت معه بأن وهبته عذريتي قِربًا، مع عهد ممهور بالدم ألا أكون لغيره، عهد نال عندي رغم رهق الصبا قدسية الحب الأبدي. وذات يوم أخبرني بأنه سيسافر إلى الولايات المتحدة من أجل الدراسة، ودعني على وعد بأن يستمر في مراسلتي. سافر تاركًا قلبًا كان ينبض بوجوده، ومع ذلك ظلت خطاباته المتباعدة كقبلة رحمة تعبر المحيط لتبقيني على قيد الحياة. ولكن فجأة تعقدت حياتي

وتصاعدت أحداثها كحبكة بائسة في رواية من روايات فيكتور هوجو! فُيَضَ على أُمِّي متلبسة بالسرقة، فُحْكِمَ عليها بالسجن! لم أكن أعلم أنها مصابة بداء السرقة، وأن كثرة تنقلها من عمل إلى آخر كان بسبب شكوك أصحاب العمل فيها. رحلتُ إلى باريس، وقد أوصدتُ قلبي، وطويت صفحة الماضي تمامًا، وانغمست في الدراسة والعمل في السياحة لسنوات، وكأني أهرب

من مشاعري بصفتي أنثى، ومن ماضي أُمي، التي ماتت في سجنها. وفي يوم من الأيام، وجدت إعلانًا لوظائف إدارية بجامعة مارسيليا. شعرت بحنين للعودة إلى بلدي، تقدمت بطلب، وحصلت على الموافقة عليه، ولم أكن أعلم أنني سأراه مرة أخرى بعد كل هذه السنوات. كان لا يزال كما هو يحمل العينين نفسيهما اللتين تشعان طموحًا يسابق الأيام. ولكنه كان يحمل أيضًا في يده خاتمًا للزواج. تحدثنا، والتقيته عدة مرات، تفجر فيها حبه في قلبي مرة أخرى رغم زواجه، ورغم أنني لم أر ذلك الحب في عينيه. أقنعني بأن أرافقه في قسمه الجديد، فوافقت. مرت سنوات،

وأنا أعاني من هذا القرب المستحيل. هل تتخيل أن ترى حب عمرك أمامك يوميًا، وتكون محرومًا منه؟ حاولت أن أسلاه، وأن أفتح قلبي عنوة، لأي طارق كي يزيج من قلبي ذلك المتوسط لسويدائه، ولكنني فشلت! كنت أثور على نفسي، أعنفها، أتهمها بالتعلق بالوهم، فكرت كثيرًا أن أرحل مرة أخرى عن مارسيليا، وفكرت كذلك في الانتحار، ولكنني كنت أروض في النهاية أمام نعمة أنني أراه كل يوم. هل عرفت من هو؟

تنهدت ثم قلت:

- دكتور مازيس.

ثم أردفت:

- رأيتك تقبلينه قبل سفره إلى الولايات المتحدة.

رفعت رأسها عن صدري مندهشة، فقلت:

- كانت مصادفة سيئة لي، لا زلت أكرهها حين أتذكرها!

اعتدلت ثم قبلتني في خدي، فربتُ عليها، أعدتها إلى صدري وأنا أقول:

- أكملني!

- كنت أحتلم آلام التعلق، في سبيل القرب منه، ولكن في السنوات الأخيرة تغير سلطان، تعاظم طموحه، وصار شرهًا للنجاح في كل شيء، في العلم والسياسة وجمع المال. وكان حلم الحصول على نوبل، أكبر الهواجس التي تؤرقه، وحشد في سبيل تحقيقه كل العلاقات التي اكتسبها من حياته العملية ومن عائلة زوجته.

تنهدت، ثم قالت:

- وقبل سفره بأسابيع كنت أستخدم بريده الإلكتروني، في الرد على دعوة لأحد المؤتمرات، وحين فتحت الرسائل المؤرشفة في البريد بغير قصد، اكتشفت فيها ما أفزعني. وجدت عدة رسائل من إدارة الأبحاث في سلاح الجو الأمريكي معنونة باسم «مشروع الشفق القطبي».

سألته مندهشًا:

- مشروع الشفق القطبي؟

- نعم فتحت الرسائل كي أعرف تفاصيله، فوجدته دراسة تجرى في ألاسكا تحت رعاية سلاح الجو الأمريكي، حول استخدام ترددات لاسلكية عالية المستوى في طبقات الغلاف الجوي المنخفضة، عند منطقة القطب الشمالي. ويرغب الجانب الأمريكي في الاستعانة بخبرة الدكتور سلطان لمعرفة مدى خطورة هذه الموجات على إحداث تغيرات بيئية خطيرة، مثل الذوبان الجليدي، أو حدوث زلازل، أو براكين، أو وقوع فيضانات وموجات تسونامي. وحين جاءته تلك الدعوة من الجمعية الأمريكية لعلوم الطبيعة، أدركت أنه سيسافر من أجل هذا المشروع، وأن التكريم إما غطاء أو مقايضة لمشاركته فيه.

صمتت قليلاً ثم قالت:

- وقبل سفره، بأيام ذهبت إلى مكتبه. أعطيته تذاكر السفر، ثم سألته «هل شككت يومًا في حبي لك؟»

فاحتضنني وقال: «بالطبع لا». فأخبرته بمخاوفي من دخوله في أبحاث مشتركة مع سلاح الجو الأمريكي. لم أتوقع أن يغضب إلى هذا الحد، اتهمني بأنني أتجسس على بريده الإلكتروني. أحسست بالذهول، ارتجفت، ثم جذبته، وتأمّلت عينيه لأبحث في أعماقهما عن ذلك الشاب الذي أسرني بحبه، ووهبته عذريتي منذ أكثر من عشرين عامًا فلم أجد سوى انعكاس صورتي عليها، وكأنها صارت عينا زجاجة لا حياة فيها. شعرت بأسف على حب واهم وهبته سنوات عمري، اعتذرت له ثم قبلته، وأنا على يقين من أنها القبلّة الأخيرة.

وتركته وقد عزمت على الرحيل. ثم قدمت استقالتني، وانتظرت حتى مر
شهران بعد طلب الاستقالة ، وتركت عملي بالجامعة!

قلت منزعجًا:

- ألم تترددي قبل الرحيل؟

- كلا، فأنا أجيد طي الصفحات، والبدء في صفحات جديدة.

ثم نظرت نحوي وقالت:

- كما أن وجودك يا عمر ساعدني على اتخاذ هذا القرار؟

قلت متعجبًا:

- كيف؟

- حين ظهرت تغيرت المعادلة. رأيت في عينيك إعجابًا، شعرت به كقطرات
ندى تبلل أوراق عمري الجافة. كنت مع كل كلمة مجاملة أسمعها منك، أعود
إلى البيت أتطلع إلى شكلي في المرأة وأتساءل: هل أنا حقًا جميلة، حتى
يغازلني شاب يصغرنني بعشرة أعوام؟

ثم ابتسمت، وقالت:

- وحين أهديتني تلك الهدية، لم أنم ليلتها. أسرتني رقتك، ولهفتك، ولهائك
المرتبك وأنت تمد يدك بها! كل الهدايا التي أهداني إياها سلطان لم أشعر
معه بلهفته. الرقة واللهفة مثل ورقة سوليفان ملونة تغلف الهدايا، وتجعلها
أجمل!

قبلت راحتها، فنظرت إلي وقالت:

- ومع ذلك كنت ألوم نفسي كل يوم. كنت أرى حبك ينمو في قلبي متهمةً
بالأنانية، وموصومًا بالاستغلال. أشتاق إلى صوتك فتتهمني أذني بالشوق إلى
الإطراء، وأشتاق إلى رؤيتك، فيتهمني عقلي بالغواية. وفي جميع الأحوال أرى
نفسني تلك المرأة البائسة التي تخطط جراح قلبها بمشاعر شاب يسوقه
الانبهار.

- يسوقه الانبهار؟

- نعم، فأنا أعلم جيدًا أنك ستتركني.

- كيف تحكمين عليّ بهذه القسوة؟

- لأن المرأة تستطيع أن تميز بين الحب والإعجاب.
- ولكنني أحبك.
- ما أسهل أن ينطق الرجل بكلمات الحب، وما أصعب أن تتجاوزها المرأة إذا صدقتها!
- وهل يرفض عقلك تصديقي!
- بالعكس أصدقك رغم يقيني من أن علاقتنا ستنتهي بمجرد انتهاء بعثتك!
- قلت مازحًا:
- هل أصبحت معقدة من كل الرجال؟!
- كلا، هذه هي الحقيقة، ولكن حتى لا أتألم لي عندك رجاء!
- ما هو؟
- أن نعقد اتفاقًا.
- أي اتفاق؟
- سنلعب لعبة.
- لعبة؟
- نعم، لعبة تعلمتها من معالجاتي النفسية منذ سنوات حتى لا أتأذى بعلاقتي بالآخرين. لعبة اسمها «لوحة النور».
- أصابني الفضول، فقلت لها:
- ما هي؟
- قامت وعلى وجهها ابتسامة كبيرة. فتحت حقيبتها وأخرجت منها لوحة بها مربعات صغيرة سوداء، ومعها قلم أبيض، تعجبت أنها معها، وكأنها تلعب بها يوميًا. أشارت إلى اللوحة ثم قالت:
- هذه اللوحة مقسمة إلى 365 مربعًا صغيرًا. والمطلوب منك أن تلون مربعًا واحدًا فقط كل يوم باللون الأبيض إذا كنت تشعر بالامتنان لوجود شخص في حياتك.
- أستطيع أن أظللها كلها الآن.

- لا يجوز، لأن هذا يخالف شروط اللعبة. فلا ينبغي أن تظل أكثر من مربع واحد في اليوم، ولا يمكنك أن تظل أكثر من مربع للسبب نفسه.

- وكيف ستعرفين؟

أدارت اللوحة، فوجدتها مفهولة على شكل جدول من 365 خانة وقالت:

- ستكتب في هذه القائمة سبب التظليل. ويجب أن تكون الأسباب مختلفة.

- وما فائدة ذلك كله؟

- قالت لي المعالجة إن من يستطيع أن ينير ظلام حياتك لمدة عام كامل، يستطيع أن ينيرها إلى الأبد.

أشفقت عليها، أدركت أنها عانت كثيرًا، حتى تلجأ إلى تلك الحيل النفسية الساذجة، وتذكرت أنها فكرت في الانتحار من قبل، فقلت لها:

- وهل ستلعبين معي اللعبة نفسها؟

قالت في خجل:

- لقد بدأتها منذ عدة أسابيع.

قلت بالحاح:

- وكم مربعًا ظللت؟

ضحكت قائلة:

- لن تعرف، ولكنني سأخبرك بعد عام!

- عام كامل!! أظنه حلم بعيد المنال يا أبريل.

- لماذا؟

- لأنني لا أملك 365 وسيلة تجعلك ممتنة لوجودي.

ضحكت وقالت:

- يكفي أن تحاول! ولو تركتني في أي وقت، فلن أحزن، لأنني على ثقة من أنني سأملك قائمة بأشياء جميلة صنعتها من أجلي.

(26)

الْجَنَّة

ساروا بمحاذاة جبال البرانس العالية التي بدت كجدران حصن مهول تصد العابرين نحو الجنوب وحين بلغوا نهايتها من جهة الغرب، استقبلهم واد عميق به غابة كثيفة امتدت من البرانس جنوبًا وحتى سواحل كانتابريا شمالًا. تحير المعلم هل يستمر في طريقه ويخترق الغابة، أم يدور حولها شمالًا ثم يتجه غربًا؟ فقد كان يخشى أن يخترق الغابة، فيفقد الظل الذي يقوده، ويضل في طريق العودة. واستقر الرأي على أن تخيم الحملة عند سفح الجبل على أن تصعد فرقة بقيادة المعلم، إلى الجبل كي تستبين الطريق. أناب المعلم الضابط فيلون في قيادة الحملة واختار بعض الرجال ليصعدوا معه، وكان قدموس من بينهم، وحين أخبر أيولا، قالت في ذهول:

- تتركني وحدي وتصعد الجبل!

- اختارني المعلم لتلك المهمة، وما كنت لأتأخر عنه!

- أما جال بخاطرك أن أرافقكم؟

- تلك مهمة تشق عليك يا أيولا، ونحن لا ندري ما ينتظرنا هناك.

- لقد أقسمت أننا متساويان.

قال ضاحكًا:

- ليس في كل شيء.

لم تتقبل ضحكته وقالت:

- بل في كل شيء، لقد قضيت خلوات طويلة فوق جبل جارلابان واحتملت حر الصيف وبرد الشتاء.

قال متبرمًا:

- لا ترهقيني باللوم يا أيولا، لقد اختار المعلم الرجال بنفسه، سأذهب الآن وأعدك ألا أتركك وحدك مرة أخرى.

وصعدت الفرقة إلى الجبل، كان أحد الأدلاء يتقدم المسيرة، حاملاً معه عداد المسافات، الذي يعد به كل خطوة يصعدونها والآخر يحمل قفصاً به صقر كاسر،

بينما سار قدموس في المؤخرة حاملاً الخيمة على ظهره. وصلوا إلى قمة الجبل بعد جهد كبير وكان النهار قد انتصف. نصب قدموس الخيمة، ثم وقف يتأمل القمم التي ارتدت تيجاناً من الثلج، وقد بدت أشجار الصنوبر التي كست الوديان حول السفح، كأشباح تحرسها وتذود عنها من يحاول تجاوزها. أطلق الدليل العقاب الذي يحمله، فحلق في سماء الوادي، قبل أن يغيب عن الأعين في قلب الغابة. وبعد قليل، ناح عليه صاحبه، فعاد ضارباً الأفق بجناحيه. فقال المعلم:

- عمق الوادي كبير والغابة كثيفة لن نستطيع السير في هذه الوديان، ومن الأفضل أن ندور حولها.

قال الدليل:

- كيف؟

- سنتحرك نحو الشمال وحين ينتهي الوادي، ندور غرباً ونسير في طريق موازٍ لذلك الطريق.

قال أوتياس كبير البحارة:

- نحن لا ندري قدر المسافة، ونخشى أن تنفد المؤن، ونهلك في أثناء الدوران حولها.

صمت المعلم قليلاً ثم التفت إلى حامل عداد المسافات وسأله:

- كم ارتفعنا عن الأرض في أثناء صعودنا لهذه التلة؟

- ارتفعنا أربعة ستاديونات يا سيدي!

أخرج المعلم من صندوق الأدوات مرآة كبيرة أمسكها بيده، ثم أخذ يعكس عليها ضوء الشمس حتى استقرت بقعة الضوء المنعكسة على بداية الوادي من جهة الشمال، ثم قال:

- سنسير حتى نصل إلى تلك البقعة.

ثم خط على الأرض بعصاه مثلثاً قائماً، وأشار إلى ارتفاعه وقال:

- هذا ارتفاع الجبل الذي صعدناه.

ثم أشار إلى زاويته العليا وقال:

- وهذه زاوية ميل المرآة ستون درجة.

ثم أشار إلى الضلع المجاور لقائمة المثلث وقال:

- طول هذا الضلع من المثلث هو المسافة بيننا وبين تلك البقعة.

نظروا إلى بعضهم بعضًا متعجبين من قدرة المعلم المذهلة على التفكير، قال قدموس:

- وكم يبلغ طول هذه المسافة يا سيدي؟

ابتسم وقال:

- فلتسأل زوجتك، وريثة بيتاغورس، عن ذلك.

عادوا إلى السفح بعد الغروب وقد استبد بهم التعب، وحين دخل قدموس إلى الخيمة، وجدها تنزوي في ركنها وقد عطفت ركبتيها وعقدت فوقهما ساعديها وأراحت بينهما رأسها. سار نحوها منهكًا، وقال:

- أما زلت حزينة لأنني تركتك؟

لم تجبه، ولم يبد عليها اللهفة، مد جسده على الأرض وهو يقول متعبًا:

- لقد قرر المعلم الدوران حول الوادي من جهة الشمال. فلن نستطيع اختراقه.

ثم تئأب وقال وهو يكاد يستسلم إلى النوم:

- لقد حسب المسافة بطريقة عجيبة، وأشار إلى معرفتك بها.

نجح في جذب انتباهها، فسألته متعجبة:

- ما هي؟

قال بلسان يترنج من سكرة النوم:

- لا أعرف، غدًا سنجتمع في خيمته ليخبرنا.

في صباح اليوم التالي كان أوتياس كبير البحارة، وقائد العسكر فيلون، وقدموس وأيولا والدليلان يلتفون حول منصدة وضعت عليها بردية، رسم عليها المعلم ذات المثلث الذي رسمه فوق التلة ثم بدأوا في النقاش. لم يشهد قدموس في حياته نقاشًا كهذا، التزم الصمت، حين اكتشف كم هو

جاهل بعلوم الطبيعة والحساب، وتذكر حين قرأ أن أفلاطون كتب على باب أكاديميته، «لا يدخل هذا البيت جاهل بالهندسة»، فشعر بالخجل من وجوده بينهم، وهو يستمع إلى تلك الطلاسم التي يتحدثون بها ولا يفهم منها شيئاً. العجيب أن أيولا كانت تفهم ما يقال، بل كانت تجادل المعلم بيثياس في حساباته. ووقع خلاف بينها وبين المعلم جعله يشعر بالحرج أكثر، وهو لا يفهم إلى أي الرأيين يجب أن ينحاز. حسب المعلم طول المسافة ووجدها تعادل حاصل قسمة الرقم سبعمائة وأربعين على جذر الرقم ثلاثة، ولكن أيولا انتفضت قائلة

- لا يوجد جذر للرقم ثلاثة يا سيدي.

- لماذا؟

- لأنه ينتهي إلى ما لا نهاية.

- وماذا في ذلك؟

- لقد قال المعلم بيثاغورس إن كل الأرقام أعداد صحيحة، أو كسور من الأعداد الصحيحة. فكيف ينتهي رقم إلى ما لا نهاية؟

صمت المعلم قليلاً ثم قال في هدوء:

- مثلما يتضاعف الواحد إلى ما لا نهاية، فإنه ينتهي إلا ما لا نهاية. وهذا هو ناموس الكون يا بنيتي وصلب الإيمان الذي أمن به بيثاغورس!

سأله متعجبة:

- كيف؟

أجابها بسؤال:

- ماذا يعني الرقم واحد في عقيدتك؟

- أصل النشأة.

- فكيف يكون الواحد أصل النشأة إلا إذا كان أولاً بلا ابتداء، وآخرًا بلا انتهاء؟ أليس هذا هو الصانع الأول موناس الذي تحدث عنه بيثاغورس!

قالت في عناد:

- هل تعني أن المعلم بيثاغورس قد أخطأ؟

- كلا، ولكن من أتوا بعده قد أخطأوا، حين رفضوا أن يعملوا عقولهم في غير ما جاء به المعلم!

ثم التفت إلى فيلون وقال:

- أعد الحملة يا فيلون، فغداً سوف نتحرك نحو الشمال، وممر الرجال بأن يقتصدوا في الماء والمؤن.

ترك المعلم، وسارا إلى خيمتهما، وما إن صارا وحدهما حتى قالت أيولا في غضب:

- قدموس! لا أريد رفقة المعلم بيثياس!

ذهل قائلاً:

- ماذا تقولين؟

- أريد العودة إلى مارسيليا أو الرحيل إلى أي مكان آخر.

- لماذا؟

- أما تراه يسفه من أفكار الإخوة في كل حديث؟

- لم يسفه منها، ولكنه قدم حجة بحجة!

- وكأنك توافقه! لو كنت تعلم شيئاً من الرياضيات لأدركت خطأه!

- لا تجعل الكبرياء يفسد ما بيننا.

- وأنت لا تفسد ما بيننا بصحبته!

- ماذا تقصدين؟

- خرجت من أجلك وليس من أجله، يا قدموس!

قال بنفاد صبر:

- وأنا خرجت لأجلك يا أيولا، ولكني لن أترك المعلم بيثياس ما حييت.

شقت الحملة طريقها لليوم الرابع على أطراف الغابة الممتدة بين جبال البرانس جنوباً، وخليج كانتابريا شمالاً. كان الرجال يجرون أجسادهم المنهكة،

ويسحبون وراءهم أغراضًا تضاعفت أوزانها بسبب السبخ الرطب الذي ملأ الأرض، وقد تلطخت ملابسهم بالطين، وامتلات آذانهم بطنين الذباب واليعاسيب. تطلع قدموس إلى أيولا التي بدت شاحبة، كان المعلم بيثياس محققًا في حساب المسافة التي قطعوها نحو الشمال، فقد وصلوها بعد ثلاثة أيام، ولم يشعروا فيها بالتعب، ولكنهم بعد أن استأنفوا المسير نحو الغرب، تبدلت الطبيعة وصارت أكثر صعوبة، وبعد أن اقتربت الحملة من نهاية الغابة، ارتفع صوت البوق، وقال أحد الأدلاء:

- هناك نبع ماء.

ابتهج الناس وسارت الحملة في اتجاه النبع، فجأة، ارتفعت أذنان الكلاب وعلا نباحها، وازداد الهرج في مقدمة الصفوف، تقدم قدموس ليستطلع الأمر، فإذا بقطيع من الغزلان البرية، كانت تشرب من النبع ثم تفرقت حين سمعت البوق، انطلقت الكلاب نحو القطيع الذي تشرذم، وصرخ الرجال في نشوة، وانطلقوا يحاصرون بعض الغزلان، ولم يتمالك قدموس نفسه، هاجت غريزته حين سمع صيحات الرجال المتحمسة، فانضم إلى دائرة الحصار، ووقف مباعداً بين ساقيه ومصوباً ناظره على غزالة ترتجف أذناها خوفاً، أفلتت الغزالة من يدي أحد الرجال فتلقاها قدموس بين يديه، تفادى قرنيها المشرعين كمدية حادة، ثم قفز عليها ممسكاً بعنقها، ليسقطا أرضاً والرجال حولهما يصرخون بنشوة لحصولهم على الصيد الثمين. وفي المساء كانت رائحة الشراب، والشواء تملأ المعسكر، وبينما كان قدموس منتشياً بأجواء المرح مع أصدقائه في ساحة المعسكر، ذهبت أيولا إلى خيمة المعلم بيثياس، دخلت عليه فوجده يقرأ في بردية، فقالت في حزن لا يخلو من الحدة:

- كيف يزهق رجالك أرواحاً حية ليأكلوها؟

صمت قليلاً ثم قال:

- هي مُسَخَّرَةٌ لكي تؤكل يا أيولا!

- ولكن المعلم بيثاغورس حرّم قتل الحيوان وأكله!

- لماذا؟

- لأنها روح إنسان عادت إلى الدنيا لتتطهر.

- وماذا لو أكل تلك الغزلان سبع في البرية؟ أيمكن أن يكون قد أكلها إنسان آخر تقمصت روحه روح السبع؟

صمت ولم تجب، فتابع:

- اسمعي يا أيولا، إن الأرواح إذا خرجت لا تعود إلا لأجسادها ولا حلول لروح إنسان في جسد حيوان.

قالت مستنكرة:

- هذا يخالف تعاليم بيثاغورس؟

- ولكنه يوافق ما تعلمه بيثاغورس.

- كيف؟

- ألم يخبرك أبوك بأن بيثاغورس تلقى علمه من المصريين؟

- بلى.

- إذن فلتقرأ ما كتبه هيرودوتس عن إيمان المصريين بعودة الروح إلى الجسد، وكيف كانوا يحنطون أجساد موتاهم، حتى تتعرف عليها الأرواح. الروح سر من أسرار الصانع الأول، ولا تعود إلا لجسد صاحبها يا أيولا.

- ولماذا إذن حرّم بيثاغورس أكل اللحم؟

- هذا ما حرّمه بيثاغورس على نفسه. أنا أيضًا لا أستسيغ اللحم، فهو أثقل على الدماغ، وأدعى لقسوة القلب، ولكن الحيوان مسخر للأكل لمن هو أقوى منه، وذلك من نواميس الكون يا بنيتي.

خرجت من عنده وقد ازداد سخطها، تأكدت من أن الرجل يمحو في كل يوم شيئًا جديدًا من عقيدتها، وأنها لا تأمن على دينها في صحبته. مرت على الساحة لتبحث عن قدموس، وجدته يرقص منتشياً مع الرجال، وفي إحدى يديه زند مشوي. شعرت بالغثيان منه، لم تتخيل أنه قد حنث بقسمه الذي أقسمه أمامها، تركت الساحة، وعادت إلى الخيمة، وقد بلغ الغثيان حلقها، لفظت عصارة معدتها الخاوية ومعها طفرت دموع القهر إلى عينيها. ألقت بجسدها على الأرض، ثم أجهشت باكية بصوت عال. فجأة سمعت صوتًا خارج الخيمة. كفت عن البكاء، وكفكت دموعها. همت بأن تقوم، ولكنها توقفت حين اخترقت لفافة فراغ الخيمة، وسقطت أمامها. فتحتها فوجدتها رسالة من سطر واحد، قرأتها مرات ومرات في ضوء الشمعة وهي تشعر بالذهول «نحن في انتظارك في ساموس».

(27)

الثقب الأسود

ودعنا كليرمونت بمشاعر مليئة بالحنين. لم أتخيل أن هذه القرية الصغيرة ستمنحني كل هذه السعادة، وستظل ذكرياتها محفورة في ذاكرتي، حتى بعد أن ظهر في رأسي ذلك الثقب الأسود الذي ابتلع الكثير من الذكريات لاحقًا. أه، لقد نسيت أن أحكي عن هذا الأمر، ففي آخر زيارة لي للمستشفى قابلت طبيب العظام فأخبرني بأن الكسر قد شُفي تمامًا، وحين شكوت له من الصداع، واستمرار رائحة الكبريت، أحالني إلى طبيب متخصص في الأعصاب، قام بمناظرتي جيدًا وفحص عيني، وردود أفعالي العصبية بدقة، وأوصى بأشعة على المخ، لم تظهر شيئًا سوى نقطة صغيرة سوداء ك رأس الدبوس في المخ، أوصى بمتابعتها من آن لآخر.

وصلنا إلى مارسيليا، واقتрحت أبريل أن أقيم معها في شقتها، ولكنني ترددت، نازعتني أفكار الشقية في أن أعيش على نفقة امرأة تحبني. أخبرتها بأنني سأعيش في سكن لوبانيير حتى تنتهي المنحة وبعدها يمكننا أن نتقل للعيش سوياً.

و حين عدت إلى السكن، كان أول من رأيته بعد عودتي أحمد رحمانى، لم أكن قد التقيت به منذ واقعة المكتب، وكنت أظن أنه قد عاد إلى الجزائر، ولكنني فوجئت به يطرق بابي ويزورني كي يطمئن عليّ بعد أن علم بإصابتي. أخلتني مودته، فدعوته إلى الدخول، واحتساء كوب من الشاي معي. كان أكثر ما يعجبني في هذا الشاب أنه قليل التطفل شديد الهدوء، امتد فراغ الصمت بيننا في أثناء احتساء الشاي، حتى اضطرت أنا إلى المبادرة بالأسئلة. سألته:

- ظننت أن بعثتك قد انتهت!

- نعم، ولكنني كنت قد بدأت الدراسة في قسم الدراسات الإنسانية بكلية الآداب في جامعة مارسيليا، ولا يزال أمامي ستة أشهر لإنهاء الدبلوم الذي بدأت.

تعجبت من قدرته على ملء حياته بكل هذه الأنشطة، فسألته:

- هل تدرس التاريخ؟!

- كلا ، بل الأديان!
- أراك ملتزمًا بالدين، فما فائدة هذه الدراسة؟
- أقوم بدراسة الأديان من منظور تاريخي وفكري، وهذا يعمق فهمي لها!
- أصابني بالحيرة والارتباك، مرة أخرى أرى فيه تناقضًا صارخًا بين ذكائه ومنهجه العلمي، وبين تلك القنوات التي يطوق بها عنقه. سألته في حيرة حقيقية:
- كيف لباحث فيزيائي أن يدرس الأديان، أليس هذا تناقضًا؟
- لأن الفيزياء لا تجيب عن كل شيء!
- كيف؟
- قوانين الفيزياء تقوم على النظام والثبات، وهناك أشياء تخترق هذا النظام!
- قلت في ثقة:
- ما لا يخضع لقوانين الطبيعة وهم!
- إذن فالروح وهم، والعاطفة وهم، والقيم وهم !
- لم أشأ أن أجادله في قناعاته مرة أخرى، فقلت مغيرًا مجرى الحديث:
- أتمنى لك التوفيق.
- وقبل أن يقوم مد يده بعدد من دورية أجنبية وقال:
- هذه نسخة من الدورية التي نشرت مقالتي عن مخاطر الوجود.
- نظرت إلى اسم الدورية الذي يعلوه شعار جامعة هارفارد ، ثم قلبت صفحاتها حتى توقفت على مقالة عليها اسم رحمانى. ثم ابتسمت في ود وقلت:
- شكرًا لك يا أحمد ، سأقرأها بكل تأكيد.

عبرت ردهة السكرتارية، ملقيًا بالتحية على مايرا السكرتيرة الجديدة، التي حلت مكان أبريال، ثم دخلت إلى غرفة الاجتماعات. اتخذت مقعدي بجوار هاجلند، على طاولة مكتملة العدد، إلا من مقعد الدكتور سلطان الخالي على رأس الطاولة. لاحظت وجود جميع الباحثين بالقسم فضلًا عن ثلاثة باحثين

آخرين منتدبين من قسم الجيولوجيا. كان جدول الأعمال الذي وصل بالبريد الإلكتروني المؤسسي يشير إلى أن الاجتماع بغرض تقييم مؤشرات الأداء للباحثين في العام الماضي والإعلان عن الخطة البحثية للعام الجديد وقائمة المشاريع المزمع البدء فيها. لا أدري لماذا تذكرت ما قالته لي أبريال عن المشروع المريب للدكتور سلطان، حين رأيت أن أغلب قائمة الأبحاث ستجرى بالتعاون مع جامعة ألاسكا. حاولت أن أتذكر اسم ذلك المشروع، ولكنه سقط من ثقب الذاكرة الذي بدأ في الظهور. ورغم أن حديث أبريال لم يكن إيجابيًا عنه، فقد شعرت بالإثارة لمعرفة هذا المشروع الذي سيجعل رئيسه على أعتاب الفوز بجائزة نوبل!

بعد قليل حضر دكتور سلطان، فصمتنا عن الكلام، عرض لوبي على الشاشة تقريرًا عن الأبحاث التي انتهت، والأبحاث التي لا تزال في طور الاستكمال، ثم عرض مؤشر أداء الباحثين في العام الماضي، وأسعدني أن منحني مؤشر أداء مرتفع. وبعد أن انتهى من عرض تقريره، عرض الدكتور سلطان الخطة البحثية للعام الجديد على مسامعنا. أخبرنا بأن هناك تغييرًا جذريًا في الخطة الجديدة، فجميع الأبحاث ستكون مشتركة مع جامعة ألاسكا، ثم عرض خريطة العالم، ومد خطًا فوق الخريطة يبدأ من اليابان ويمر بشمال الهند، ثم إيران، ثم تركيا ثم يصعد شمالًا نحو أيسلندا وينتهي أخيرًا عند ألاسكا. ثم قال:

- هذه هي حافة الصفيحة الأوراسية للقشرة الأرضية، هدف البحث هو تتبع أي نشاط للقشرة الأرضية على طول هذا الخط لمدة عام كامل، سواء كانت زلازل، أو نشاطًا بركانيًا، أو تفجر ينابيع حارة.

صمت قليلًا ثم قال:

- سيخبركم لوبي بالخطة الزمنية، وسيوزع المهام على الباحثين، وأحب أن أشير إلى أن البحث على درجة عالية من السرية، وغير مسموح بمشاركة أية معلومات تخص المشروع إلا على المنظومة الإلكترونية للقسم، كما أن المراسلات يجب أن تكون بالبريد المؤسسي فقط.

وبعد أن انتهى الاجتماع، خرج الجميع، وحين توجهت نحو الباب، ناداني قائلاً:

- عمر، انتظر.

عدت إليه فسألني:

- كيف حالك، هل تماثلت للشفاء؟

- الحمد لله.

صب لنفسه كوبًا من القهوة، ثم قال:

- متى تنتهي منحتك الدراسية؟

أجبت:

- بعد عام.

ارتشف من القهوة، ثم قال بهدوء:

- وماذا ستفعل بعدها؟

لا أدري لماذا شعرت بتهديد من عبارته، تعرق جبينى قليلاً، ثم قلت مرتبكاً:

- أتمنى أن أظل باحثًا بالقسم.

جلس على المكتب وهو يقول بجمود:

- تقارير أدائك جيدة، ولكن هناك أمور أخرى تؤخذ في الاعتبار عند التعاقد مع باحثين.

لم أجد ما أقوله، فهز رأسه ثم قال:

- عموماً لا يزال الوقت مبكراً للتفكير في مصيرك بعد المنحة، المهم أن تركز في عملك، وتحافظ على مؤشر الأداء نفسه في العام القادم حتى تزيد من فرصك.

ثم أشار إليّ بالانصراف. خرجت وأنا أشعر بالضيق والارتباك، كان كلامه مبطنًا بالتهديد، ولا شك أنه يشير إلى علاقتي بأبريال. أحسست بالقلق والغضب! هل يمكن أن تنتهي أحلامي بعد هذا العام، وأعود مرة أخرى إلى مصر؟! عدت إلى حجرة مكنتي ورفعت السماعة، واتصلت بأبريال، ولكن جاءتنى رسالة صوتية مسجلة بأنها ليست بالبيت فقد كانت منشغلة في تلك الأيام بشركتها السياحية التي تستلزم السفر أحياناً. درت في الحجرة وأنا أمسك برأسى المتخمة بالأفكار، وكأني أمنعها من الانشطار، ومرة أخرى تصاعدت إلى أنفي رائحة الكبريت. كنت بحاجة ماسة إلى الحديث لأحدهم، ففتحت الباب الزجاجي الفاصل بين مكنتي ومكتب أحمد رحمانى، وقد نسيت أنه قد أنهى عمله. لم أجده، ولكنني وجدت سجادة الصلاة، افترشت الأرض في اتجاه القبلة، وكأنها في انتظار من يقف عليها. نظرت إليها طويلاً، ثم أغلقت الباب وعدت أدراجي.

في المساء كنت في شقة أبريال أتمدّد على أريكتها، وأحتسي كوبًا من الشوكولاتة الساخنة، بينما تعبث أصابعها بخصلات شعري، أخبرتها بما حدث في الاجتماع بالتفصيل، متجاهلاً تأكيد سلطان على سرية المشروع، ثم أخبرتها بتهديده المستتر لي، حينئذ توقفت عن العبث بشعري وقالت:

- أظن أن سلطان لا يهتم بعلاقتنا.

- لماذا إذن يتحدث بهذه اللهجة؟

- هو يريد أن يضمن ولاءك.

- وما الذي يجعله يتشكك فيه؟

- هو لم يتشكك فيه بعد، ولكنه يريد أن يضمنه فيما هو آت.

- ماذا تقصدين؟

- مشروع الشفق القطبي.

- ما طرحه في الاجتماع ليس مخيفًا إلى هذا الحد.

- هو لم يطرح كل شيء، ولكن بالتأكيد ما يجري في ألاسكا أكبر وأخطر من ذلك.

- لماذا؟

- ما داموا يخشون وقوع كوارث بسببه كالزلازل والبراكين!

كان كلامها منطقيًا، ومع ذلك لم يكن شاغلي هو نتائج المشروع بقدر مصيري بعد هذا العام. فحتي لو لم أوافق على المشاركة فسوف تُنفذ الدراسة من دوني، فالأفضل أن أكون جزءًا منها، كما أن دوري هو التنبؤ بالكارثة قبل أن تقع وليس منعها. الشيء الوحيد المُلح الآن، هو أن أفكر في بدائل في حال أنهى سلطان تعاقدتي معه. قلت بعد تفكير:

- يجب أن أراسل مراكز بحثية أخرى للعمل بها.

قالت بأسف:

- آسفة يا عمر، لأنني تسببت لك في هذا الاضطراب.

- بالعكس، أنا سعيد بظهور نواياه مبكرًا.

قالت مغيرة مجرى الحديث:

- دعنا الآن نفكر في شيء إيجابي. فقريبًا سأحصل على علامة بيضاء جديدة في لوحتك!

ابتسمت وقلت:

- لماذا؟

فتحت حقيبتها ثم أخرجت تذكرتين وقالت:

- لأنني قد حجزت تذكرتين «لمسرح الجمنازيوم» يوم السبت.

رفعت حاجبي دهشة، وقلت:

- مسرح؟!

- نعم ألا تحب المسرح؟

- لم أدخل مسرحًا في حياتي، ولكنني سعيد لأنني سأخوض هذه التجربة الجديدة معك.

أمسكت وجهي بين يديها ثم قبلتني وهي تقول:

- أردت أن أعذر لك عن انشغالي عنك الأيام الماضية.

غبت هائمًا في قبلتها وأنا أقول:

- هذه القبلة تستحق علامة وحدها.

أحاطت عنقي بيدها ثم همست في أذني بإغواء وهي تقول:

- تعال معي إلى الداخل، وسأعطيك علامتين.

تبعتها ضاحكًا إلى حجرة النوم، وأنا أقول:

- أخشى أن تمحي علامة سابقة!

عدت إلى منزلي في الصباح. وحين صعدت إلى الشقة وجدت خطابًا في صندوق الرسائل على الباب، تزينت حوافه بنقوش حمراء وزرقاء مائلة وعليه طابع يحمل صورة أبي الهول. التقطته بسعادة وقرأت اسم المرسل مبتسمًا، ثم دلفت إلى الشقة لقراءته.

عزيزي عمر القداح:

سلام على روحك التي تحمل الحيرة والتساؤل دائماً، وسلام على رسالتك التي أنفثت كلماتها الآن مع دخان المعسل الذي تشتاق إليه، رغم أنك من غير المدخنين! أعجبتني مقارنتك، بين الغيبوبة التي خرجت منها، وبين العالم المدهش الذي تحيا فيه، ولكني ما زلت مؤمناً بأن الحياة لا تسير وفق ما نرى، فليست الغيبوبة نهاية، كما أن الموت ليس أمراً حتمياً لكل عاجز. أحياناً أشعر أن العشوائية التي نحيها، ما هي إلا فوضى تبحث عن نظام وأن النظام الذي يعيشه الغرب ما هو إلا منظومة حبلى بالفوضى، فنحن لسنا خارج قوانين الكون، وربما يحمل كل هذا العبث الذي يحيط بنا نظاماً خفياً في طياته لا نفهمه حتى الآن، لكنه يعدنا لما هو قادم. وأظن أن نظرية الفراشة التي ذكرتها قد تؤتي ثمارها بعد حين. أزعجني بشدة ذلك الحادث الذي وقع لك، وأتمنى أن تناظر طبيباً مختصاً في الأعصاب، وأن تجري فحصاً بأشعة تسمى الرنين المغناطيسي. أما عن سؤالك بشأن الحواس، فنعم، قد تخدعنا الحواس أحياناً. نحن جميعاً نعيش في «وعي زائف»، نُخدع به ونتعامل معه كأنه الحقيقة المطلقة، لكن في هذا الزيف، تكمن الفرصة الوحيدة لنكتشف شيئاً حقيقياً. هل أضرب لك مثلاً؟ ربما تستشعر هدوءاً في كلماتي وتفاؤلاً غير معهود، لقد أجريت جراحة الغدة الدرقية، بعد أن هددت سلامة قلبي، ومنذ ذلك الوقت أشعر بأن ضجيجاً كان يسكن دمي، قد سكن وصار أهدأ، حتى أنني قد أقدمت على ما لا يمكن أن تتخيله، لقد تزوجت! أفتقدك يا صديقي، ولا يزال سؤالك القديم لك قائماً رغم زواجي، كيف حال النساء الفرنسيات؟

صديقك أحمد عقل

(28)

الرأس المقدس

- «أنجوس!»

ناداه البحار القرطاجي الذي كان يقف على رصيف الميناء عند مضيق جبل كالبي. أسرع إليه وقد انعكست أشعة الشمس على النجمة الخماسية التي زينت صدره، ثم قال له:

- هل حصلت على التصريح؟

ابتسم الرجل وقال وهو يمد يده بورقة بردي مطوية:

- لولاي لرفض المشرف السماح لسفينة إغريقية بعبور المضيق. ولكني أقسمت له أن السفينة ليست تجارية، وإنما تحمل حجاجًا يريدون الذهاب إلى الرأس المقدس.

ناول أنجوس منه التصريح ثم ربت على كتفه، ووضع في يده صرة من المال وهو يقول:

- أعلم أن صداقتك هي الدافع ولكن هذه هدية لك، ولمشرف الميناء.

شكره الرجل وقال:

- سوف تستوقفكم سفن القرطاجيين بعد عبور المضيق، أعطهم التصريح، ولكن هذا لا يمنع من قيام الجنود القرطاجيين بتفتيش السفينة.

ثم تلفت حوله قبل أن يهمس:

- حذار من إخفاء أية بضائع، يا أنجوس، سوف يعثرون عليها، وقد يحتجزون السفينة.

هز رأسه في وقار مصطنع وقال:

- لا تقلق يا صديقي، لا يوجد بيننا تجار، بل حجاج مسالمون.

بعد قليل كان يقف على سطح السفينة التي انتفخت أشرعتها برياح الشرق، وهي تشق طريقها عبر المضيق نحو بحر الظلمات. كان محققًا حين قال لصديقه القرطاجي إنه غير قلق من تفتيش القرطاجيين لسفينته، فهو لا

يحمل بضائع، وإنما يحمل أحلامه في رحلة بلا عودة، رحلة يؤسس فيها مملكته في الرأس المقدس، التي سيجلس فيها على العرش إلى جوار أيولا مليكته. تذكر حين اكتشف خيانة أركانسو، بعد أيام من توليه منصب القاضي. لم يقدر أركانسو أنه يسيطر على الجماعة من قاعدتها وليس قمته فقط، وأن الخدم والرسول هم عيونهم على مجلس الدعاة وعليه. اكتشف الخيانة حين جاءه رسول أرسله أركانسو برسالة إلى أهل ساموس يحذرهم فيها من أنجوس، ويقول لهم إن أيولا لا تزال حية، ويطالبهم بالتخلص من أنجوس حين يصل إلى ساموس. نسي الأحمق أن من قتل مرة واثنين، لن يردعه الخوف عن فعلها للمرة الثالثة. ولكنه كان حقيقاً هذه المرة، أوكل أمر القتل لأحد رجاله من البربر، وألقى بجثته في البحر. ولم يبادر بتنصيب نفسه رئيساً، بل أعلن أن أيولا هي ملكة إخوة بيتاغورس ما دامت حية، وأنه لن يذهب إلى ساموس من دونها، وأن البحث عنها هو واجبه المقدس. ثم أرسل جواسيسه إلى كل مكان، بحثوا عنها في الأسواق، والأجورا وفي كل غار من أغوار جبل جارلابان ولكنهم لم يجدوها. حاموا حول تلة دوميذ، وحول منزل الشاعر قدموس أياماً، ولكنهم اكتشفوا أنه اختفى هو الآخر. ورغم فشل رجاله في العثور عليهما، كان لديه يقين بأن أيولا في مكان ما مع هذا العشيق المتهتك. حتى كان ذلك اليوم الذي استدعاه فيه أرخي داموس كبير التجار إلى منزله. دخل عليه فوجده يجلس خلف طاولة عليها صندوق كبير ممتلئ بالفضة، أغلقه أرخي داموس حين دخل عليه وقال:

- إلى أين ستسافر تلك السفينة الضخمة التي ترفع راية إخوة بيتاغورس بنجمتها الخماسية يا أنجوس؟

قال في هدوء:

- سنرحل عن مارسيليا!

- إلى أين؟

- هذا شأن من شؤون الإخوة يا سيد أرخي داموس، والإخوة لا يفصحون عن شؤونهم!

- ألا تحبون أن أتعاون معكم؟!

- كيف؟

- لو كانت تجارة شاركتكم فيها، ولو كانت إمارة جديدة، منحتكم أموالاً مقابل الشراكة معي!

صمت متفكراً، فحسبته أرخي داموس قائلاً:

- قل لي ما هي وجهتكم، لعلني أساعدك؟

قال في تردد:

- سنؤسس دولتنا في ساموس!

قال مندهشًا:

- ساموس؟ وما الذي يغريكم في تلك الأرض البائسة؟

- هي مسقط رأس المعلم بيثاغورس، وأهلها في انتظارنا!

هز أرخي داموس رأسه في أسف وقال:

- أتدري ما هي مشكلتكم الأزلية أيها الشاب؟ أنكم

لا تفكرون في المستقبل وتتمسكون بالماضي! وأقول لك عبارة قلتها
لأنوسطس من قبل ولكنه لم يصدقها، لو انفتح إخوة بيثاغورس على العالم
لحكموه!

اتسعت عيناه وقال:

- كيف؟

قام أرخي داموس ثم دار حول المكتب وقال:

- لديكم أفضل عقول في العلوم، والفلك والرياضيات، ومع ذلك تختزلون
معرفتكم في التسبيح، والغناء، انظر إلى ما فعله بيثياس المارسييلي!

انتبهت حواسه وقال:

- ماذا فعل؟

- استطاع بعلمه أن يجد طريقًا إلى أرض القصدير عبر الياينة، بعيدًا عن
القرطاجيين، ولو نجح سيصبح هذا هو الطريق الوحيد لتجارة القصدير إلى
أوروبا!

ثم صمت قليلًا قبل أن يردف:

- لو أردتم رأيي لأسستم مملكة عند الرأس المقدس، حينها ستحتكرون
الطريق البري للتجارة، وستكون أعظم مملكة في أوروبا هي مملكة إخوة
بيثاغورس!

ثم ابتسم وقال:

- وبالطبع سيكون أرخي داموس حليفكم الوحيد فيها.

كان كلامه شديد الإغراء، ولكنه كان شديد التعقيد أيضًا، فكيف سيقبل الإخوة بتغيير وجهتهم من ساموس إلى الرأس المقدس؟ وكيف سيسير في هذا الطريق البري الذي لا يعرفه أحد غير بيثياس؟ وكيف سيدور عبر مضيق جبل كالبي الذي يسيطر عليه القرطاجيون؟ وكأنما قرأ أرخي داموس ما يدور في عقله، فقال:

- لدي حلفاء من القرطاجيين عند مضيق جبل كالبي، يمكنني أن أجعلهم يسمحون لكم بالعبور بوصفكم حجاجًا إلى الرأس المقدس.

ازداد الإغراء في عينه، ولكنه كان لا يزال يشعر بمقاومة للفكرة، ولكن هذه المقاومة انهارت حين قال أرخي داموس:

- هل تعلم أن ابنة أنوسطس برفقة بيثياس المارسييلي؟

أصابته المفاجأة بالذهول، قال بدهشة:

- أيولا؟

- نعم، مع ذلك الشاعر الذي قتلت أخاه!

شعر بالغضب، وقال:

- كيف عرفت؟

رفع حاجبيه وقال ساخرًا:

- كيف عرفت؟! إذا لم يعرف أرخي داموس، فمن يعرف؟!

خرج من عنده وقد عزم على الرحيل إلى الرأس المقدس، انشق الإخوة إلى فريقين، فريق قرر الرحيل معه خوفًا منه، وفريق عاند وقرر انتظار أيولا ثم السفر إلى ساموس، وكان أغلب هؤلاء من شباب الإخوة. لم يشغله تأديب هؤلاء المعارضين، فالوقت كان يداهم، وكان يريد أن يصل إلى الرأس المقدس قبل أن يرحل عنها بيثياس. لقد دلته الأقدار على مكان أيولا، ولن يفقدها مرة أخرى، ولن يؤسس مملكة إخوة بيثاغورس إلا وهي زوجته، شاءت أم أبت!

كان يكره النهايات، ولكن هذه النهاية كانت أبغضها، نهاية الأرض من جهة الغرب، حيث تنتهي اليابسة ليبدأ بعدها بحر شاسع مخيف، تتقلب أمواجه في أحضان ظلام داكن تفوح منه رائحة الملح ، وتجتمع فيه كراهيته للبحر، وكراهيته للظلام. اليابسة عنده أم رؤوم، تذكره بالأمان الذي شعر به، حين استقبلته سواحل مارسيليا في أحضانها، لتنسيه لحظات الخوف التي عاشها بعد أن ضل النوتي طريقه وهو يحمل عائلته هرباً من صور. أما الغروب فيرادف عنده الموت، موت يوم كان مفعماً بالحياة، وذبول روح تتنفس النور، وتبعث كل نهار بهمسات الشروق. استقرت الحملة في الأرض التي يسميها أهلها باسم الرأس المقدس، بينما أطلق عليها المعلم بيثياس «نهاية الأرض».

تعجب من كلمة «المقدس» في البداية، ولكنه عرف بعد ذلك أن الحاج من عبدة الشمس يفدون إلى تلك الجزيرة المرتفعة ليروا الغروب في لحظاته الأخيرة، ثم يصلون على أرواح موتاهم التي ذهبت إلى بحر الظلمات في غير رجعة. كانت القرية صغيرة هادئة، يتحدث أهلها لغة السلت، ويعمل أغلبهم في صنع المراكب والسفن، ويمارس بعضهم الزراعة وبالأخص زراعة اللفت والبنجر والتوت الأحمر. وكان لديهم ميناء صغير عند مصب نهر ليجوه، يصنعون فيه لوازم المراكب ويبيعونها. وفي مواسم الحج كانوا يقايضون الأسماك والمزروعات بالسلع التي يحتاجون إليها.

أقام المعلم معسكره بالقرب من الميناء، وذهب مع مكاريوس الترجمان إلى حاكم القرية. اتفقوا على شراء سفينة كبيرة، تكفي لحمولة ألف تالنت من القصدير، فضلاً عن المؤن والرجال، فأخبرهم الحاكم بأنه لا يمتلك تلك السفينة، وأن بناءها قد يستغرق عدة أشهر. فوافق المعلم على البقاء، لحين الانتهاء من صنع السفينة، وقضى الوقت في استكشاف الأرض، ومعالمها، وقياس أبعادها، وتحديد موضعها بقياس الظل، وفوق كل ذلك كان يجمع أطفال القرية كل ظهيرة، ويعلمهم مبادئ الحساب، والأعداد عن طريق لعبة رصف الحجارة، وأحياناً ينضم رجال القرية إلى مجلسه فيحدثهم عن الأخلاق، والحكمة، ولا ينسى الحديث عن الصانع الأول، الذي منح لكل شعب هبة من الهبات إما علم أو ثروة أو قوة، وجعل عمار الأرض يتبادل الفضائل بين الشعوب لا بالحروب. وفي يوم من الأيام، وبينما كان المعلم يتجول شمالاً ليستكشف تلك الرأس، ومعه قدموس، وصلاً إلى سهل فسيح، به بحيرة مهولة، يحيط بها الطين والسيخ من كل جانب وكأنها قدر من الفخار. وكانت فقايع الماء تخرج من قاع البحيرة وكأنها تفور في ذلك القدر. كان الوقت وقت غروب، وكانت الشمس تتحدر ببطء وقد ذابت خيوطها الحمراء على الطين المحيط بالبحيرة، فبدأ كجمرات ملتهبة، حول الماء المتلون بقرصها الأحمر المتلاشي. ووقع قدموس في غرام تلك البحيرة، وقد ذكرته بغیضة

النحام التي جمعته بأيولا، فكان يذهب إليها كل مساء بعد الظهر، ويجلس مستنداً إلى شجرة بلوط ضخمة، ويكتب أشعار ملحمته التي لم يستقر لها على اسم. كان الجفاء لا يزال قائماً بينه وبين أيولا، قل حديثهما، وانعدم وصلهما، وزاد من الجفوة بينهما أنه شعر بنفورهما منه، حتى أنها كانت تتقيأ ما في جوفها، إذا اقترب منها أو سطعت رائحته أنفها. وتكررت نوبات القيء حتى صارت تنفر من الطعام والشراب، فضعف جسدها، ونحل وجهها، وشحب لونها بلون الموتى. وخاف من شدة المرض عليها فهرع إلى مكاربوس الترجمان كي يبحث معه عن علاج عند أهالي القرية. أخذه مكاربوس إلى عراف القرية، وأخبراه بحالتها، فتفكر قليلاً ثم أرسل معهما امرأة من أهالي القرية، رافقتهما إلى خيمة أيولا وهي تحمل في يدها صرة بها بعض الأعشاب والبذور. ولجت المرأة إلى الخيمة، وغابت وقتاً طويلاً، حتى شعر قدموس بالقلق، كشف الخباء فوجد المرأة تجلس إلى جوار أيولا، وفي يدها صحن به بعض البذور المنقوعة، تقربه من فمها فتحسو منه ببطء ثم تعيده إليها وهي لا تكاد تسيغه. سألها في لهفة:

- ما بها؟

ترجم مكاربوس السؤال، فأجابت المرأة مبتسمة:

- لا شيء، زوجته حبلى.

رفع مكاربوس حاجبيه، في سعادة، ثم التفت إلى قدموس وقال في حنان:

- ستغمر الفرحة بيتك يا قدموس، فقد منحتك الآلهة طفلاً!

ثم رحل وفي عينيه فرحة ممزوجة بالشجن. فقد كان حلمه أن ينجب طفلاً ولكنه تقدم في السن وماتت زوجته، ولم يرزق بأطفال، دق قلب قدموس بالفرحة، نظر إلى أيولا بهيام، وانتظر حتى خرجت المرأة، ثم جلس إلى جوارها وقال مبتسماً:

- كيف لم تعرفي أنك حبلى؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- أليس هذا من شؤون النساء؟

- وهل عشت حياة النساء؟

احتضنها في شوق، ولكنها حين شمت رائحته همت بالقيء، فقرب الصحن من فمها لتشرب، وقال:

- أقسم أنني قد تعطرت بزهرة الفاوانيا.
- قالت بعد أن ابتلعت الشراب رغم مرارته:
- لا تتعطر بها ثانية!
- قال في حنان:
- ظننتك تنفرين مني كرهًا!
- ردت في عتاب:
- ألهذا كنت تتركني كل ظهيرة وحدي؟
- نعم، حتى تشتاقي إلي.
- ثم تحسس بطنها بيده وقال مدعيًا الخبرة:
- ستنجبين ذكرًا.
- ابتسمت قائلة:
- كيف عرفت؟
- يبدو بطنك منخفضًا من أعلى وممتلئًا من أسفل!
- ضحكت رغمًا عنها وهي تقاوم القيء، وقالت:
- تتحدث كنساء السلت!
- أغاظها قائلاً:
- بل من خبرتي في النساء!
- صفعته في صدره، وقالت:
- هل أخبرتك عاهرات نقفور بذلك؟
- تحاشى صفعاتها ثم وضع الصحن بعيدًا وقال:
- بل من الشُّعرا! فحين حملت ثيا بسيلين ربة القمر كان بطنها ممتلئًا كقرص الشمس، وحين حملت بإله الشمس هيليوس، كان بطنها كثمررة الكمثرى فارغًا من أعلى وممتلئًا من أسفل!
- لهثت من الجهد وهي تضحك، ثم قالت:

- وهل تتمنى أن ألد ولدًا أم بنتًا؟

صمت قليلًا ثم قال:

- أتمنى أن تنجبي توأمين مثل ليتو التي أنجبت أبوللو وأرتميس. فيكون لي ولد يرث عني الشعر، وفتاة ترث منك جمالك.

ثم احتضنها، وقبلها في فمها وقال:

- ولكن لا تورثيها شَعْرَكَ، فهناك فتاة واحدة ذات شعر أحمر نائر، اسمها أيولا.

استعذبت قبلته بعد وقت طويل من النفور، وكأن الترياق قد أدى مفعوله، ثم ألقت برأسها على صدره وقالت:

- قدموس، هل لي أن أطلب شيئًا؟

- بالطبع يا صغيرتي.

- لا تخذلني ثانية!

قبل رأسها ثم قال:

- لن أخذك أبدًا يا أيولا!

- ولا تفارقني.

- لن يفرقنا إلا الموت.

وعادت إلى قدموس روحه المتقدة بالشعر بعد أن أصلح ما بينه وبين أيولا، ذهب إلى البحيرة بعد أيام من الانقطاع، واستأنف الكتابة بحماس، وقد اختار أن يمزج في ملحمة بين النثر والشعر السداسي على غرار ملحمة هوميروس. كتب في مقدمة ملحمة عن نشأته وهروبه من صور، ثم تحدث عن مارسيليا وعن وفاة أبويه، وحين بدأ في الحديث عن أخيه لينوس، خرجت كلماته مفعمة بالمشاعر، وفاضت عيناه بالدمع وهو يسترسل في الشعر، حتى بدأت الشمس في الغروب. رفع رأسه وتطلع نحو الأفق الذي عانق الماء، فسكنت روحه للمشهد المهيّب، وداعبت رأسه نسيمات الغروب، فاستلقى على ظهره ثم غاب في غفوة، لم يشعر بعدها إلا والهواء البارد يتسلل إلى جسده، وحلقه يتشقق بالسعال، قام ليعود إلى خيمته، وحين اقترب من الشاطئ، رأى أنوارًا تتلاعب في الظلام، وجلبة عند الشاطئ، استغرق وقتًا حتى أدرك أنها سفينة ضخمة قد رست لتوها وألقت مراسيها على الشاطئ. تعجب

من إبحار سفينة في هذا الليل في بحر الظلمات، اقترب ولكنه لم يكد يخطو، حتى تسمر في مكانه، فقد هبط عشرات الرجال في سرعة، وهم يحملون المشاعل، وكأنهم أرواح موتى فرت من البحر المظلم إلى اليابسة ، وقبل أن يستوعب عقله ما يحدث، قذف أحد الرجال بمشعل نار فوق أحد الأكواخ، فاشتعل في التواللحظة، وبينما كانت النيران تنتقل من كوخ إلى آخر، صرخ قدموس بأعلى صوت:

- هجوم!

(29) الإرهابي

في ليلة السبت، وفي تمام الساعة، كنت أرتدي معطفًا أسود طويلًا، ورابطة عنق حمراء اللون، وأحمل في يدي باقة ورد اخترتها بعناية، وأقف على ناصية شارع رو دي ثياتر فرانسيس المتفرع من شارع لاكانيير منتظرًا قدوم أبريال. كنت أتطلع إلى أزواج الرجال والنساء المتجهة نحو المسرح وقد تماسكت أكتافهم وتعاقدت سواعدهم، يستدفئون بحرارة القرب من برودة الجو وتفوح من ملابسهم الأنيقة روائح ديور وشانيل، التي أصبحت متيمًا بها. المشهد كله كان يبدو حالما كفيلم سينمائي، خاصة مع روعة مبنى المسرح ذي الطراز الروماني الذي انعكست أضواؤه على البساط الأحمر المنبسط أمام مدخله، فشعرت أنني في ليلة كرنفالية، تستحق العلامة البيضاء التي لونها على لوحة أبريال قبل أن أنزل. فجأة توقفت أمامي سيارة أجرة، ونزلت منها أبريال. اتسعت ابتسامتها حين رأت أثر الدهشة على وجهي، فقد كانت حقًا فاتنة. لو أن أحدهم حدثني قبل عام وقال إنني سأقضي سهرة مع امرأة كهذه في يوم من الأيام، لانهتته بالجنون. كانت ترتدي فستانًا أسود طويلًا، يظهر رشاقته، ويكشف عن جيد أملس ينساب تجويفه في تناغم مع ترقوتها التي تبرز كأجنحة مرمريّة أعلى صدرها، وينسدل شعرها الكستنائي حرًا خلف كتفها، وفوق جبهتها المضيئة. قدمت إليها باقة الورد، فضممتها إلى صدرها في سعادة، ثم احتضنتني في امتنان. ألقى علينا امرأة كانت تسير إلى جوارنا ابتسامة وكأنها تتمنى لنا السعادة في موعد خالته الأول بيننا. تأبطت ذراعي وسرنا نحو باب المسرح. دلفنا إلى البهو المبهر الذي طليت جدرانها باللون الذهبي، وكسيت كراسيه باللون الأحمر. ثم جلسنا على المقاعد المخصصة لنا في هدوء، تشممت الورد، ثم قالت وهي تهمس:

- رائع.

وبعد قليل بدأ عرض المسرحية التي كانت لحسن الحظ مسرحية بيجماليون لجورج برنارد شو التي مُصِّرت بعنوان سيدتي الجميلة في الستينيات من القرن الماضي، ورأيتها عدة مرات على التلفزيون. تعجبت أن المسرحية الأصلية كانت لا تثير الضحكات، بقدر ما كانت تثير الانبهار بالعروض الاستعراضية والموسيقى والأغاني. وأدركت عبقرية الفن حين يخاطب الإنسان، فيصبح من السهل أن تخلع عنه حلته الأصلية، وتلبسه حلة أخرى، لدرجة أن تصبح إيلزا دوليتل بطلة بيجماليون، صدفة بنت حسب الله بعضشي في سيدتي الجميلة. انتهى العرض، بعاصفة من التصفيق، وسألني أبريال وهي تصفق في سعادة:

- هل أعجبك العرض؟

- جدًا.

ارتدى الناس معاطفهم، وخرجوا إلى الشارع البارد الساكن في تلك الساعة المتأخرة من الليل، فأثار زحامهم فيه دفء الحياة بعد أن أغلقت محاله، ونام ساكنوه. اتجه البعض إلى مرآب السيارات، بينما استقل آخرون سيارات الأجرة التي بدأت في الظهور بمجرد انتهاء العرض وكأنها تعرف موعد انتهائه. كنت أشعر بامتنان حقيقي لأبريال. فأجمل ما في علاقتنا هو ذاك التآرجح بين لحظات رومانسية يرتجف فيها القلب وكأننا على عتبات الغرام، وبين لحظات المجون التي نغوص فيها إلى أعماق العشق، بغير التزام بيننا سوى كلمة الحب. توقفت أمامنا سيارة أجرة بعد أن أشرت إليها، ثم فتحت الباب وهممت بالدخول، ولكنها قالت في حنان:

- يمكننا أن نسير قليلاً ثم نستقل سيارة أجرة بعد ذلك.

أغلقت باب التاكسي وشكرت السائق الذي بدا أنه غضب من ترددي، فقال بغضب:

- عربي غبي!

اخرقت العبارة أذني، نظرت نحوه مندهشاً، ولكنه تحرك بالسيارة مسرعاً وتركنا ليبحث عن راكب آخر، ظننته مخموراً فتجاهلت الرد عليه. تجاوزنا الزحام أمام المسرح واتجهنا إلى نهاية الشارع المظلم إلا من إضاءات خافتة على واجهة المحال المغلقة، وسرنا وشعور بالغبطة يحتوينا. سألتني:

- هل تعلم لماذا أسمى برنارد شو الرواية باسم بيجماليون؟

- كلا.

- هي مستوحاة من أسطورة إغريقية لنحات اسمه بيجماليون، كان يكره النساء ويعيش وحيداً، ثم صنع تمثالاً لامرأة، أثارت الحب في قلبه، فعشق المرأة التي صنعها، وظل يترجى الآلهة كي تحيها ويتزوجها.

- وهل أحيتها الآلهة؟

- نعم.

- هذا حلم كل رجل شرقي، أن يصنع المرأة التي سيتزوجها بيده.

قالت ضاحكة هي الأخرى:

- بالتأكيد لأنها تلبي أحلامكم الذكورية.

فجأة سمعنا صوتًا، كأنه محرك دراجة بخارية يشق سكون الليل. انتبهنا، فقد كنا نسير في منتصف الشارع الضيق. أزحتها جانبًا بيدي، وما إن فعلت حتى أعمى بصري ضوء مبهر، فوضعت يدي على عيني، وفجأة انطلقت الدراجة بأقصى سرعة وسمعت صرخة أبريل وهي تقول:

- احترس يا عمر.

خطوت بسرعة جانبًا، فمرت بجانب الدراجة، لمحت عيني اثنين ملثمين، يقود أحدهما الدراجة، ويحمل الآخر بندقية آلية انطلقت منها عشرات الطلقات النارية، فملأت الهواء برائحة البارود، وملأت الفضاء بصراخ مريع.

كانت أبريل تجلس إلى جوار صامته في مخفر الشرطة، يبدو على وجهها الشحوب وكأنما نرفت نضارتها، ويكحل عينيها خوف لم أر مثله من قبل.

جلسنا على المقعد صامتين في انتظار التحقيق، وقد تعلقت أعيننا بشاشة التلفاز التي تعرض مشاهد لا تنقطع عن حادث الليلة. لقطات متكررة لواجهة مسرح الجمنازيوم المحطمة، وبقع الدماء الملطخة للأسفلت والجدران، وحواجز الشرطة التي أغلقت شارع رو دي ثياتر فرانسيس، لتمنع دخول الجماهير، ولقطات أرشيفية لمسيرات تدعو لوقف الإرهاب وطرده المسلمين، وصور لمشتبه بهم كلهم يحملون هيئة واحدة، وجوه غاضبة، وشعر أشعث طويل، وجباه سمراء، ولحي قصيرة وأخرى سابغة، وعيون حائرة تحيط بها هالات سوداء تخشى أن تنظر إلى الكاميرات. هيئة نمطية ترسخت في الذاكرة، وصارت ترمز إلى العنف إن استطاعت إليه سبيلاً. انقطعت الأخبار على نيا عاجل لمؤتمر صحفي لرئيس الشرطة. انتبهنا حين تحدث رئيس الشرطة للصحفيين، وأعلن عن العثور على الدراجة البخارية المستخدمة في الحادث، والقبض على اثنين من المشتبه بهم. تنفست الصعداء، وشعرت بانفراجة، وكأن سوءة الشك التي عرّاهها المحقق الذي طلب مني أن أرافقه إلى المخفر بعد الحادث قد سترت. ناداني ضابط كي أدخل إلى غرفة التحقيق، تركت يد أبريل التي كنت أتشبه بها. وبعد قليل كنت أجلس مع

اثنين من محققي الشرطة في الحجرة، ومعهما مترجم يتحدث العربية الفصحى، رغم أنني كنت أرد عليهما بالفرنسية. أخبرني المترجم بأن شهادتي ستكون مسجلة وأني أتحمل المسؤولية لو أدليت بمعلومات غير صحيحة، وجعلني أقر بالموافقة على ذلك. بدأت الأسئلة طيعية، عن مكان عملي، وسكني، وما الذي أتى بي إلى المسرح ليلة الحادث. ثم شيئاً فشيئاً أصبحت الأسئلة سخيقة ولا منطقية، أثارت ارتباكي رغم أنها لا تحتمل سوى إجابة واحدة بالنفي. أسئلة من نوعية: هل تشتبه في أحد بعينه؟ هل تعرف أي شخص له اتجاهات متطرفة في فرنسا؟ هل انضممت إلى جماعات أصولية في بلدك؟ أجبت بالنفي عن كل الأسئلة. حتى سألني أحدهما:

- أظهرت الكاميرات أنك كنت تسير في اتجاه منفاذي العملية، لماذا؟

- كنت أترجل مع صديقتي، وفجأة ظهرت الدراجة البخارية.

- هل رأيت وجهيهما؟

- كلا، كانا ملثمين.

- إلى أين كنت ذاهب؟

- كنا نتجول بلا هدف.

- شهد سائق سيارة أجرة بأنه قابل عربياً غريب الأطوار في موقع الحادث، هل حاولت ركوب سيارة أجرة ثم تراجع؟

- نعم.

- لماذا؟

قلت في توتر:

- كنت أريد التجول مع صديقتي كما قلت!

ثم قلت للمترجم بالعربية متلمساً منه بعض الدعم، والطمأنينة:

- لماذا يسألني وكأنني متهم؟

فترجم الرجل سؤالي، وكأنه ليس مسموحاً له بغير الترجمة. فأجاب المحقق بلهجة لم أرتج لها:

- لا تقلق، أنت مجرد شاهد حتى الآن.

ثم أردف في خبث:

- أليس عجيبيًا أنك لم تصب رغم أنك كنت تقف أمام القتلة مباشرة؟
أصابتني عبارته بعصبية، وشعرت بجبيني يتعرق، فقلت:

- أشكر الله أنه لم يقتلني!

قال بغير اكتراث:

- ما هي طبيعة علاقتك بالسيدة أبريال؟

- تربطنا علاقة عمل وصداقة.

قال بعد صمت:

- أخبرتنا السيدة أبريال بأنها رأت رقمين من لوحة الدراجة البخارية، هل رأيت
أيًا من أرقامها؟

- كلا.

نظر نحو زميله، ثم قال:

- نشكرك يا سيد عمر. ولكن أحب أن أخبرك بأن التحقيق لا يزال مفتوحًا، ولا
يمكنك مغادرة مارسيليا إلا بعد انتهائه.

خرجت، وفي نفسي شعور سيئ. اقتربت من أبريل، التي كانت لا تزال
مصدومة فضمامتها إلى صدري، ثم خرجنا من المخفر، وبينما كانت سيارة
الأجرة تسير بنا نحو بيتها، ألقت برأسها على كتفي وهي تقول في شرود:

- لماذا يكرهوننا؟

مررت أصابعي بين خصلات شعرها، ثم قبّلت رأسها، ولذت بالصمت. وصلنا
إلى البيت، وكان الجهد قد بلغ منا مبلغه، قضيت الليلة في فراشها، ورغم
الخوف والقلق، رحنا في نوم عميق مضطرب، اقتسمنا فيه أحلامًا بائسة،
وكأنما التحفنا عباءة الخوف سويًا.

وفي الصباح عدت إلى منزلي، لأجد مفاجأة في انتظاري، كانت السيدة كلير
تقف في مدخل البناية، ويبدو عليها الذعر وحين سألتها عما حدث، قالت في
خوف:

- قبضوا على أحمد رحمانى.

القصاص

امتلأت القرية بالصراخ، صرخات خوف، وصرخات ألم، وصرخات البوق التي أطلقها المهاجمون لإثارة الذعر، كان الكل يجري في هلع على غير هدى مبتعدًا عن تلك الأشباح الملتمة التي كانت تضرم النار في الأكواخ، وتطعن الفارين بلا رحمة. ارتعدت ساقاه اللتان تبيستا في مكانهما، وهو يتوقع أن تأتيه الطعنة من أي اتجاه. ولكنه لم يلبث أن أسقط رداء الخوف، وقفز على أحد المهاجمين، واشتبك معه. انكشف اللثام عن وجه الرجل وظهرت ملامحه في ضوء المشعل الذي سقط من يده المكبلة بكف قدموس. شعره الطويل الثائر وملامحه السمراء كانت تشبه البربر، دفعه الرجل من فوقه، واستل خنجرًا يريد أن يطعنه به، ولكن المشعل المتأجج الذي ألقاه قدموس، كان أسرع إلى وجهه، فصرخ مبتعدًا وهو يحاول أن يدفع النار عن وجهه المحترق. جلس رعب وهو يرى النيران تأكل كل شيء في الحي، الأكواخ الخشبية، مغازل الشباك، المراكب الصغيرة للصيادين، أي أرواح شريرة تلك التي لفظها البحر على القرية الآمنة، فعانت فيها فسادًا، وأهرقت الدماء، وجعلت القرية تضيء ليلاً بالنيران. جرى في سرعة، واختبأ خلف جدار يطل على ساحة القرية. قرر أن يتحين الفرصة ليهرب إلى معسكر المعلم بيثياس. تعجب كيف لم تثر تلك الجلبة انتباههم في المعسكر؟ وكيف لم يتحركوا لنجدة أهل القرية حتى الآن؟

نظر إلى الساحة التي توافدت عليها طواير الأسرى من الصيادين، وقد جلسوا القرفصاء وحولهم عشرات الملتمين، يحملون الحراب والسيوف. فجأة رآه يدخل إلى الساحة المشتعلة بالنيران، كاشقًا عن وجهه، وكأنما انبعث من الجحيم، وخلفه عدد من إخوة بيثاغورس والبربر. مزق صوت البوق سكون الساحة، ونادى أحد الملتمين في أهل القرية بلغة السلت حتى يفهمه الجميع، قائلاً:

- بأمر زعيمنا المعظم أنجوس، نعلن أن الرأس المقدس قد صار ملكًا لإخوة بيثاغورس وأнна أصحاب الأرض الجدد، فمن قدم الولاء لنا فهو في أمان، ومن رفض فالقتل مصيره.

ثم أشار الرجل إلى حارسين أمسكا بحاكم القرية، ثم دفعاه وأجلساه قهراً أمام قدمي أنجوس. ثم قال البربري:

- هل تقر بالولاء للمعلم أنجوس زعيم الإخوة؟

ترجم أحد البربر الكلام، فقال الرجل بثبات:

- لا أقر بالولاء للص وقاطع طريق!

هز أنجوس رأسه في أسف، ثم أشار إلى الرجل الواقف خلف الحاكم، فاستل الأخير سيفه، ثم جز به عنق الرجل وسط صراخ النسوة وبكاء الرجال. ثم أتى اثنان آخرا بابين الحاكم الذي كان يرتعد خوفاً، وأجلساه أمام قدمي أنجوس، ثم كرر عليه الرجل السؤال:

- هل تقر بالولاء للمعلم أنجوس؟

هز الشاب رأسه في رعب، وقال:

- نعم.

قال أنجوس:

- أحسنت أيها الشاب، بقي سؤال آخر، كي تنقذ عنقك. أين ذهب بيثياس المارسيلى؟

وبينما كان المترجم ينقل كلام أنجوس، إذا بالميدان ينقلب بالهرج، وقد اخترق المعلم بيثياس الميدان على صهوة جواد ومعه القائد فيلون، وفرسان مارسيليا وجميع البحارة. اشتعلت الساحة بالاضطراب، وضجت بقعقة السيوف، وغادر قدموس مكانه والتقط سيقاً من الأرض ثم ألقي بنفسه في الوحى، كان يطعن بعنف كل من يقابله من البربر الملتهمين، وعيناه لا تغادران أنجوس الذي كان يحصد الأرواح بسيفه، انتهى من أحد البربر، ثم اتجه إليه، تلاقت أعينهما، وعلت الدهشة وجه أنجوس حين فوجئ به أمامه، انهالت ضربات قدموس، حاملة معها كل كراهيته، ورغبته في الانتقام من أنجوس، ولكن الأخير كان يصدها ببسر رغم شعوره بالتعب من كثرة المبارزة. فجأة ظهرت أيولا في الساحة، وهي تهول باحثة عن قدموس. تجاوزت حوافر الخيل، ونصال السيوف، ودارت بعينها في الميدان إلى أن رأت فوق ربوة يبارز أنجوس ببأس وقوة. خفق قلبها في رعب، تجسدت أمامها آخر كلماته: «لن يفرقنا إلا الموت» لم تحتمل أن ترى مصرعه أمامها، فهولت إلى الربوة وهي تصرخ:

- قدموس.

اخترقت كلمتها الهواء فشقت قلب أنجوس. التفت نحوها مذهولاً! اختلج وجهه حين رآها، وارتعشت شفتاه وهو يهمس:
- أيولا!

ولكنها كانت آخر كلمة ينطق بها. فقد انكشف صدره أمام قدموس الذي جمع كل قوته في طعنة اخترقت صدره فحطمت ضلوعه، ونفذت إلى قلبه. اتسعت عيناه دهشة، وكأنه يتعجب أن يتجرأ عليه الموت، أو أن يموت على يد شاعر متهتك كان يستطيع سحقه كذباب، تشنج وجهه وكأنه يرفض الألم! فعاجله قدموس بطعنة أخرى جعلته يتقيأ الدماء من فمه، أدرك أنه على أعتاب رحلة النهاية! تجاهل شعور الألم، ونظر نحو أيولا! ملأ بصره بوجهها للمرة الأخيرة، لو يتمنى شيئاً في هذه اللحظة، لتمنى أن تمسح على رأسه، أسلم روحه للموت، وهو يرجو أن يعود في صورة كلب يجثو تحت قدميها ويعيش وفيًا لها طيلة حياته.

وأشرقت الشمس على الرأس المقدس وقد دنستها الدماء لأول مرة في تاريخها، عشرات القتلى من البربر اختلطت دماؤهم مع دماء الصيادين، وقد افترشت أجسادهم ميدان المعركة. بينما اكتظ الميناء بأهالي القرية الذين حاصروا الأسرى من البربر وإخوة بيثاغورس، ولولا القائد فيلون ورجاله لفتك شباب القرية الغاضب بهم.

وانتهى رجال المعلم، من حفر مقبرة كبيرة أمام الساحل، أحرق فيها جثمان أنجوس ورجاله، بينما أعد مقبرة أخرى دفن فيها جثامين القتلى من أهالي القرية وجثمان الحاكم وقد التفت بثياب بيضاء معطرة بالزيوت، ومؤطرة بالورود. وقف المعلم حزيناً أمام المقبرة، وخلفه العشرات من رجال الحملة، وأهالي القرية الذين حملوا البخور المقدس والمشاعل التي ستقود أرواح القتلى إلى العالم الآخر. وحين شرع الرجال في إهالة التراب فوق مقبرة الأهالي صرخت النسوة، ولطمن خدودهن وهن ينشدن المراثي، ويرسلن الأنين مع هبات الريح إلى البحر الكبير. وتحدث المعلم بيثياس، قائلاً:

- إن الدماء التي تراق ظلمًا، عار على مهرقها، ولا يحملن الإنسان معه بعد موته إلا ما قدم من عمل، فطوبى لمن خرج من الحياة وروحه لم تلتخ بظلم. أما من اعتدى، وظلم، وأطفأ نور الحياة في قلوب الآخرين، فليعلم أن العذاب الذي قد لاقاه بأيدينا أهون من العذاب الذي ينتظره عند الصانع

الأول؛ فهو العدل الذي لا يظلم، والحكم الذي لا يخطئ والصانع الذي أتقن صنعته!

وبعد أن انتهت الجنازة، عادت أيولا وقدموس إلى خيمتهما في صمت ثقيل، كان قدموس عاجزاً عن الكلام، يرتعش قلبه بالغضب، وتختنق روحه بالحزن على أهالي القرية الآمنة التي غدر بها البربر وإخوة بيثاغورس. أما أيولا فقد عادت بانكسار حينما رأت دعاة الإخوة، وشبابها، يصفدون بالحبال جنباً إلى جنب مع البربر، يهانون في أسرهم من أهالي القرية، وينتظرون ما يحكم به المعلم بيثياس في الصباح.

وفي اليوم التالي دعا المعلم بيثياس وكذلك القائد فيلون، وأوتياس كبير البحارة وقدموس لعقد محاكمة للمعتدين. أرادت أيولا أن تحضر، ولكن قدموس رفض وقال:

- لست مدعوة يا أيولا.

قالت في حدة:

- تحكمون على أهلي وأنا هنا!

- ليسوا أهلك يا أيولا! هؤلاء قتلة!

قالت في حدة:

- أنجوس والبربر هم القتلة، لم يمسك أحد من الإخوة سيقاً.

قال في غضب:

- ولكنهم دفعوا الأموال لأنجوس من أجل ذلك ورافقوه حتى هنا. ويستحقون العقاب مثله!

قالت في ذهول:

- أتحكم على أهلي بالقتل؟!

تماسك قليلاً وهو يقول:

- أنا لا أحكم على أحد، ولكن ما يحكم به المعلم بيثياس نافذ، ولو أمر بقتلهم أجمعين.

اتسعت عيناها في ذهول، وقالت:

- كيف تقسو على أهلي هكذا؟

قال في حسم:

- ليسوا أهلك يا أيولا، ولا تغادري الخيمة حتى أعود،

وهذا أمر!

وفي خيمة الاجتماع، جلس المعلم وإلى جواره أوتياس وفيلون وقدموس، بينما كان إخوة الحاكم وأبناءؤه يجلسون أمامهم. ترجم مكاربوس كلمات المعلم قائلاً:

- أنتم أولياء الدم، والمدعون، وقد اعتدى هؤلاء الرجال على أرضكم، وقتلوا منكم عددًا كبيرًا، فماذا تريدون؟

قال أخو الحاكم الأكبر سنًا، وقد بدا أنه اتفق مع العائلة على رأي موحد:

- لقد ذبح هؤلاء الناس حاكمنا وقتلوا أهلينا، وأحرقوا ديارنا ومراكبنا، وجزأؤهم من جنس العمل!

قال المعلم:

- ماذا تقصد؟

- أن يقتلوا جميعًا أو أن يحرقوا جزاءً لما فعلوا.

صرخت أيولا التي كانت تنتصت خارج الخيمة، حين ترجم مكاربوس الكلام، واندفعت قائلة:

- كلا!

جن جنون قدموس، وقال في غضب:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

أشار إليه المعلم بيثياس كي يصمت، ثم قال في هدوء:

- اجلسي يا أيولا!

ثم قال:

- لماذا تدافعين عنهم يا أيولا؟

قالت مرتجفة:

- في شريعتنا من قتل فقد ارتكب أفظع الآثام ويردُّ بعد موته في أحط الصور، ومن أمر بالشَّرِّ فقد فعله، وعليه أن يتطهر، ليس بالقتل وإنما بإصلاح النفس، هذا ما ورثناه عن المعلم بيثاغورس يا سيدي.

هز المعلم رأسه نفياً وقال:

- كلا يا أيولا، القصاص هو الناموس الأعظم، وهو ما يضمن العدل ويردع الظالم قبل أن يأتي بالظلم. ولا قصاص إلا من جنس العمل.

- لو كان القصاص من جنس العمل، فالإخوة لا يستحقون القتل، لم يمسك الإخوة سيفاً، والبرابرة هم من قتلوا، فهل يستوي من قتل مع من لم يقتل؟! اشتعل قدموس غيظاً، بينما صمت المعلم قليلاً قبل أن يلتفت إلى أوتياس ويقول:

- ما رأيك يا أوتياس؟

- يقتلون جميعاً كما قال أولياء الدم.

قال المعلم:

- وأنت يا فيلون ماذا تقول؟

- أرى أنهم ليسوا سواء يا سيدي! فمن أحرق وقتل وجرح، هم البربر، وجزاؤهم القتل، أما الإخوة فلم يقتلوا، ولكنهم يستحقون عقاباً دون القتل!

نظرت إليه أيولا بامتنان بينما سأله المعلم:

- ماذا تقصد بعقاب دون القتل؟

- تسلب أموال الإخوة ويعوض بها أهالي القرية وتؤخذ سفينتهم غنيمة لنا، فقد أصيب منا رجال، ولن يستطيع أهالي القرية أن يصنعوا سفينة لنا بعد أن أحرقت الأخشاب والمراكب.

تنفست أيولا الصعداء وقد أحست بأن القائد فيلون قد انتشلها من الغرق ولكنها ارتبكت حين قال المعلم بيثياس:

- وأنت يا قدموس، ماذا ترى؟

ابتعد ببصره عن أيولا ثم قال:

- الأمر لأصحاب الدم يا سيدي، ولهم أن يختاروا القصاص كما يشاءون.

شهقت أيولا، غير مصدقة بينما قال المعلم:

- وهل يتساوى الإخوة والبربر في العقاب؟

حانت منه التفاتة نحو أيولا التي كانت تتعلق به عيناها، فقال:

- لولا أفكار الإخوة لما كان أنجوس، ولولا أموالهم لما أتى البربر إلى هنا.

سالت الدموع من عينيها، غير مصدقة، تمنّت لو تصرخ: «أنت يا قدموس؟»، ولكنها صمتت حتى قال المعلم لإخوة الحاكم القتل:

- هل ترضون حكمي؟

قالوا جميعا:

- نعم أيها المعلم.

- لقد استخرت ضميري وخيرني بين العذاب والأخذ بالحسنى، فأما البربر فقد ظلموا وقتلوا، وعقابهم القتل، وأما الإخوة فعلى كل واحد منهم أن يدفع مائة دراهمة، فداء لنفسه، ومن لم يجد يصير عبدا لأهالي القرية، وأما السفينة فهي لنا حتى نعود من الرحلة، فإذا عدنا إلى هنا فهي لأهالي القرية يفعلون بها ما يشاءون. فهل توافقون؟

قالوا جميعا:

- نوافق أيها المعلم.

لانت ملامح أيولا، وطفرت دموع الفرحة من عينيها، ثم كفكت دموعها وقالت:

- أشكرك أيها المعلم، ولكن اسمح لي بطلب أخير.

قال لها:

- ما هو؟

- سوف أفدي نفسي، وأرحل مع جماعتي عن هنا!

غاية ووسيلة

صعدتُ إلى حجرته التي تُرك بابها مفتوحًا، كانت أوراقه، وكتبه وملابسه، مبعثرة على الأرض، وقد بدأ أن الحجرة قد تعرضت لتفتيش دقيق. شعرت بالأسف عليه، رغم أنني كنت على ثقة من أنه سيُطلق سراحه بعد استجوابه، فأنا لا أتخيل أن يشارك هذا الشاب الوديع في حادثة كهذه. لفت نظري عدد المجلة الذي أعطاه لي من قبل ملقى على الأرض، وقد عبث تيار الهواء القادم من النافذة المفتوحة بها، وفتحها على صفحة مطوية من حرفها، تحمل عنوان «مخاطر الوجود من منظور الأديان، أحمد رحمانى»، تطلعت إلى اسمه بحزن، ثم حملت المجلة في يدي، وأغلقت النافذة، وعدت إلى شقتي.

مرت أيام، ولم يخرج أحمد رحمانى من المحبس، شعرت بالألم حين نشرت الصحف صورته، ضمن آخرين، وأشارت إلى أن هؤلاء ثبت تورطهم في الحادثة. قرأت تفاصيل الخبر المكتوب، فلم أجد دليلاً سوى أن أحمد كان يتردد على ذات المسجد الذي كان يتردد عليه المتهمان الأساسيان في الجريمة. تعجبت من هذا الغبن، وتعجبت من حال الزملاء في القسم، الذين مالوا إلى تصديق الاتهام رغم معرفتهم بأحمد رحمانى، لم أجد سوى الدكتور سلطان كي أبته دهشتي على استحياء، قلت له:

- لم أتخيل أن فرنسا دولة الحريات، بهذا التعسف.

- الحرية صكٌ يمنح لمن يستحق.

- ولكنني لا أتخيل أن رحمانى متورط.

- ولكنه وضع نفسه في دائرة الشبهات.

- كيف؟

- حذرته من هيئته، ومن ترده الدائم على المسجد، لا يمكن أن يعيش في الغرب بهوية شرقية.

- كنت أظن أن النظام هنا يستوعب الاختلاف ويحترمه.

- لا يوجد نظام في الكون قائم على الاختلاف. إما أن تكون جزءًا منه أو خارجه!

ثم أردف:

- اسمع يا عمر، الأفكار مثل الكائنات الحية، إذا عجزت عن التكيف مع البيئة التي تحيط بها تموت وتنقرض. وللأسف نحن الشرقيون نحمل إرثًا باليًا لو لم تتخل عنه للفظنا العالم.

سألته:

- هل هناك محام للدفاع عنه؟

- لم تهتم سفارته بذلك، ولكن المحكمة ستعين له محاميًا للدفاع عنه.

قلت ساخراً:

- محام من الجهة التي تحاكمه!

- هذا هو القانون!

لأول مرة أشعر بعدم الأمان، وتذكرت التحقيق الذي جرى معي، ربما لو لم تكن أبريال برفقتي، لرأى الضابط أنني أستحق الاعتقال لحين الانتهاء من التحقيق. ما أقبح التعميم حين يسحق في طريقه أنفساً بريئة.

شغلني البحث الذي نقوم به، عن متابعة الأخبار اليومية وفقدت الاهتمام بتطورات القضية أمام سيل البيانات التي كانت ترد إلينا يومياً من المراكز البحثية الممتدة من اليابان وحتى ألاسكا. لاحظنا أن معدل الموجات الزلزالية في القشرة الأرضية قد زاد بمعدل سبعة بالمائة على طول صدع الصفيحة الأوراسية، كانت هذه النسبة تمثل إنذاراً في المؤشر الذي وضعه لنا الدكتور سلطان. دعانا الدكتور سلطان، إلى اجتماع طارئ، عرض فيه كل عضو من أعضاء الفريق النتائج المرصودة طيلة الأسبوع. أشار أحد الباحثين إلى وجود زيادة في معدل الضوضاء حول الصدع في اليابان، وأشار آخر إلى وجود تغيرات في مستوى المياه الجوفية، وجفاف بعض الآبار على حدود تركيا، أما هاجلند، فقد أشار إلى زيادة نسبة غاز كبريتيد الهيدروجين، فوق سواحل ريكيافيك في آيسلندا. كانت هذه المعلومات مجتمعة تشير إلى أن حدثاً قريباً سوف يقع في مكان ما على طول الصدع، ولكننا لا نعرف متى أو أين سيقع. طلب منا الدكتور سلطان متابعة الأمر لحظة بلحظة، وأنشأ غرفة للمتابعة، في مرصد مارسيليا للتواصل مع جميع المراكز البحثية المشاركة، وكنا نتناوب على العمل بها على مدار الساعة. كنت أقضي اليوم في المعمل منغمساً في تحليل مئات الإشارات والبيانات الواردة، وأعود إلى منزل أبريل في المساء، فنتناقش في أمر شركتها الصغيرة، التي بدأت في تأسيسها.

ومر الشتاء ببطء كمن يخشى أن يفسد شيئاً في طريقه، ولكنه قبل أن يمضي أبى إلا أن يأتي بأحداث أعادت الصخب إلى حياتي. اتصلت بي أبريل في العمل وطلبت مني أن أمر عليها في التو والحال. تركت العمل، وذهبت إليها متلهفاً وجلاً، رغم أن صوتها كان هادئاً. حين فتحت الباب استقبلتني بالعناق، ثم أخبرتني بأنها حامل. خرجت الكلمة من فمها ببساطة، ولكنها وقعت على مسامعي بوقع أعمق من الخوف. لم أتخيل أن ينقلب الحب بيننا فجأة إلى شيء بهذه الجدية، أو أن يتحول من لحظات من السعادة نتشاركها، إلى حياة جديدة تتشكل، وجنين ينمو في أحشائها. لم أدر ماذا أقول، سوى أن أكرر كلمتها:

- حامل؟! -

قلتها بذهول لم تر فيه الفرحة. فقالت واجمة:

- لا تبدو سعيداً.

قلت متردداً:

- أليس قراراً متسرّعاً أن ننجب طفلاً؟

- أنا لم أعد صغيرة يا عمر.

- ألم يكن من الأفضل أن تخبريني؟

- أعلم أنك لا تخطط في هذه المرحلة كي تكون أباً، ولكن صدقني يا عمر، لقد كان حلمي أن أنجب طفلاً من رجل أحبه، وحين قابلتك أردت أن تكون أنت هذا الأب.

هربت من عينيها وأنا أخفي ضيقي، فأحاطت وجهي بيديها وقالت:

- ألا ترغب في إنجاب طفل مني؟

تنهدت ثم قلت:

- بلى أرغب في ذلك يا أبريل.

ثم ابتسمت محاولاً إظهار الفرحة، رغم إحساسي أنني أسير على طريق لا أعرف نهايته ولا أستطيع الهروب منه. نخسني شوك من طين بلدتنا لم أدر كيف علق بأقدامي حتى هذه اللحظة، وجعلني أشعر بالغثيان أن يكون طفلي الأول ابن سفاح. تذكرت أمي، وأختي، ومندور، وأهل القرية وانتابني شعور

بالخزي، وكأنني عذراء محملة بالخطيئة! سخرت من شعوري، رغم خوفي منه. وخطر لي أن أسألها:

- لماذا لا نتزوج يا أبريل؟

- تقصد أن نكتب عقدًا؟

- نعم.

- بيننا طفل، وهذا أقوى من أي عقد.

- ولكنه طفل غير شرعي!

- ما دام كلانا يعترف به فهو شرعي!

لأول مرة أشعر أن بيني وبين أبريل هوة سحيقة من الاختلاف، وكأننا نقف على طرفي واد تعصف فيه الرياح. كنت أعلم أن رغبتها في الحب، والإنجاب أكبر من رغبتها في الزواج، وأن شرعية العلاقة أمر لا يعينها بقدر ما تعينها ثمرتها، ولكنني على أية حال شعرت بالضالة حين تجاوزتني، وكرهت عبارتها: «قررت أن تكون أنت هذا الأب»، وكأنها تنتقي لسلالتها من تشاء! تركتها وعدت إلى شقتي في لوبانير، عاودتني آلام الرأس، وتزايدت رائحة الكبريت في أنفي، فتيقنت بأنني أسير حالة نفسية، تضطرب لها حواسي كلما اضطربت مشاعري. بحثت في أدراج مكتبي عن حبة دواء للصداع، فوجدتها، تناولتها بغير ماء، وقبل أن أغلق الدرج مرة أخرى، رأيت مجلة أحمد رحماني، فقررت أن أقرأ المقال. صنعت لنفسني كوبًا من القهوة الساخنة، ثم استرخت على المقعد وشرعت أقرأ. لم أتخيل أن تتلعني كلمات المقال وأنا أشعر مع كل فقرة بأنني أتفكك وبعاد ترتيبي، فأنا لم أنظر إلى مخاطر الوجود من هذه الزاوية من قبل، لم أتخيل أن الزلازل، ونسف الجبال، وخروج الحمم من باطن الأرض، وصدع الأرض، والرجفة، وانفجار البحار واشتعالها هي أكثر المخاطر الكونية التي تنذرنا بها السماء! وكأنها رسالة تحذير من ذلك الخطر الذي يمكن أن يقضي في لمح البصر على حضارة بنيها في آلاف الأعوام.

أخافتني كلماته حين ربط بين تلك المخاطر وبين فناء شعوب وحضارات سابقة، وكأنما كُتب على هذه الأرض أن تعود إلى حالة ضبط المصنع كل فترة. تعجبت كيف استطاع هذا الشاب، أن يربط بين هذه الأشياء وبين دراسته العلمية بسلاسة ويسر مخيفين. تذكرت يوم حاجت شيخ المسجد في المنصورة، وسألته: كيف؟ فقال لي مغلقًا باب النقاش: في الدين لا تسأل بكيف؟ ولكن رحماني سأل بكيف، ووصل إلى إجابة أقنعتني وأفزعنتني. كانت

كلماته أكثر رعبًا من كلمات الشيخ وهو يصف ما ينتظر العالم لو وقع انفجار لبركان عملاق، يمكن أن يغير معالم الأرض ويدخلها في عصر جليدي جديد، أو ضربت سواحل موجات مد عاتية، تغرق في طريقها ملايين البشر، وعشرات البلدان. واقشعر بدني حين ختم مقالته قائلاً: «في هذا الكون الفسيح يدرك الإنسان ضعفه، فما نحن إلا كائنات هشة في كون لا يكثرث، وما بين الخوف والرجاء يبقى وجود خالق هو الأمان الوحيد في هذا الكون».

طويت المقال، وجلست أتفكر، فجأة رن جرس الهاتف، تعجبت أن يتصل أحدهم بي في هذا الوقت المتأخر، وحين رفعت السماعة، وجدت الدكتور سلطان، يقول لي بلهجة أمره:

- انزل يا عمر، أنا بانتظارك في السيارة أسفل البناية.

بعد قليل كنت إلى جوار الدكتور سلطان في سيارته الفارهة، كان يرتدي معطفًا أسود، ويحيط عنقه بوشاح من الصوف، أمر السائق بالتحرك، ولاذ بالصمت حتى وصلت السيارة إلى الميناء الخالي من المارة في تلك الساعة من الليل. توقفت السيارة، ففتح الباب ثم ترجل نحو رصيف الميناء، سرت وراءه، ووقفت خلفه وهو يتطلع إلى صفحة القمر التي تدنو من الماء، وزبد الموج المتتابع المصطدم بالشاطئ. قال من دون أن ينظر نحوي:

- كيف حال أبريال؟

ابتلعت ريقِي، ثم قلت:

- بخير.

- أعلم أنكما قد صرتما أصدقاء.

استجمعت شجاعتي وقلت:

- نعم.

- لماذا لا تعيشان سوياً؟

- لأنني لست جاهزًا للانتقال إلى شقتها.

صمت قليلاً ثم استدار نحوي وقال:

- اسمع يا عمر، لقد كنت على علاقة بأبريال منذ عشرين عامًا أو يزيد!

قلت بهدوء:

- أعرف.

تابع:

- علاقة انتهت بالنسبة لي منذ سنوات طويلة، ولم يتبق منها سوى مشاعر احترام لامرأة تقدرني. لكن أبريال لم تستطع أن تفرق بين سلطان الشاب الذي وقعت في غرامه قديمًا، وسلطان الحالي، ولم تفهم أن المشاعر كالأنهار، تتغير مساراتها مع مرور الزمن، ولكن التبديل لا يعني بالضرورة الكراهية.

- ولماذا تخبرني بهذا؟

- لأنني لا أريدها أن تستخدمك أداة.

- أداة لماذا؟

- للانتقام مني، أو لمعرفة أسرار عن عملنا!

- تقصد عن مشروع الشفق القطبي.

رأيت على وجهه الدهشة، فقال:

- إذن فقد أخبرتك! هل أعطتك الأبحاث أيضًا؟

لم أفهم ما يقصده، فقلت:

- أي أبحاث؟

صمت قليلًا ثم تابع:

- اسمع يا عمر، هل سألت نفسك لماذا أستعين بك وبأحمد رحمانى رغم أن عشرات الباحثين من جميع أنحاء العالم يتمنون أن يكونوا ضمن فريقى؟

لم ينتظر الإجابة، بل تابع:

- لأن جزءًا منى ينتمى إلى عالمكم ، عالم الجنوب، بفقره، وجهله وتحدياته، ولأنى مؤمن بأنه لا سبيل لتقليص الفجوة الواسعة بين الشمال والجنوب إلا بإتاحة الفرصة لأمثالكما. ولكن هل تدري ما الفرق بينى وبينكما؟ الفرق أننى قد نشأت طفلًا في الغرب، ففهمت آليات هذا العالم، أما أنتما، فلا زلتما تحملان سذاجة الشرق. سذاجة من فر من أبويه وهو يظن أن الشارع سيكون أرحم به منهما!

ثم نظر إلى البحر وكأنه يناجيه وقال:

- لم يكن طريقي سهلاً، ولكني تحدت الظروف، لم أستسلم لمصيري بوصفي ابن أحد المهاجرين في حي شارت. ولم أنظر إلى أقراني في ذلك الحي، بل كنت أنظر دومًا إلى أبناء الطبقة العليا وأقول: ما دمت أتنفس مثلهم الهواء نفسه، فلا بد أن أتفوق عليهم. نجحت، وتفوقت عليهم في مجالي، وحصلت على أعلى الأوسمة العلمية في أوروبا، ثم قررت أن أكون الأفضل في العالم لا لشيء، إلا لأصبح نموذجًا يفتح باب الأمل، لكل من يشعر بالعجز، من أمثالك أنت ورحماني. ثم التفت نحوي وقال:

- اسمع يا عمر، مشروع الشفق القطبي هو مشروع القرن القادم! ويجب أن يسانده العلماء بكل قوة بمن فيهم أنت!

- ما دام بهذه الأهمية، لماذا يحاط بهذه السرية؟

- لأن هناك أمرًا يجب التأكد منها أولًا، قبل كشف جميع التفاصيل.

ثم أردف:

- كانت القوة قديمًا لمن يحتل الأرض، ولكن القوة الآن لمن يتحكم في السماء، هل تتخيل ما الذي يمكن أن يحدث لو تحكمنا في طبقة الأيونوسفير في الغلاف الجوي؟ ستحدث ثورة غير مسبوقه في الاتصالات الرقمية، ستنقل ملايين الشفريات في الهواء، من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق في أقل من جزء من الثانية، سنحتمي الأرض من الأشعة الكونية، سنتحكم في سقوط الأمطار، واتجاه الرياح، وضربات الصواعق، وقوة الرعد، وسيسيطر الإنسان على السماء التي تخيفه بل وستصبح غطاءه الآمن في هذا الكوكب.

قلت متوجسًا:

- ولكن أليس من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى كوارث؟

قال بحماس:

- هذا ما لا يفهمه الكثيرون يا عمر، لا يوجد دواء ناجح بغير أعراض جانبية، وما تقوم به أنت وباقي الفريق هو ما يساعد على تقليص تلك الأعراض.

قلت مندهشًا:

- إذن فالهزات الأرضية والتغيرات التي رأيناها تحدث على طول الصدع هي من جراء التجارب في هذا المشروع؟

قال وكأنه لا ينفي ما حدث:

- ربما.

ثم أردف:

- ولنفرض أن زلزالاً مثل زلزال أزميد في تركيا، أو زلزال كرمان في إيران كان بسبب هذه التجارب، أقول -لنفرض- أليس هذا ثمنًا بخسًا ندفعه من أجل حياة أفضل لمليارات البشر من الأجيال القادمة؟

قلت مذهولاً:

- هذا مخيف!

- ولكنه قابل للسيطرة، وقد رأيت بنفسك، واستطعنا أن نضع مؤشرًا يخبرنا متى تقترب الأمور من مرحلة الخطر.

لم تحتمل قدرتي كل هذه الأسرار التي أفضى بها، وخشيت أن يكون وراء هذا البوح طلب يفوق قدرتي على الاحتمال، فقلت:

- لماذا أخبرتني بكل هذا مسيو سلطان؟

صمت قليلاً ثم قال بكلمات واضحة:

- لقد سرقت أبريل نسخة من دراساتي غير المنشورة حول هذا الموضوع. ولا أستبعد أن تسربها لأية جهة انتقامًا مني!

قلت مسرعًا:

- مستحيل! لا أصدق أن أبريل تسرق.

- إذن اطلب منها أن تعيد الرسائل التي تحتفظ بها، فالأمر لا يحتمل عبث امرأة فقدت عقلها.

ثم أردف:

- أو أعدها أنت من دون أن تخبرها.

- لا يمكن أن أخونها.

- اسمع يا عمر، هذه الدراسات هي جهد سنوات لي ولزملائك، ولو قام مركز آخر بنشرها قبلنا سنفقد الأسبقية، وقد تفقد شرف وجودك في فريق مرشح للحصول على جائزة نوبل.

- سأخبرها، ولكنني على يقين من أنها لم تفعل.
- هز رأسه، ثم أردف في شيء من التهديد وهو يتجه نحو السيارة:
- أرجو أن تنجح في إقناعها، فأنا لا أريد أن تتفاقم الأمور.
- لا أدري لماذا قلت له في تحدٍ بعد أن أولاني ظهره:
- مسيو سلطان! أبريل حامل بطفلي.
- كان قد فتح باب السيارة، فتوقف حين سمع جملتي، والتفت نحوي مندهشًا وعلى شفثيه ابتسامة باهتة، ثم قال:
- حامل؟ مبارك يا عمر!
- وبعد أن جلس وأغلق الباب، فتح زجاج السيارة، ثم قال وكأنه يقذف بي في لجج البحر المظلم ورائي:
- هل أخبرتك أبريل بأنها يهودية؟!

نهاية وبداية

تحركت قافلة الإخوة نحو الشرق، تتقدمها امرأة شاحبة الوجه ترتدي زيًا أبيض يكشف عن بطن صغير منتفخ وتزين صدرها قلادة خماسية، غادرت الأرض بخطوات ثابتة، من دون أن تلتفت ورائها، ومن دون أن تنظر إلى الربوة التي وقف عليها قدموس، وهو ينظر إليها حتى غابت عن البلدة التي وأدت حبهما وغريت فيها شمسبه للأبد. كان يخشى أن يفرقهما الموت، ولكنه أدرك أن فراق الأحياء أقسى وأوجع. تذكر وداعهما المؤلم، الذي لم يشفع فيه رجاء ولم يرده لوم. قال لها متهما:

- كيف تغدرين بي؟!
- بل أنا أوفى الناس لك!
- تتركينني وتدعين الوفاء.
- الأمر بيدك، يمكنك الرحيل معي!
- لن أترك المعلم بيثياس لأعيش بين إخوة بيثاغورس.
- وأنا لن أترك جماعتي لأعيش بين الغرباء.
- هل تعذبينني بالاختيار؟
- ليس عليك الاختيار، فأنا قد اخترت!
- تعاهدنا ألا نفترق.
- طريقنا ليس واحدًا!
- تحملين ابني في بطنك!
- وأحمل حبك أيضًا في قلبي.
- من أين أتيت بهذه الصلابة؟
- أعدني أبي ليوم كهذا!
- سيقتلك الندم.

- نختار ما هو أفضل، والعادة تجعله أسهل.

وحين همت بالانصراف، استوقفها قائلاً:

- أيولاً!

التفتت نحوه فقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- أهو فراق بلا لقاء؟

- ربما نلتقي في حياة لاحقة.

ومرت الأيام ثقيلة بطيئة، وكأنما صار الزمن جثة بلا روح، كان يتظاهر بالتماسك، وهو يسير بصدر أجوف، يشعر فيه برنين الفراغ بعد أن رحلت أيولاً بقلبه، ومضت إلى حيث لن يصلها شعره، ولن يصله بكاء طفله بعد أن يستقبل الحياة. لم يحتمل الألم فذهب إلى المعلم بيثياس يشكو حزنه، سأل:

- كيف عادت معهم؟

- لم تكن أيولاً لتحتمل رفقتنا يا قدموس!

- لماذا؟

- من ضاق صدره بالآخر، ضاقت به الدنيا حتى وإن اتسعت له الدروب، تلك عقيدتهم يا قدموس، فلا تخاصم قوماً على ما ولدوا عليه!

استسلم للواقع، وانتابه يقين بأن الحياة لو عادت بأيولاً لاختارت الاختيار نفسه. وفي الليلة الأخيرة قبل الرحيل إلى أرض القصدير جلس على ضفاف الشاطئ، يتطلع إلى الأفق المظلم الذي تلاقت فيه ظلمة الماء والسماء، واختلطت فيه أصوات الرياح، مع اعتلاج الأمواج المتلاطمة. نظر إلى السماء الكاحلة وكأنما اختطف أحدهم صفحة القمر، وترك وراءه حبات من النجوم المتناثرة، فشعر بالوحشة، والفراغ، وفجأة رأى شهاباً يخترق السماء. كان يعلم أن الشهاب إشارة من السماء إلى ميلاد جديد. تمنى أن تكون الليلة حدًا فاصلاً بين حياة غربت شمسها وشروق جديد ينتظره، وحينئذ رفع رأسه نحو السماء وأنشد شعرًا حاكى به ما يسمعه من المعلم بيثياس:

«يَا مَنْ تَسَجَّتِ الْخَلْقُ مِنْ خِيوطِ الْأَزَلِ

وَأَشْعَلَتِ النُّورَ فِي جَوْفِ الْعُتْمَةِ

وَرَسَمَتِ الْأَفْلاكَ بِرَبِيشَةِ الْحِكْمَةِ،

وخططت المصير فوق لوح القدر.
امنحني من حكمتك نورًا لا يخبو
أسير في ضيئه غير تائه ولا مكسور»

كانت سفينة إخوة بيثاغورس كبيرة، تبدو مزيّجًا من السفن الحربية والتجارية، ذات مقدمة مرتفعة وقاعدة منحنية، ويصل طولها إلى مائتين وخمسين ذراعًا، يتسع بطنها للتخزين والمبيت، وبها ثلاثة صفوف من المجاديف تكفي لمائة وسبعين بحارًا، أما الصاري الضخم الذي توسط السطح، فقد تدلى منه شراع واحد كبير وثلاثة أشرعة صغيرة يمكن طيها وفردها وتوجيهها حسب اتجاهات الريح. ركبوا السفينة، وودعهم أهل القرية بالدموع على أمل أن يعودوا مرة أخرى بعد العودة من أرض القصدير ثم انطلقت السفينة تشق عباب البحر في طريقها نحو الشمال الغربي حيث توجد أرض القصدير. وكان الإبحار سلسًا في الأيام الأولى رغم قوة الموج غير المعتادة على بحارة مارسيليا، ولكنهم سرعان ما اعتادوا عليها، بفضل براعة المعلم في القيادة، فقد كان يعلم متى ينصب الأشرعة ومتى يطويها، متى يعاند الموج، ومتى يهادنه، وكيف يستعيد المسار كلما فقداه أمام دفعات الموج القوية من جهة الغرب. ولم يشعر قدموس بالدوار أو الخوف، كما كان يتوقع، اعتادت رأسه على الاهتزازات، واعتاد النوم على السطح المتأرجح من دون أن يستيقظ في هلع. وتبدلت أحوال الطقس مع صعودهم شمالًا، عبست السماء بالغمام وتنفست الصباحات بأنفاس باردة، وزفرت الليالي ضبابًا كثيفًا، فأمر المعلم بتخفيف السرعة، وطي الشراع الرئيسي حتى يتحكم في السفينة، وأمر الكشافين فوق الصاري ورجال الدفة باليقظة والانتباه. وذات ظهيرة، تسارعت الرياح بشدة، وتعالى الموج، وبدت السماء حبلى بالمطر، وإذا بالسماء تتشقق بالبرق، والفضاء يرتج بزئير مرعب، ارتفعت له الرؤوس نحو السماء، وفي لمح البصر تساقطت أمطار غزيرة محملة بقطع صغيرة من البرد، تآرجحت لها السفينة كورقة شجر على سطح الماء، تشبث قدموس الذي وقف في مؤخرة المركب بحبل الصاري في قوة، وهو يقب عينيه المغمضتين ضربات البرد ورذاذ الماء المالح الذي غمر وجهه. فجأة صرخ المعلم في أوتياس:

- أدر الدفة غربًا.

دارت السفينة بسرعة، لم يستطع قدموس التماسك معها، انزلقت قدمه، وانحدر جسده بسرعة نحو مؤخرة السفينة التي مالت. ولولا أنه تشبث بسورها لسقط في البحر. فتح عينيه اللتين امتلأتا بالرذاذ ليستعيد توازنه، فهاهنا ما رأى، كانت هناك موجة عاتية تقترب منهم، وكأنما ملأ البحر صدره بشهيق عظيم ثم زفره دفعة واحدة، نظر إلى جواره، فوجد فيلون يقف متصلبًا، وقد عبس وجهه وهو ينظر إلى الموجة، وكأنما يتحدى إله البحر بوسيدون أن يقترب منه، قذف قدموس إليه بحبل وهو يقول:

- فيلون تشبث بهذا.

فجأة ارتفعت مقدمة السفينة وكأنما تحلق في السماء، تشبث بالجدار في قوة، حتى شعر بعضلات ساعده تتمزق، وحين خرت السفينة من ارتفاعها، طار جسد فيلون في الهواء، والتقمه الموج في لمح البصر.

توقف المطر، وهدأ الموج وانقشع الغمام، ووقف الحراس يتطلعون في حزن إلى البحر، الذي انتقى قائدهم من بينهم، وكأنما أراد أن يكسر عزيمتهم في مواجهته الأولى معهم. وأبلغ أوتياس كبير البحارة المعلم بأن العاصفة قد أصابت جزءًا في الدفة، وكسرت عدة مجاديف. وحين رأى المعلم الأعطاب، قرر أن يرسو بالسفينة في أقرب جزيرة لإصلاحها، وبعد مرور ساعات، أشار رجل الصاري إلى جزيرة جهة الشرق. فأدار أوتياس الدفة إلى هناك، حتى رست السفينة على سواحل الجزيرة، ونزل الجميع وقد أصابهم الإنهاك والحزن على وفاة القائد فيلون. وقرر المعلم البقاء في الجزيرة أيامًا للراحة، أملًا أن تُصلح الأعطاب، وأن يتجاوزوا الحزن، وأيضًا كي يعيد حساباته بعد أن انحرفت السفينة عن مسارها المرسوم. كان الميناء ضحلًا، تكثر فيه مراكب الصيد الصغيرة المبطنه بجلود الحيوانات، والتي يستخدمها أهالي الجزيرة في التنقل بين الجداول والمستنقعات المنتشرة في ربوعها.

وكانت الجزيرة نفسها أشبه بريف كبير، تسكنه قبيلة من المزارعين الغال تدعى قبيلة أوسيمسمي، يزرعون الذرة والبول، وبينون منازلهم من الطين على شكل أهرام مخروطية، ويلحقون بها حظائر للخنازير والماشية، يتراص روثها في أكوام على جانب الطرقات مما جعل رائحة الجزيرة لا تطاق.

واصطحب المعلم معه قدموس في جولة حول الجزيرة، حمل قدموس أدوات القياس التي قاس بها المعلم طول الظل في النهار، وراقب النجم القطبي في الليل، ثم عادا إلى السفينة، وظل يجري حساباته لمعرفة

الطريق إلى أرض القصدير. كانا يجلسان في قمرة المعلم، وكان الليل قد انتصف بينما كان المعلم لا يزال يقرأ في ضوء شمعة أوشكت على الذبول في ثلاثة كتب تفترش المنضدة أمامه، ثم يدون حساباته في ورقة، ويعيد رسم بعض الرموز والأشكال على ورقة أخرى. وبعد أن انتهى من حساباته، فرك عينيه، ثم طوى السجلات وقال:

- أستطيع الآن أن أقول إننا لو أبحرنا شمالاً بزاوية ثلاث عشرة درجة جهة الغرب سنصل إلى أرض القصدير بعد خمسة أيام.

قال قدموس:

- هذا جهد عظيم يا سيدي.

ثم أشار إلى الكتب التي أمامه وسأله:

- من أصحاب هذه المصنفات؟

رفع الكتاب الأول ثم ابتسم وقال:

- هذا كتاب طاليس الملطي في الجغرافيا.

ثم رفع الثاني وقال:

- وهذا كتاب هيملكون القرطاجي عن جزائر المحيط.

ثم رفع الثالث وقال:

- أما هذا فهو كتاب كتبه إبودوكسوس الكنيدوسي عن الفلك والنجوم.

ثم أردف:

- كل منهم وضع حجرًا في بناء اسمه المعرفة.

نظر إليه قدموس بإعجاب ثم سأله:

- ومتى سيضع المعلم بيثياس حجره في هذا البناء؟

سكت قليلاً ثم قال:

- حين ننتهي من الرحلة سأضع كتابًا عن المدارات، سأوضح فيه مسار الرحلة بناء على خطوط العرض التي قسناها.

ثم أردف:

- ولكن الأهم هو اكتشاف تلك الجزيرة التي سنحط عليها. فلم يصف أحد حجمها ولا معالمها، ولا حياة شعبها من قبل، وهذا أهم من العودة بالقصدير!
- صمت متفكرًا في كلامه ثم تذكر لينوس وأيولا، وفيلون سأله:
- هل لي أن أسألك سؤالًا أيها المعلم؟
- أشار إليه ليفعل، فقال:
- ما جدوى المعرفة ما دمنا جميعًا راحلين؟
- لأن المعرفة جسر بين عالمين؛ عالم نشهده وعالم آخر ننتظره.
- وأين هذا العالم المنتظر؟
- لا ندركه الآن، ولكن حتمًا سندركه!
- أهذا يقين أم رجاء؟
- بل ما يقتضيه العقل والمنطق.
- وكيف ذلك؟
- كل ما في الكون يتحرك نحو غاية، وحياتنا جزء من حركته.
- وما غاية الحياة إذن؟
- ارتقاء النفس حتى تصل إلى تمام الوعي والإدراك.
- وهل للوعي أن يبلغ تمامه؟
- نعم، حين تتحرر الروح من الذات المحدودة وتعود إلى أصلها!
- وأين ذلك الأصل؟
- من أوجدها، الصانع الأول!
- وماذا عن الذين لا يعترفون به؟
- اختاروا أن يعيشوا في إدراك ناقص!
- وهل الجهل اختيار؟
- الجهل قدر في بدايته، لكنه يصبح اختيارًا حين يطمئن الإنسان إليه ولا يسعى للخروج منه.

تركه ثم صعد إلى السطح، وقلبه مليء بالشجون، لم يستطع النوم مباشرة،
أضاء شمعة، وجلس يكتب في سرعة:

«وحين يهدر الموج في فم المرافئ

ويهمس الغيم في أذن الجبال

ويوصد الزمئ أبواب العدم

وتغيب الشمس في بحر الأموات

سيعلو شعاع في الفضاء

تنقشع أمامه غيوم الأفق

وتصطف وراءه طيور السماء وتنشد معهم أسراب النوارس

ويقول الجميع في صوت واحد:

النهاية ظل على وجه الشمس

وفي كل ظل يختبئ شعاع

النهاية صمت بعد الغناء

والصمت بعد الغناء إيقاع»

(33) الحياة في عالم زائف

La vie en faux

كنت أجلس في شقتها في انتظار عودتها من السفر، أصدق في صندوق الأغاني بشرود، أفتح غطاءه فيدور الراقصان وتتصاعد النغمات وتتلون الحياة بلونها الوردي، ثم أغلقه فيعود الصمت المطبق ليملاً الفراغ الذي يسكن صدري. ما أشبه حياتنا بتلك اللعبة! رقصة كاذبة، على إيقاع الزمن، تبدأ بخطوات مترددة، ثم تتحول إلى دوران مليء بالشغف، ثم يخبو اللحن وتصبح الكلمات أصداً من الماضي قبل أن تعود إلى صمتها المطبق الموحش. فتحت أبريل الباب، فاندھشت من جلوسي في ضوء خافت. أضاءت نور الردهة، كانت تبدو شاحبة، بديئة وأكبر عمراً عن ذي قبل، لم أدر هل مر وقت طويل على رؤيتي لها، أم أن مشاعري قد تبدت نحوها. اندفعت نحوي متلهفة، أمسكت بوجهي الشاحب وجلست إلى جوارتي وهي

تقول:

- عمر، ماذا حدث؟

قلت بعد صمت:

- لماذا كذبت علي؟

- أنا لم أكذب!

- لماذا لم تخبريني بأنك يهودية؟

- لأنك لم تسألني، ولا أظن أنك تهتم!

- أخبرتك بكل شيء عني.

- وأنا أيضاً! لم أخف عنك شيئاً!

- أخفيت دينك.

- وما الذي يضيرك لو عرفت أنني يهودية؟

- بيننا طفل!

- وما الأزمة في ذلك؟

- كيف سنريه؟

- هو ابن الحياة، ودورنا أن نعهده لهذه الحياة!

- ولكنني أريده أن يحمل ثقافتني أنا.

- أنت هربت من ثقافتك، ولم تستطع تحملها. فلماذا تريده أن يحملها بعدك؟!

شعرت بالصداع يعاودني، وبرائحة الكبريت تملأ أنفي، واحتقن وجهي وكأنه يموج بالحمم، أشحت بوجهي عنها وأنا أقول:

- أنت كاذبة.

قالت في ذهول:

- أنا يا عمر!

انفجرت، قائلاً:

- كاذبة، ومخادعة، أنا لم أعن لك شيئاً منذ البداية، كنت مجرد أداة تستخدمينها للانتقام من سلطان، ولتحقيق رغبتك في الإنجاب، سرقت أبحاثه ولم تخبريني، وحملت بهذا الطفل من دون حتى الرجوع إلي!

تراجعت مذعورة، وهي تضع يدها على فيها من الدهشة، فتابعت:

- كنت غيباً لأنني لم أع كلماتك منذ البداية. كم كنت صادقة حينما وصفت نفسك، بأنك امرأة بائسة تستغل مشاعر شاب يسوقه الانبهار!

تساقطت الدموع من عينيها غزيرة، ومع ذلك تابعت لاهتاً:

- وكم كنت غيباً حينما تركت ذلك الانبهار يسوقني.

ثم أدرت وجهي بعيداً وقلت مطرّقاً:

- كنت أشعر بأني كهل عجوز فقد بصره وعاش في قبو مظلم، وحين قابلتك، ظننت أن الأقدار قد وهبت لي عيناً جديدة بدلاً من تلك التي أتلّفها الظلام، كي أرى بها نور العالم. ولكنني اكتشفت أنها عين أنانية لا ترى إلا نفسها.

أجهشت بالبكاء ثم قالت:

- عمر! كفى أرجوك.

ولكنني لم أكف، وقلت:

- أصبحت أشعر بالخزي من نفسي، وبالسقم من علاقتنا، أصبحت أتساءل كيف سأعود إلى قريتي مرة أخرى لو قدّر لي أن أعود؟ ألم يكن من الأسر أن أكمل طريقي متخطيًا في الظلام، بدلًا من أن يومض في طريقي سنا برق كاذب، سرعان ما يخبو؟

ضمت يدها إلى وجهها، كعادتها حين تضطرب.. ثم قامت، ودلفت إلى حجرتها. عادت بعد قليل وهي تحمل مظروفًا كبيرًا وضعته أمامي على المنضدة وهي تقول:

- هذه هي كل أوراق سلطان، احتفظت بنسخة من أبحاثه لأنني كنت أخشى أن ينالني منه أذى.

- ولماذا يؤذيك؟

- لأنه مثلك، يدعي قبول الآخر، ولكنه في الحقيقة يكرهه!

ثم أردفت:

- أنت وسلطان نسخة واحدة!

صمتت باكية، ثم مسحت دموعها وقالت:

- ارحل عني يا عمر!

كان كلامها هادئًا، ولكنه قطع شيئًا بداخلي، قلت بحزن:

- ارحل!

- نعم يا عمر، من أجلي ومن أجلك.

- وماذا عن طفلنا؟

- سأقرر مصيره كيفما أشاء، لو شئت أجهضته، ولو شئت احتفظت به.

- لن أسمح لك.

- إذن فسأرحل أنا، وأرجوك لا تبحث عني.

عدت إلى شقتي، مستنزف القوى، أشعر بتلك الومضات التي تسري بداخلي ولا أدري مصدرها، خلعت معطفي بيدين ترتعشان رغم ما فيهما من خدر، وحين خطوت نحو الأريكة لأجلس، فقدت السيطرة على كل شيء، كان جسدي كله يتشنج بحركات لاإرادية، تغيم عيني بالرؤية، ويسيل زبد لعابي من جانب فمي ولا أملك السيطرة عليه، وتمتلئ أنفي بتلك الرائحة الكريهة أكثر

من أي وقت مضى. استمر الأمر للحظات مرت كدهر، ثم هدأ كل شيء، وكان إعصارًا قد مر بجسدي ثم رحل. كانت هذه المرة الأولى التي أعاني فيها من تلك النوبة، ولكنها لم تكن الأخيرة، وحين عاودت زيارة الطبيب، وأجرى لي أشعة جديدة، أخبرني بأن تلك البؤرة السوداء التي كانت في حجم الدبوس، قد اتسعت قليلًا، وعرفت لأول مرة أنني مصاب بداء الصرع، وأن نوبات الرائحة التي كانت ترافقني طيلة الأشهر الماضية لم تكن سوى مقدمة لظهور مرض لعين.

قدمت اعتذارًا للدكتور سلطان عن الوجود بالقسم بسبب الوعكة التي ألمت بي، ومكثت أيامًا بالمنزل في حالة من الوهن الشديد، ولولا أن السيدة كليز كانت تتردد على شقتي من آن لآخر لترتيبها، وتقديم بعض الوجبات لي، لمكثت تلك الأيام بلا طعام ولا شراب.

وبعد أن استعدت بعضًا من عافيتي عدت إلى القسم، كان أول شيء فعلته، أن قابلت الدكتور سلطان، وأعددت له الأوراق، فاحتفى بي قائلاً:

- كنت أعلم أنك شخص نبيل!

ثم لاحظ اضطرابي، والهالات السوداء حول عيني فقال:

- هل أنت بخير؟

أجبت في هشاشة:

- وعكة صحية أتمنى أن تزول.

سألني مرتابًا:

- كيف حال أبريل؟

وخزنتي الكلمات وأنا أقول:

- رحلت عن مارسيليا!

هز رأسه، وكأنه كان يتوقع تلك النهاية ثم قال:

- أنت لا زلت صغيرًا يا عمر، وحتماً ستزداد خبرة بالناس، وبالحياة عامًا بعد عام.

ثم أردف:

- أريدك أن تستعد لمؤتمر الخريف القادم بكتابة خلاصة لأطروحتك، فكما وعدتك ستقوم أنت بإلقاء البحث في المؤتمر.

ابتسمت ابتسامة باهتة، وشكرته، ثم عدت إلى عملي. علمت من هاجلند أن الأمور قد صارت مستقرة على طول الصدع، وأن النشاط الذي ظهر في الفترة الماضية قد عاد إلى معدلاته الطبيعية. ولم تعد هناك حاجة إلى المتابعة المستمرة على مدار الأربع وعشرين ساعة، فأعطاني ذلك الأمر فسحة من الوقت كي أبدأ في كتابة الأطروحة استعدادًا للخريف رغم أننا كنا لا نزال في منتصف الربيع.

ورغم الانشغال، كانت الأيام تتكرر، ولكنها لا تشبه الأيام التي مضت! خلت حياتي من الدفء منذ رحلت أبريل، وأصبحت أشعر بوجع الغربة يتسلل إلى أعماق روحي، وكأنني أقف على حافة عالم مألوف، ولكنني أنظر إليه بتعجب. أعيش في المكان نفسه، وأعمل العمل نفسه، ويحيطني الناس أنفسهم، ولكنني معزول عنهم بجدار شفاف، أراهم بالكاد، ولا أسمع سوى صدى أصواتهم. نازعتني نفسي كثيرًا للاتصال بها، أرهقني ذلك الصوت الخافت الذي كان يجلد النفس بعشرات الذكريات الموجعة، وبأسئلة كسياط الندم. هل نسيتني؟ هل أصبحت صفحة ممزقة في حياتها؟ لقد أخبرتني من قبل بأنها تجيد طي الصفحات، ولكن كيف تطوي صفحاتنا وفي أحشائها نطفة مني؟ أم تراها قد أجهضتها هي الأخرى كي تمحو كل أثر لي؟ آه يا أبريل كم أنت رقيقة وصلدة، عنيدة وهشة، وفوق كل ذلك غامضة ومخيفة!

وانسكبت كأس الحزن بخبر أسعدني، فقد أُطلق سراح أحمد رحماني بعد أشهر من الاعتقال لم يثبت فيها تورطه في شيء مما نسب إليه. ورغم الإفراج عنه، قررت السلطات ترحيله عن فرنسا. شعرت بسعادة بالغة لرفع الظلم عنه. وطلب مني الدكتور سلطان أن أعد له أغراضه، وأن أنقلها له في السجن. أحضرت حقيبة كبيرة وضعت فيها ملابسه، وكتبه وذهبت بها إلى سجن بوميتس بمارسيليا. سمح لي الحراس بمقابلته لمدة عشر دقائق فقط. رأيته فيها كما هو، هادئًا وديعًا، بل وكان يبدو أصغر سنًا من ذي قبل، بعد أن حلق لحيته، وقصر شعره، بأوامر من السلطات. أعطيته الحقيبة ثم أعطيته المجلة، وأنا أقول:

- قرأت مقالك، وأظنه أفضل تفسير قرأته في حياتي.

ابتسم وقال:

- أشكرك.

ثم أردف:

- كتبت مسودة رواية في السجن! استلهمتها من نقاشي معك!

تعجبت أن نقاشاتنا البسيطة ألهمته بشيء، وتعجبت من ثباته واستغلاله للوقت حتى بين جدران السجن، وقلت مندهشًا:

- حقًا، ما اسمها؟

- نبي أرض الشمال!

أصابني اسم الكتاب بالقشعريرة، وقلت بفضول:

- أريد أن أقرأها.

ابتسم وقال:

- حين أطبعها سأرسل إليك نسخة.

أخبرني الحارس بانتهاء الزيارة، فمددت يدي وصافحته بقوة وأنا أقول:

- أراك على خير يا صديقي.

وانتهى الربيع بأحزانه، وبدأت أشهر الصيف، ازدحمت المدينة بالسياح من جميع البلدان، وامتلأت الشواطئ بالمصطافين، وبدأ زملائي في الإعداد للإجازات الصيفية، بينما كانت الوحدة تتفاقم على نفسي بعدما مرت ثلاثة أشهر وأنا لا أعرف شيئًا عن أبريال، وفي يوم من أيام الآحاد كنت أتجول في حديقة دي فيستيخ القريبة من الجامعة، أتأمل آثار الأعمدة الحجرية القديمة وسور الميناء وساحة الأجورا القديمة، التي لم يتبق منها سوى ممشى من البلاط الحجري يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، تأملت بقايا الساحة وقرأت اللافتات الإرشادية. واستدعت ذاكرتي ما قرأته قديمًا في الإلياذة والأوديسة من أساطير يونانية. كانت تستهويني في تلك الأيام ميثولوجيا الإغريق وبالأخص محاولات الإنسان للتحرر من سطوة الآلهة. وكان أحمد عقل يعتقد أن الإغريق هم من وضعوا بذرة التمرد على السماء في الحضارة الغربية، مثلما وضعوا بذرة أعمال العقل في كل العلوم. دخلت إلى المتحف اليوناني المقام في الحديقة، وتجولت بين مقتنياته، وإذا بي - فجأة - أجد قاعة سينما صغيرة بالمتحف تعرض فيلمًا تسجيليًا، وقد وضع أمامها لافتة كبيرة عليها عبارة «عالم بيثياس»، تذكرت الاسم مبتسمًا وشعرت بأن الرجل يدعوني إلى عالمه مرة أخرى! جلست في القاعة وجيدًا وحين بدأ الفيلم استغرقتني تفاصيله ودقة إخراجهِ، حتى أحسست وكأنني كنت أرافق هذا

الرجل في تلك الرحلة الخيالية، واستيقظت من أفكاري، حين دخل فوج من السياح، للقاعة لمشاهدة الفيلم، وكانت تتقدمهم مرشدة سياحية. تأملتها لحظات فتذكرت وجهها. كانت صوفي، التي تعمل مع أبريال في الوكالة السياحية. خفق قلبي حين رأيته، انتظرت حتى جلس السياح ثم تقدمت نحوها وقلت:

- مرحبًا صوفي، أنا عمر صديق أبريال.

تذكرتني، قائلة:

- أهلا عمر، كيف حالك؟

تلجلجت قليلاً ثم سألتها:

- كيف حال أبريال؟

أجابت بسرعة نصل حاد، اخترق صدري في موضع القلب وهي تقول:

- لقد غادرت أبريال مارسيليا وعادت إلى إسرائيل.

(34) أرض القصدير

لاحت اليابسة على مرمى البصر، في جهة الشمال الغربي، فنادى المراقب من فوق الصاري:

- لقد ظهرت أرض القصدير!

ابتهج الجميع، وهللوا في فرح. اقتربت السفينة ببطء من الساحل، ورغم شدة العواصف والأمواج التي كانت تتزايد كلما اقتربت السفينة من اليابسة، استطاع المعلم أن يحط بها بأمان في مرفأها الذي كان يبدو كخليج طبيعي لم تمتد إليه يد بشر، فقد كانت تحيط به الجبال الشاهقة من ثلاثة جوانب، وتجعله بمأمن من هجمات الرياح العابثة عند مدخله. كانت أسراب القوارب الصغيرة تجوب سواحله، كأسراب النمل، وهي تحمل البضائع بين شرق الجزيرة وغربها. وحين دخلت السفينة إلى المرفأ لفتت أنظار الأهالي إليها. فقلما رأوا سفينة بتلك الضخامة تلج الميناء، فحتى سفن القرطاجيين التي كانت تفد إليهم من وقت لآخر، لم

تكن تصل إلى ذلك الحجم. أقام المعلم معسكره بالقرب من الميناء، وبعد أيام أدركوا أن الجزيرة لا يحكمها حاكم واحد وإنما تعيش بها قبائل متعددة، ينحدرون جميعًا من السلتي المهاجرين، ويتحدثون لغة قريبة من لغة السلتي ولكنها تختلف أحيانًا في طريقة النطق. ورغم عدم وجود حاكم واحد لتلك القبائل فقد كانوا يتعاونون في جلب القصدير من المحاجر، وتصنيعه، وبيعه في السوق الوحيد للجزيرة بالقرب من الميناء. وكان قدموس عائدًا إلى خيمته ذات ظهيرة، حين وجد غريبان قد تسللا إلى خيمته، وأخذا يعبثان بمتاعه وقد بعثرا أوراقه على الأرض. صرخ حين رآهما:

- ماذا تفعلان؟

انتفض الغريبان اللذان تبين أنهما صبيان يافعان، وانطلقا خارج الخيمة يعدوان، فجري خلفهما قدموس وهو يصرخ:

- أمسكوا اللصين.

بعد قليل كان حراس المعسكر يحيطون بخيمة

المعلم بينما وقف اللسان وهما يرتعدان أمامه. كانا توأمين يافعين يتشابهان في كل شيء، شعرهما الأشقر المتشابك، والنمش الكثيف الذي يرقط وجنتيهما كجلود السحالي ورداؤهما المصنوع من فراء رمادي لا يعلم أحد من

أي حيوان أتى، ولكنه يبدو كفراء جرد بري ضخم، سألهما مكاريوس
الترجمان:

- من أنتما؟

أجاب الأول:

- أنا كاتو، وهذا باتو.

وقال الثاني بصوته نفسه:

- أنا باتو وهذا كاتو.

تأرجحت رأس مكاريوس بين الصوتين المتشابهين، ثم قال:

- ماذا سرقتما؟

أجابا في صوت واحد:

- لم نسرق شيئًا.

سألهما:

- لماذا دخلتما الخيمة؟

أجابا في نفس واحد:

- كنا ...

استوقفهما مكاريوس وقال:

- فليحدث واحد فقط ويصمت الآخر!

ثم أشار إلى الأول وقال:

- تحدث أنت يا كاتو!

- اسمي باتو!

قال بنفاد صبر:

- تحدث أيًا ما تكون!

قال مترددًا:

- كنا جائعين ونبحث عن طعام.

شعر مكاربوس بالشفقة عليهما، وحين ترجم كلامهما، رد أحد الحراس قائلاً:

- لقد وجدت معهما هذه العملات. ويبدو أنهما قد سرقا أكثر من خيمة، وليس خيمة قدموس فقط.

اندهش مكاربوس وقال في غضب:

- يا لكما من كاذبين!

سألهما المعلم:

- لماذا سرقتما؟

ترجم مكاربوس كلام المعلم، ثم أتبع في حدة:

- إياكما والكذب!

نظرا إلى بعضهما البعض، ثم تحدث كاتو قائلاً في خوف:

- لأننا يتيمان.

شعر مكاربوس بالشفقة، ولكنه سرعان ما تراجع وقال:

- هذا لا يبرر السرقة! لماذا لا تعملان؟

قال باتو بسذاجة:

- هذا عملنا! نحن نسرق الغرباء ونستبدل بالنقود الطعام!

وكزه كاتو ليصمت، فتابع باتو:

- ألم تقل إننا نسرق لأننا جائعين.

قال كاتو:

- كان أبي يجلب القصدير من الجبل، ويبيعه في السوق، ولما مات رفض أصحاب المحاجر إعطاءنا القصدير لأننا صغار!

قال المعلم:

- اسمع يا كاتو وأنت يا باتو، سوف أتحقق من أنكما يتيمان، ولو ثبت صدقكما فلا داعي للسرقة، سوف أمنحكما طعامًا مقابل العمل، فما رأيكما؟

ترجم مكاربيوس لهما، فقال باتو:

- عمل؟

قال المعلم:

- نعم، لن نشترى القصدير من الأسواق وإنما من المحافر، وسوف ستذهبان معنا إلى الجبل لنختار أفضل البضائع.

ترجم لهما مكاربيوس ذلك فانحنيا في شكر للمعلم، بينما التفت المعلم إلى مكاربيوس، وقال:

- اعتنِ بهما يا مكاربيوس، وحاول أن تصلح من شأنهما!

خرج المعلم مع قدموس ومكاربيوس والتوأمان كاتو وباتو إلى التلال الداكنة على أطراف الجزيرة، سيرًا على الأقدام، ووصلوا إلى قرية تسمى إكتيس وهناك قابل المعلم صاحب المحفر الذي دله عليه كاتو وطلب منه أن يعد له ألف تالنت من القصدير، فأخبره الرجل بأن الكمية قد تحتاج إلى وقت طويل لإعدادها لا يقل عن شهر، فوافق المعلم، ومكثوا في نزل التجار بإكتيس لحين إعداد الكمية. وفي ذلك الشهر، وجد كل واحد منهم شغفه، قضى مكاربيوس معظم وقته مع التوأمين، يتحدثون ويضحكون، يعلمهما بعض الكلمات والعبارات اللاتينية، ويساعدهما في رسم بعض الكلمات، ويمنح الحلوى لمن يظهر منهما مقدرة أكبر على التعلم، ويتعلم منهما في المقابل المزيد من كلمات السلت، بينما قضى قدموس أغلب وقته في كتابة ملحمة، التي ازدادت فصولها وقصائدها، رغم أن الرحلة لا تزال في منتصفها، أما المعلم فكان يذهب إلى محافر القصدير كل صباح ليرى كيف يُستخرج القصدير ويُحصَر، حتى تعجب صاحب المحفر من شغف المعلم بمعرفة التفاصيل وكأنه سيعمل بالتعدين. كانت المحافر عبارة عن أخاديد عميقة داخل الجبل، يصل بعضها إلى مائة ذراع ويعيش في جوفها رجال يرتدون الخيش وتتلطخ وجوههم وأجسادهم بالسخام، ينقرون بالمطارق أماكن بعينها في باطن الجبل، فيستخرجون منها فصوصًا من الصخر، يضعونها على روافع إلى خارج المحفر، ثم تنقل إلى جداول مائية، حيث يجري غسلها وتنقيتها من الأتربة، قبل أن تنقل إلى مطاحن لسحقها إلى قطع صغيرة، ثم توضع في أفران عظيمة من الطين من أجل صهرها. وبعد أن تُصهر تُفصل عنها طبقة الرواسب، ثم توضع الصهارة في قوالب من الحجر حتى تجف، لتصبح عرواقًا ملساء من القصدير. ولاحظ المعلم أن بعض الأفران أكبر من الأخرى، وبها

منافيخ جلدية يحركها شخصان تدفع بالهواء عبر أنبوب، ليبقي على الأفران مشتعلة ليل نهار. فأخبروه بأن تلك الأفران لصهر قطع المعدن المختلطة بالحديد، حيث تحتاج تلك السبيكة إلى حرارة أكبر من حرارة صهر القصدير وحده.

وذات يوم قرر قدموس أن يتجول في السهول المتاخمة لجبال القصدير في إكتيس، وتعجب من وجود مروج فسيحة، وحقول شاسعة من الذرة والقمح تسطع فيها الشمس كل صباح وتمنح أهلها دفئًا يجعلهم يميلون إلى الفرح وكثرة الاحتفالات. كان رجال القرية يدقون وشومًا كبيرة على أجسادهم، ويكثرون من الرقص والغناء وشرب الجعة في الحانات الكثيرة المنتشرة في أزقتها. ودخل قدموس إلى حانة، ذكرته بحانة نقفور، ولكنها لم تكن تقدم عصير الكرم والخمور المعتادة وإنما تقدم أقداحًا كبيرة من الجعة المصنوعة من الشعير المخمر، كانت الحانة تضج بموسيقى حادة عالية، ويرقص بها الرجال والنساء على أنغام صاخبة تصدر من أبواق كبيرة ومزامير على شكل القرب. جلس قدموس في زاوية الحانة، يراقب الراقصين والراقصات ويستمتع إلى الموسيقى، التي أثارت في نفسه الشجن رغم نغماتها المبهجة. تذكر أيولا فشعر بوخزة في صدره، تخيلها وهي تخرج من بين صفوف الراقصات، تمسك بيده وتقيمه أمامها ليحجلا سويًا على ساق واحدة في سعادة ومرح كما يفعل أزواج الراقصين في الحانة. وضع الساقى أمامه قدحًا كبيرًا من الجعة الفوارة، شعر بحاجة إلى الشراب الذي انقطع عنه لشهور. جرع من القدح فامتلاً حلقه بمرارة لحظية، خلفت وراءها شعورًا بالنشوة والرواء، أنهى القدح، ثم طلب ثانيًا، وما إن بدأه حتى تحررت أحزانه، التي كتمها منذ رحلت أيولا، توالى على رأسه الذكريات منذ رآها على مسرح الأجورا وحتى رحيلها بغير وداع، هزمه الشوق إليها فبكى وهو يلعن كأس الجعة، التي أفلتت كل تلك الأوجاع من مكانها! وضع دراخما ثمن القدحين ثم قام مغادرًا، وقبل أن يخرج من باب الحانة، سمع صوتًا يقول له بلاتينية ملحونة:

- لا أحد يغادر قبل الكأس الثالثة!

التفت فوجده صاحب الحانة، كان رجلًا متقدمًا في العمر، يرتدي تنورة، ويضع على رأسه قبعة من فراء الماعز الجبلي، تبدو على ملامحه الطيبة وخفة الظل.

قال له قدموس:

- لقد اكتفيت.

قال الرجل ببطء وهو يفتش في ذاكرته عن معاني الكلمات التي يريدّها:
- الكأس الأولى.. تعزيك. والثانية .. تبكيك، والثالثة .. تنسيك!

ثم ضحك وقال:

- لا ترحل.. قبل أن تنسى ما أبكاك!

فضحك قدموس، وقال له:

- سأحاول النسيان من دونه!

جذبه الرجل إلى الكلام مرة أخرى وهو يقول:

- هل أتيت مع السفينة الكبيرة؟!

ثم فتح بين ذراعيه، وقال:

- سفينة كبيرة.. كبيرة جدا!

أجابه:

- نعم.

هز الرجل رأسه بإعجاب وهو يقول:

- لم أر في حياتي سفينة كهذه.

ثم كرر كلمة كبيرة مرتين قبل أن يردف مبتسمًا:

- هل جئتم لاحتلال أرضنا؟

ضحك قدموس وقال:

- كلا، سنعود إلى مارسيليا مع المعلم بيثياس.

بان الاهتمام على وجه الرجل، وقال:

- من؟

- المعلم بيثياس!

صمت الرجل العجوز للحظات ثم قال:

- هل هو من أتباع بيثاغورس؟

خفق قلب قدموس، وقال للرجل:

- وكيف عرفت أتباع بيثاغورس؟

- كانت عائلتي من قبائل السلتي في جاليسيا. ثم ...

صمت حتى استطاع أن يجد كلمة «هاجرت» ثم أردف:

- ثم هاجرت إلى إكتيس. وأنا صبي صغير.

وأشار بيده ليؤكد على كلمة صغير، ثم أردف:

- أجدادي رأوا بيثاغورس، وتعلموا منه الكثير، هل تعرف بيثاغورس؟

تنهد قدموس، ثم قال:

- نعم أعرفه! أعرفه جيدًا.

- سيحب الكهنة في قبيلتنا أن يروا المعلم بيثياس، متى ترحلون؟

- لا يزال أماننا وقت حتى ننتهي من شراء القصدير.

ثم شكر الرجل وانصرف، وقد شعر بالندم على دخول تلك الحانة التي جددت عليه الذكريات. وبعد مرور شهر انتهى رجال المحافر، من إعداد الكمية المطلوبة، فاشترى المعلم حمولة من ألف تالنت من القصدير، حملها على عربات تجرها خيول، ثم عاد بها إلى السفينة. كانت فرحة البحارة، والحراس كبيرة حينما عاد المعلم بالقصدير، رفعوه على أكتافهم، وهم يتغنون بمجده ومجد مارسيليا ثم قضوا اليوم وهم ينقلون القصدير إلى حجرات التخزين بباطن السفينة.

وبينما كان قدموس يجلس في خيمته بالمعسكر، إذا بثلاثة رجال يرتدون ملابس بيضاء وقلنسوات صفراء، وقلادات على شكل منجل، يدخلون إلى المعسكر، قام مندهشًا، وحين يسألهم أحد الحراس عن هويتهم، أجابه أكبرهم سنًا:

- قل للمعلم بيثياس إن كهنة من الدرويد يريدون مقابلتك

(35)

أرض الميعاد

لم أجد سوى دكتور سلطان كي أتحدث إليه، وصلت إلى مكتبه وحين رأني منهكاً أجزأ أقدامي، قال في قلق:

- عمر، هل أنت بخير؟

قلت له بعينين ذاهلتين:

- سافرت أبريال إلى إسرائيل!

دعاني للدخول، ثم أغلق باب مكتبه بعد أن طلب من ميرا ألا تسمح لأحد بقطع جلستنا. صب قدحين من القهوة، وضع أحدهما أمامي، ثم جلس في مواجهتي وشرع يحكي قصته وكأنه يملأ فجوات في قصة أبريال التي حكتها لي من قبل على الأريكة في كليرمونت.

- «لم تكن حياتنا في حي لوبانير جيماً، رغم الفقر والزحام، وانتشار اللصوص بين سكانه؛ ففي الأحياء الفقيرة هناك نوع من الدفء والأمان يسري كعهد بين سكانه. عهد يمنع اللص من أن يسرق فقيراً مثله، أو يعتدي على بيت جاره في الحي الذي يسكن فيه. في هذا الحي نشأت، وحين كنت في السابعة، سكنت إلى جوارنا أسرة يهودية مهاجرة من بولندا، رجل وزوجته، ومعهما طفلة صغيرة، كانت ملامحهم الأوروبية، تبدو كأضواء الكريسماس الملونة، في الحي الباهت المليء بالعرب والأفارقة. مرت السنوات، وكانت تلك الأسرة مثار دهشتنا، فالرجل وامرأته مقتصدان في علاقتهما بسكان الحي، لا مجاملات لا معايدات، ولا اختلاط من أي نوع مع أي من السكان، حتى مع اليهود المهاجرين من المغرب والجزائر والمقيمين في الحي نفسه. كنا نحن أقرب الجيران إليهم، ومع ذلك لا أتذكر يوماً أن قام السيد بنيامين مارسيل أو زوجته بتقديم تهنئة لنا أو تبادل الطعام معنا كباقي سكان الحي. وفي بدايات الستينيات اختفى السيد بنيامين مارسيل، تاركاً ابنته الصغيرة وزوجته، وسرت شائعات بين المهاجرين العرب واليهود، بأنه قد سافر إلى إسرائيل، وبعد أن تأخرت عودته، سرت شائعات أخرى بأنه قد مات في

حرب الأيام الستة! وتضاعفت عزلة السيدة مارسيل، بعد اختفاء زوجها. لا زلت أتذكر وجهها العابس الأبيض كلوح الثلج، وهي ترتدي معطفها الرمادي

الوحيد في أيام الشتاء، وتغطي شعرها بوشاح تربطه أسفل ذقنها، وتسير في مشية صارمة كجندي مشاة في الاتحاد السوفييتي، وقد أمسكت بيد الطفلة الصغيرة بقوة، ولا تتركها إلا بعد أن تصل بها إلى باب المدرسة. كنت أحياناً أشفق على تلك الطفلة الصغيرة التي لا تملك أي أصدقاء، وأتساءل: كيف ستنشأ وهي في عزلة عن باقي الأطفال. وعلى أية حال نسيت أمرها بعد أن التحقت بكلية العلوم في باريس ورحلت عن المدينة. وكنت في أعياد الكريسماس والإجازات الصيفية، أعود إلى مارسيليا لأقضي الإجازة مع والدي. وذات مرة، عدت من باريس، فلم أجد أبي وأمي في البيت، وكنا قد خرجا لبعض شأنهما، لا أدري لماذا طرقت الباب، على جارتنا المنعزلة لأسأل عنهما، رغم أنني لم أفعل ذلك طيلة حياتي. ولكن يبدو أن الأقدار هي التي دفعتني كي أرى أبريال. رأيت

تركها برعماً لم يتفتح، وقد تفتحت بتلاتها وصارت كزهرة تيوليب فاتنة.»

صمت قليلاً ثم قال:

- «جمعنا حب المراهقة الشهي الذي تتفتح فيه الحواس بالدهشة، والجرأة، ولذة الاكتشاف، وتعد فيه اللسنة الصغيرة، بوعود كبيرة، ترسخ في القلب، ويتبقى منها دفء، يتجدد في القلب مع كل ذكرى أو لقاء عابر. تقاربنا في السر، خشية غضبة أبي وأهالي الحي الذين التهبت مشاعرهم بعد حرب الأيام الستة. وسافرت إلى الولايات المتحدة لدراسة الماجستير، ووعدها بأن أستقدمها لتعيش معي، ولكن فجأة انقطعت رسائلها عني ولم تعد ترد على خطاباتي، وحين عدت في الإجازة إلى مارسيليا أخبرتني أمي بأن السيدة مارسيل قد اختفت هي الأخرى، ثم لحقت بها ابنتها بعد شهور. ومرة أخرى سرت شائعات في الحي بأن السيدة مارسيل كانت تتجسس لصالح إسرائيل وأنها اتهمت بسرقة وثائق من منزل أحد أعضاء مجلس النواب وحبست بسبب هذه القضية. لا أنكر أنني قد شعرت بالحزن على أبريال التي كنت أفرق في الحكم عليها بينها وبين أهلها، لسبب لا أعلمه، ربما يكون الحب، وربما يكون شعور بالشفقة عليها.

وانشغلت بمستقبلي المهني وتزوجت، وبعد سنوات طويلة، تجددت العلاقة حين عادت أبريال فجأة للعمل بجامعة مارسيليا. أحسست بمشاعر شتى حين رأيته، استغرقني شعور بالوجد وأنا أرى أول من خط على قلبي كلمة حب، شعور أقرب إلى الحنين للماضي، وليس حنيناً إلى العلاقة في حد ذاتها.

علمت منها أنها مرت بظروف عصيبة في باريس، جعلتها تفقد الثقة في علاقتها بالآخرين، وأنها كانت تتلقى علاجاً مع معالجة نفسية لتتجاوز تلك

الظروف، أشفقت عليها أكثر، ودعوتها للعمل معي بالقسم فوافقت، وتخيلت أن دعمي لها ربما يساعدها ويعيد إليها ثقتها في الآخرين.

ومر وقت طويل كنت أراها أحيانًا وقد تجاوزت محتتها، وأحيانًا أخرى كانت تسقط في براثن الشك والريبة، والحساسية المفرطة في التعامل مع الآخرين، التي لم أكن بمنأى عن شذراتها، حين تنهار، وتوجه لي اللوم بأنني السبب فيما آلت إليه أحوالها لأنني قد تركتها وحيدة منذ عشرين عامًا! كنت أضجر أحيانًا، وأحيانًا أخرى أربت على حزنها بالهدايا، حتى لا تشعر بأنها وحيدة.

وبعد عدة سنوات، وقعت مفاجأة أحدثت صدعًا بيننا لم أستطع إصلاحه. اكتشفت أن أبريال تتردد على إسرائيل، وحين سألتها عن السبب أخبرتني بمفاجأة مذهلة، قالت لي إن أباه المختفي منذ ثلاثين عامًا لا يزال حيًا، وأنها رأت صورته واسمه على الإنترنت قبل سنوات، وعرفت أنه يمتلك شركة للسياحة هناك، فراسلته وتجددت العلاقة بينهما.

كان الأمر مربكًا ومحرجًا بالنسبة لي. أوضحت لها حساسية موقعي. فأنا من أصل عربي، ولي مكانتي العلمية والسياسية وسط الجالية التونسية والعربية على العموم. أنا لا أجد غضاضة في ديانتها اليهودية، ولكني لا أحب أن يشيع عني أن مديرة مكتبي تتردد على إسرائيل، التي كانت هجماتها على قانا في لبنان محل استياء في فرنسا في ذلك الوقت، وأثارت العرب والفرنسيين على حد سواء. ورغم توضيحي تكرر أسفارها بعد ذلك أكثر من مرة، بالطبع لم يكن بمقدوري أن أمنعها، لكننا لم نعد كما كنا. أصبحت متحفطًا معها أكثر من ذي قبل. حجت عنها خطاباتي المهمة، وكنت أضعها في أرشيف الرسائل أولاً بأول. وحين لاحظت أن بعض الرسائل البريدية في بريدي الإلكتروني تبدو مقروءة، رغم يقيني أنني لم أفتحها، شككت في أمرها أكثر وغيّرت كلمة المرور الخاصة بي. وحين جاءتني دعوة التكرم من الولايات المتحدة، أصرت على أن ترافقني، ولكنني رفضت! ثم كشفت لي أنها تعلم بمشروع الشفق القطبي رغم سرّيته الشديدة. حينئذ عنفتها حتى بكت، وقبلتني معذرة وادّعت أنها فعلت ذلك خوفًا علي من الانخراط في هذا المشروع. تجاوزت الأمر، وكنت على وشك تصديقها حتى اكتشفت أن مسودات الدراسات التي كنا نقوم بها قد صدر لها أمر طباعة من قبل. فتأكدت من أنها - لسبب أو لآخر - تعبت بملفاتي سرًا، واتخذت قرارًا بضرورة خروجها من حياتي العملية.»

صمت فسألته مندهشًا:

- هل كانت تتجسس عليك لصالح إسرائيل؟

هز رأسه وقال:

- «لا أدري، ربما أرادت الاحتفاظ بها بدافع الانتقام، أو التهديد، أو إثارة الصحافة والرأي العام ضد المشروع. على أية حال شعرت بالغضب، واجهتها، فأنكرت، فكتبت تقريرًا سرّيًا لشؤون العاملين أوصي فيه بعدم تجديد عقدها في قسمي، فتقدمت باستقالتها، واتهمني في الاستقالة بآخر شيء كان يمكن أن أتخيله، أتدري بماذا؟»

- ماذا؟

- اتهمتنني بأنني معادٍ للسامية!!

طال الصمت بيننا، حتى سألته:

- لماذا لم تخبرني منذ البداية؟

صمت قليلًا ثم رشف من القهوة التي بردت، ثم قال:

- حين ظهرت أنت في حياتها يا عمر تسببت لي في بعض الارتباك، رأيتها تتودد إليك، فشعرت بالحيرة!

نازعني ضميري بين أن أحذرك، أو أن أترك لها فرصة الدخول في علاقة جديدة مع شخص آخر قد يصلح شروخ قلبها.

طال الصمت بيننا، وأنا أعاني من الصدمة، صدمة أن تتجرد الحقيقة من أودية المشاعر الزائفة، وتتجمع التفاصيل في كيان واحد، من قطع متناثرة. شعرت بالسخرية في عبارته، لينه أخبرني مبكرًا بتلك الحقائق، على الأقل كان الأمر سيقصر على فشلي وحدي، وليس فشلًا مضاعفًا، بعد أن صارت حبلًا بطفل، أفضل ما ينتظره أن يولد في إسرائيل.

ختم لقاءه بأن قال:

- اسمع يا عمر، أبريال شخصية مركبة، وأظن أن أفضل شيء حدث بينكما أنها رحلت!

عدت إلى البيت وقد خارت قواي، تناولت الدواء الذي وصفه لي الطبيب بعد أن أحسست بارتجاف جفوني، وبومضات من الخدر تنسل من رأسي إلى جسدي. ورغم الجهد أخرجت اللوحة التي أعطتني إياها أبريال ثم ظللت كل الخانات المتبقية بالقلم الأبيض. قلبت اللوحة على وجهها الآخر، ثم كتبت بخط مائل عريض شمل كل السطور المتبقية في القائمة وكأني أختتم تلك اللعبة

السخيفة: «تعلمت منك أن كل شيء في الحياة يحكمه الوهم، من السعادة التي نطاردها، إلى الحزن الذي نفر منه. حتى الحقيقة التي ننشدها ما هي إلا ظل كبير لوهم أكبر اسمه اليقين»

عزيري أحمد عقل

أكتب إليك هذه الرسالة وأنا في حال أسوأ من ذي قبل، لقد أجريت أشعة الرنين المغناطيسي، وتبين أنني مصاب ببؤرة صرعية ظهرت كثقب أسود في رأسي، تحير الأطباء في تفسير نشأته. قالوا إنه من المحتمل وجوده منذ البداية، وقالوا إنه من المحتمل أن يكون من نتاج الانفجار العظيم يوم حادثة الميثان، وكأن ذلك الثقب اللعين كوّن قد ابتدأ في رأسي ولا يعرف أحد نشأته ولا منتهاه. أتعجب كيف تتجاوز تلك البقعة السمرء إرادتي فجأة، فيتشنج لها الجسد، وتختل معها الحواس، ويضطرب بسببها الوعي. أتدري يا صديقي أنه لو قدر لي دراسة الطب لعكفت على دراسة النفس! فهي أعظم الأسرار وأقربها إلينا، ومع ذلك، فنحن عاجزون عن فهمها. أعجبنى حديثك عن الوعي، وأرى مثلك أنه لا يوجد وعي حقيقي ما دام الوعي محكومًا بالعقل، والعقل محكوم بالإدراك، والإدراك محكوم بالحواس، والحواس محكومة بالشعور، والشعور لا يعرف المنطق، فقد يتوهم السراب ماءً، والكذب صدقًا، والاحتياج حبًا، والنقص اكتمالًا، والخوف أمنا حتى لو لم يقم على كل ذلك دليل. أظن يا صديقي أن الحقيقة المطلقة في هذه الدنيا هي وهم مطلق أيضًا، وأن الحياة ليست دار يقين، وأنا بحاجة إلى التحرر من هذا الجسد حتى نتجاوز حدود الإدراك، وأوهام الحواس. كنت قد قررت منذ أمد بعيد ألا أفكر فيما بعد الموت، وأن أحيا مثل باقي الكائنات حياة واحدة، فهل رأيت قريرًا منشغلًا بمصيره بعد الموت؟ ولكني الآن أصبحت أفكر فيه كثيرًا، وأشعر بأن الحياة ستكون عبثية، لو كانت من جولة واحدة. لقد أصبحت أوقن بضرورة وجود حياة أخرى. الآخرة شيء جميل، هي فرصة لوعي حقيقي وجولة ثانية لتحقيق الأحلام الضائعة!

اعذرني يا صديقي إن فاح حديثي بالكآبة، والحزن، واعذرني عن عدم الإجابة عن سؤالك عن النساء. فالحديث عن المرأة، أعقد من الحديث عن الوعي، فالمرأة كأطياف الضوء يتغير لونها وفق زاوية الرؤية، ولقد ولجت عالمها من أعقد أبوابه، وأنا الآن معلق في متاهة لا أستطيع الخروج منها!

ملحوظة: مبارك عليك الرباط المقدس، رغم دهشتي من أنك قد كبلت نفسك به طواعية، ولكن يبدو أنه لا شيء ثابت في الحياة حتى عزوبة أحمد عقل

صديقك عمر القداح

(36)

كهنة الطبيعة

كان الرجال الثلاثة يجلسون أمام المعلم بيثياس، الذي جلس عن يمينه قدموس، وعن يساره مكاريوس الترجمان، وقد توسط الفريقين مبخرة وضعها أحد الكهنة بينهما ، وكان يلقي عليها البخور بين الفينة والأخرى، فتتصاعد منها رائحة تثير الخدر في الأطراف. تحدث أكبر الكهنة سنًا، قائلاً:

- معذرة لإشعال هذا البخور، ولكنه بخور مقدس، يبعد أرواح الشر، ويحجب الرؤية عن شياطين الظلام.

ثم أردف:

- لعلك تتساءل من نحن أيها المعلم؟

قال المعلم بيثياس:

- نعم!

- يقولون عنا سحرة، ولكننا خدام على الطريق، نولد من رحم الطبيعة ونسير على خطها، ننصت إلى الكون ، فنسمع ما لا يسمعه الآخرون، ونرى بالروح ما هو أبعد من النجوم، ونتصفح وجه الأرض، فنقرأ على صفحة الحجارة والأنهار ما مضى وما هو آت، فللحجارة والأنهار ذاكرة أطول من ذاكرة البشر.

اقشعر قدموس من كلامه، فتابع الرجل بعد أن قلب الجمرة بعصا صغيرة، وغذى جوفها ببعض البخور:

- الطبيعة أيها المعلم كتاب مفتوح لنا، كتاب كتبت فيه الآلهة مصير البشر، ونحن نقرأ الطبيعة، ونرصد حركة الأجرام، وتتأمل الينابيع والبحار وحركة الأمواج، لنفهم تلك الرسائل، وما رصدناه العام الماضي يدل على أن الكون مقبل على حدث كبير.

ابتلع قدموس ريقه، بينما قال المعلم:

- أي حدث؟

- لقد اكتمل القمر ثلاث عشرة مرة هذا العام، للعام الثالث عشر على التوالي، وهذا يدل على اختلال التوازن وقرب وقوع النبوءة.

انتبهت حواس قدموس، بينما قال المعلم في هدوء:
- أي نبوءة.

قال الرجل:

- خروج سورتر سيد النار من مكمنه في أرض الشمال.
ارتعد قدموس، بينما تلفت مكاربوس حوله، وكأنه يريد أن يغادر المجلس
الذي لا يحتاج إلى ترجمان، في حين تابع الرجل:

- قديمًا كانت الأرض موطئًا لقوى الظلام، ثم جاء نوادا الشجاع فحارب قوى
الظلام، وطردها إلى الشمال وصنع بيننا وبينهم جدارًا، جدار سيظل قائمًا
حتى يخرج سورتر سيد النار من مكمنه فيحرق الغابات ويذيب الجليد ويغرق
المروج، ويسقط النجوم، ويعم الأرض ظلام دائم وليل طويل ويخضع العالم
لآلهة الظلام مرة أخرى!

ثم ألقى الرجل بحفنة من البخور، ملأت الخيمة بالسعال وخرج من الخيمة.
في حين قال المعلم في هدوء وكأنه لا يبدو عليه التأثير:

- ولماذا تخبرني بذلك؟

- لأن هناك من تنبأ بخروج المخلص، المخلص الذي سيخترق جدار الجليد
ويمنع آلهة الظلام من العودة، كما فعل نوادا.

ثم قال في بطاء وكأنه يتلو نصًا يحفظه: «وبعد أن يدور الزمان دورة الكمال،
ويكتمل مربع الثالث عشر، سيظهر في أقصى الغرب من بلاد الإغريق رجل
اسمه من اسمي، فيسير إلى البحر والثلج، ويكشف ما وراء الشمس.
وسيكون مرآتي، ومكمل سري.»

صمت قليلًا ثم قال:

- أتدري من الذي أخبرنا بتلك النبوءة أيها المعلم؟
- كلا.

- إنه بيثاغورس!

نظر إليه متشككًا، وقال:

- وأين ومتى قابلتم بيثاغورس؟

- لم نقابله، ولكننا نؤمن بحكمته، فنحن أحفاد أباريس الذي رحل إلى كورتونا ليهدي بيثاغورس رمحه، اعتراقًا بفضله وحكمته!
سأله قدموس متلهفًا:

- ومن هذا المخلص الذي تنتظرونه أيها الكاهن؟
تنهد الرجل ثم التفت إليه وقال:

- هو ذاك الذي لا يُعرَف أصله، ولا يُعرَف لأي دم ينتمي. لا يملك جيشًا ولا تاجًا، ولكن روحه تحمل نورًا يقي الأرض من الخراب، وتبدأ من بعده دورة الزمان!
ثم التفت إلى المعلم وقال:
- هو أنت أيها المعلم بيثياس.

شهق قدموس مذهولًا في حين تابع الرجل:

- إن مربع الثالث عشر هو الرقم مائة وتسعة وستون، وقد مات بيثاغورس منذ مائة وتسعة وستين عامًا! أما الرجل الذي سيخرج من بلاد الإغريق، واسمه من اسم المعلم، وسيكون مرآته ومكمل سره، فهو أنت أيها المعلم، أنت من سيخترق جدار الجليد، وبهزم آلهة الظلام.

صمت المعلم طويلًا وبدأ أنه يتفكر في كلام الرجل ثم سأله :
- أين يقع هذا الجدار؟

- بعد بحر الكورنيوم في الشمال على بعد ستة أيام من الإبحار، هناك ستجد الجدار، لا هو بحر، ولا هو أرض ولا هو هواء، بل جدار من الهلام البارد، يعجز الجميع عن اختراقه إلا المخلص.

صمت الرجل قليلًا، وتفكر المعلم قبل أن يتنهد قائلاً:

- لو أن هناك جدارًا في الشمال، فهو جدار الخوف من المجهول، ولو أن هناك ظلامًا وراءه فهو ظلام الجهل. وسنرحل إلى الشمال، لنكشف حقيقة تلك الأرض.

ابتلع قدموس ريقه، بينما انفجرت أسارير الرجل، أشار إلى زميله، فأخرج من متاعه درعًا ذهبيًا وضعه أمام بيثياس وقال:

- كان لأباريس رمح ودرع، حاز بيثاغورس رمحه، وهذا درعه ، احتفظنا به جيلًا بعد جيل، لنهديه إلى مكمل السر الذي سيعبر الجدار ليحارب آلهة الظلام!

اتسعت عينا قدموس من روعة الدرع، بينما قال المعلم:

- احتفظوا بإرثكم أيها الكاهن، فلا حاجة لي به، وحين يسقط ذلك الجدار ونكتشف ما وراءه، ستعلمون أنه لا توجد آلهة ظلام، وإنما هو صانع واحد، أمرنا بأن نسير في تلك الأرض لنكشفها.

قام الرجل، فتبعه رفيقه، ثم انحنوا جميعًا باحترام، وقالوا:

- احتفظ به أيها المعلم، فقد يكون فيه النجاة، في وقت تحتاج إليه!

وبعد أن انصرفوا قال قدموس:

- هل ما قالوه حقيقة أيها المعلم؟

- هم رجال علم، ولكنه علم زائف، يخلطون فيه الحقيقة بالوهم!

قال قدموس في صدق:

- ولكنني أصدق أنك المخلص!

ابتسم المعلم، وقال:

- لأن عقلك يميل إلى الخيال أيها الشاعر!

وفي ذلك المساء جمع المعلم رجال حملته وقال:

- يا رفاق البحر والريح، لقد قطعنا طريقًا لم يجرؤ أحد من الإغريق على اجتيازه من قبل وأتينا بالقصدير بعد أن احتكره القرطاجيون لسنوات. ولكن الرياح التي تدفع أشرعتنا اليوم، قد لا تمنحنا تلك الفرصة غدًا وقد منحتنا الأقدار سببًا لندور حول تلك الجزيرة ونعرف أبعادها ونكتشف أرض الشمال، ووددت لو نتبع هذا السبب إلى منتهاه.

صمت البحارة، ونظروا إلى بعضهم بعضًا، فتابع المعلم:

- أعلم أنكم اشتقتم إلى أهليكم، وتتجلون العودة من أجل الفخر والمجد، ولكن صدقوني، إن عودتنا الآن تجعلنا تجارًا، أما الماضي قدمًا فسيجعلنا شهودًا على أرض نجهلها وشعوبًا لا نعرف شيئًا عنها، والحق أقول لكم، إن المعرفة التي سنعود بها إلى مارسيليا ستكون أثمن من القصدير الذي نملأ به مخازننا. فما قولكم هل نعود أدراجنا، أم نتبع سببًا نحو الشمال؟

فهتف الرجال:

- فلنتبع سببًا، فلنتبع سببًا.

وأعد المعلم عدته للرحلة، جمع ما يحتاجه من المؤن والشموع، والملابس الثقيلة، والخيام المصنوعة من الوبر، وكميات كبيرة من الشعير والشوفان تكفي لرحلة لا يعلم كم تطول. وفي يوم الرحلة بكى الصبيان لوداع العم مكاريوس الذي انفطر قلبه أيضًا لوداعهما، فقد كان مكاريوس يعيش معهما حياة أقرب لحياة العائلة، لم يعيشها منذ فقد زوجته. وفي اليوم الأخير دخل الصبيان على المعلم، وقد بدا عليهما الارتباك، فقد كانا ينخسان بعضهما بعضًا ويلح أحدهما على الآخر ليتحدث أولًا، فقال مكاريوس الذي وقف على مقربة منهما لينهي نزاعهما:

- تحدث يا باتو!

قال باتو بكلمات لاتينية بسيطة تعلمها من مكاريوس:

- نريد أن نرحل معك.

ابتسم المعلم وقال:

- ولكنها رحلة تشق عليكما يا باتو.

تقدم كاتو، وقال:

- لا نخشى شيئًا طالما سنكون معك ومع العم مكاريوس.

التفت إلى مكاريوس، الذي طأطأ رأسه حرجًا. ثم قال:

- علمتهما النطق بتلك العبارات، حتى تتجنب الطلب مني!

احمر وجه مكاريوس خجلًا وقال:

- لقد تعلق الصبيان بي، وأنا ليس لي أولاد أيها المعلم، ويصعب علي فراقهما.

تردد المعلم قليلًا، ثم قال:

- حسنًا، ولكن أشهد عليهما رجال القرية حتى يعلموا أن الصبيين قد رحلا بمحض إرادتهما!

وفي اليوم التالي دارت السفينة حول أرض القصدير، ثم أبحرت بمحاذاة الساحل الغربي للجزيرة، بسرعة بطيئة، وكلما قطعت السفينة مسافة مائة ستاديون توقف المعلم للراحة، وطاف بالأرض، فقاس الظل، ووصف المعالم، ورسم المدارات وحين يجن الليل يرسو بالسفينة في أي مرفأ، فيقضون الليل فيه، ثم يستأنفون الإبحار في الصباح. وكان قدموس يشعر بالرهبة كلما صعدوا شمالًا، يرتعش فؤاده كلما نظر إلى السحب المترابكة

والضباب الأسود الذي يملأ الأفق، ويتساءل إن كان هذا هو الصيف فكيف يكون الشتاء في تلك البلدان؟ ولاحظ قدموس أن المسافة التي يقطعونها كل نهار تصبح أطول، كلما اتجهوا نحو الشمال، وبعد عدة أيام وصلوا إلى مكان بدا النهار فيه ممتدًا بلا غروب، فبعد أن قطعوا مسافة مائة وخمسين ستاديون، كان الظل لا يزال يشير إلى منتصف النهار. حتى أن المعلم قرر التوقف لإراحة البحارة، ونزل قدموس ومكاريوس والصبيان للتجول في المكان ومعهم بعض البحارة، بينما بقي المعلم في السفينة يدوّن قياساته ويناقش مع كبير البحارة أوتياس المرحلة الأخيرة من الرحلة. انطلق الرجال في المرج الواسع، الذي تحفه الأشجار، وبينما كان الصبيان يمرحان ويلعبان فوق الربوة، نام مكاريوس أسفل شجرة، في حين وقف قدموس يتأمل المرج البديع الذي يشقه جدول صغير يقف على شاطئه قطيع من الخيول البرية بعضها يشرب من الجدول وبعضها يرقد في استرخاء. كانت الخيول بديعة التكوين، عظيمة الأكتاف، كثيفة الشعر، على غير أشكال الخيول في مارسيليا، ويبدو أن جمالها أثار رغبة الرجال في اصطياذ إحداها. ابتسم قدموس وهو يراقب الحراس، الذين انقسموا إلى فرقتين، تسللتا بحذر نحو الجدول من جهة الشمال والجنوب، وما إن اقتربوا من الخيول، حتى ألقي أحدهم حبلًا معقودًا على أحد الخيول، ضج المرج بصهيل الخيل التي تشتتت، وصراخ الرجال الذين كبلوا الفرس من قائميه وعنقه، ثم تكالبوا عليه ليمنعوه من الهرب. فجأة شق السماء صوت بوق مهول، وامتلأ المرج بصراخ مخيف أزعج الصبيان وأيقظ مكاريوس من نومه، وجعل قدموس يهرول نحو الحراس، فقد خرج من بين الأشجار رجال طوال القامة بيض البشرة، تنساب شعورهم الشقراء الفاتحة خلف ظهورهم، ويلبسون وجوههم بالأصباغ والجير، ويرتدون فراءً كثيفًا، هجموا على الرجال بالسيوف والهراوات الثقيلة المدببة، وأسقطوا بعضهم صرعى. صرخ قدموس فيهم وهو يدعوهم للتوقف، ولكنهم لم يتوقفوا، هتف فيه مكاريوس:

- اهرب يا قدموس.

جرى بأسرع ما يمكن وقال «كلا»، ثم رفع كلتا يديه وهو يقول للمهاجمين:

- كفى، كفى.

فجأة ارتفع صوت البوق مرة أخرى، فتوقف الملونون عن القتال، بينما دخل الساحة رجل ضخيم يمتطي صهوة جواد ملون أفسح له الجميع الطريق احترامًا. دار الرجل بفرسه في الساحة، ثم تقدم نحو قدموس الذي يلهث، وقال:

- لماذا أتيتم إلى أرضنا؟

التفت إلى مكاريوس الذي كان يلتقط أنفاسه بصعوبة، وسأله:
- ماذا يقول؟

ترجم مكاريوس كلامه، فقال قدموس:

- توقفنا للراحة، وسنرحل بعدها إلى الشمال ولا نريد شيئًا من قربتكم.

ترجم مكاريوس كلامه، فنزل الرجل من فرسه، ثم تقدم من قدموس، ودنا بوجهه الملون القبيح منه فكشف القرب عن عمر طاعن يختبئ خلف الأصابع وضخامة الجثة. ثم قال:

- لا تريدون شيئًا؟

ثم أشار إلى الفرس المكبل وقال:

- بل أتيتم لسرقة خيولنا أيها اللصوص!

لم يحتج مكاريوس إلى ترجمة العبارة الواضحة، ولكن قلبه خفق من الخوف، واتسعت عيناه رعبًا حينما قال الرجل لرجاله:

- كبلوهم بالقيود، واجعلوهم طعامًا لأبناء لوباس فهذا جزاء من يتجرأ على أرضنا!

وبينما كان الرجال يقيدونهم بالحبال، تلفت قدموس حوله، فلم يجد الصبيين تاكو، وباتو، التقت عيناه بعيني مكاريوس الذي أومأ برأسه، مؤكدًا على ظنونه وقال هامسًا:

- أتمنى أن يحسنّا التصرف.

امتلأت الساحة بأهالي القرية الذين أتوا ليشهدوا عقاب اللصوص، ارتعد قدموس وهو ينظر إلى قفص كبير به ذئب مهول يدور في قلق داخل قفصه، وقد سال الزبد من فمه، بينما يعوي صغاره في شراسة، ولولا القفص لهجموا عليهم ومزقوهم بأسنانهم. رفع الزعيم رمحه وقال:

- هنا أرض بيكتيس، أرض الخيل، والمراعي التي لا يجرؤ غريب على المرور بها. فما بالكم بمن يسرق خيولنا؟

ثم صرخ في رجاله:

- اجعلوهم غداءً لأبناء لوباس!

دفعهم الحراس نحو القفص، وكلما اقتربوا ازداد عواء الذئاب الصغيرة، وازداد دوران الذئب المتوتر. فجأة ضجت الساحة بصيحات مخيفة أربكت رجال القرية حين دخل العشرات من رجال الحملة والبحارة والحراس نحو الساحة، يتقدمهم المعلم بيثياس، وهو يحمل درع أبابريس، هاجمت فرقة منهم الرجال الملونين، واشتبكوا معهم، وأسقطوهم جرحى، بينما أسرع فرقة أخرى لفك وثاق قدموس ورفاقه. ارتفع صراخ نسوة القرية، وبدا أن مقتلة عظيمة توشك أن تقضي على رجال القرية، لولا أن صرخ المعلم عاليًا:

- توقفوا!

ردها عدة مرات، حتى توقف رجاله عن الحرب، وسط دهشة الملونين الذين انكمشوا حول قائدهم في ذعر. هدا الصخب، وتوقف الصراخ، ثم قال المعلم لرجاله:

- أغمدوا السيوف، فنحن لا نريد إيذاء أحد.

ترجم مكاربوس كلمات المعلم بصوت عال حتى يفهمها الملونون. فاندesh قائدهم، ثم تقدم من المعلم الذي قال له:

- نعتذر أيها الرجل على ما بدر من رجالنا في حق خيلك.

تطلع الرجل إلى الدرع الذي يحمله المعلم بدهشة، ثم قال:

- من أنت أيها القائد العظيم؟!

- أنا بيثياس المارسيلى.

تحسس الرجل الدرع بذهول ثم قال:

- هذا درع أبابريس!

تعجب المعلم من أن أسطورة الدرويد امتدت حتى هذا المكان. قال له:

- نعم! نحن نبحث عن الطريق إلى..

قاطعه الرجل قبل أن يترجم مكاربوس:

- ثول!

- ما هي ثول؟

- أرض الشمال المشرقة!

- كيف عرفت؟

- الكل يتمنى أن يصل إلى ثول، ولكنه يعجز.

- لماذا؟

- ستبحر في مكان لا هو بحر، ولا هو أرض ولا هو هواء، مكان كالهلام!

فغر قدموس فاه، من كلمات الرجل! فقد كان يصف الجدار الجليدي الذي وصفه كهنة الدرويد، والذي تقبع خلفه قوى الظلام! ولأول مرة يشعر بالخوف، تمنى لو يتوقف شغف المعلم عند هذا الحد. يعلم أن المعلم لا يعتد بكلام النبوءات، ولكن كيف يتجاهله وقد صادف كل هذا الصدق.

قال المعلم:

- وكم تبعد ثول عن هنا؟

- تحتاج إلى أن تبحر يومين إلى جزر الضباب، وبعدها ستبحر ستة أيام إلى ثول، ولكنك لن تصل إليها!

- لماذا؟

- ستتوه في قلب الجدار، إنه تيه حتى الموت!

قال المعلم:

- نشكرك يا شيخ القبيلة، ولن ننسى فضل مشورتك.

وقبل أن ينصرف، ناداه الرجل وقال:

- أيها القائد!

التفت إليه، فخلع الرجل عن عنقه عقدًا كبيرًا من حبات الكهرمان، وضعه على عنق المعلم وقال:

- هذه هدية إلى المخلص.

وفي الطريق سار تاكو، وباتو إلى جوار العم مكاريوس، وهما يقفزان في سعادة، قال تاكو:

- لولاي لما فهم المعلم ما حدث!

قال باتو:

- بل لولاي أنا! أنا من ترجم كلمة حصان.

قال كاتو:

- وأنا الذي ترجمت كلمة سيف!

قال مكاربوس وهو يضمهما إلى صدره ضاحكاً لينهي نزاعهما:

- كفى، أنتما الاثنان بطلان!

(37)

الانفجار الكبير

أنهيت كتابة أطروحتي، وأعددت المحاضرة التي اقتررب موعدها في مؤتمر الخريف، وفي ذات الوقت كنت أتابع مع فريق البحث، نشاط القشرة الأرضية على حافة الصفيحة الأوراسية، التي كانت تبدو هادئة طيلة الأسابيع الماضية. واستيقظت في إحدى الليالي على رنين الهاتف، نظرت في الساعة فوجدتها الرابعة صباحًا، رفعت السماعة ثم قلت بحنجرية يابسة:

- بونجور أنا عمر.

جاءني صوت هاجلند وهو يقول:

- عمر! استيقظ الآن، وتعالَ إلى المرصد.

قلت في قلق:

- ماذا حدث؟

- لقد وقع زلزال في أيسلندا، بمقياس 6.5 ريختر وهناك صدع بطول ثلاثة كيلومترات في جبل هيكلا.

حين وصلت إلى المرصد كان الجميع في غرفة المتابعة، وكان الدكتور سلطان يتحرك في قلق. لم ينقطع رنين هاتفه النقال، فكان يرد أحيانًا بصوت خفيض، وأحيانًا أخرى كان يتحدث بحدة وغضب. أدركت من الكلمات التي التقطتها، ومن المبررات التي يسوقها، أن أحدهم يلومه، على عدم توقع الهزة المفاجئة، وهذا يعني أن المؤشر الذي وضعه غير دقيق. حين عاد إلى الاجتماع وقف أمام شاشة البيانات، وأخذ ينظر إلى منحنى النشاط بتمعن، قال لوبي:

- كان كل شيء هادئًا حتى تلك اللحظة التي ضرب فيها الزلزال أيسلندا.

بينما غمغم هاجلند في حزن قائلاً:

- وكأن أحدهم ضغط على زر ليحدث هذا!

لا أدري لماذا رأيت رجفة في فك الدكتور سلطان، تُصدّق على ما يقوله هاجلند، ورغمًا عني لم أستطع أن أزيل من قلبي الشك أن يكون لمشروع

الشفق القطبي دور في تلك الهزة المفاجئة، التي فوجئ بها الدكتور سلطان مثلنا تمامًا. قطع الصمت قائلاً:

- كيف حال البيانات الواردة من بركان هيكلا؟

قال لوبي:

- الأمور مستقرة.

هز رأسه وقال:

- تابعوا الأمر لحظة بلحظة، وأخبروني بالتطورات كل ساعتين. لا نريد أن ينفجر بركان هيكلا من دون أن نتوقع ذلك.

خلت الحجرة علي أنا وهاجلند بعد أن انصرف الباقون. فسألته:

- هل يعيش أهلك بعيدًا عن تلك المنطقة؟

- نعم، ولكن هذا لا يعني أنهم بمنأى عن الخطر.

ثم حكى لي عن البركان المثير، الذي أطلق عليه آباء الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى اسم سيد الجحيم، ووصفه القديس بريندان في أشعاره بأنه قبر يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح. وأخبرني بأن السحرة كانوا يترددون على هذا المكان قديمًا لاعتقادهم أنه مكنم الشر في العالم، وأن رجال الدين حتى وقتنا الحالي يزورونه في أعياد الفصح، ويطعمون على قمته الصلوات، حتى لا تنفتح فوهته بالشرور!

تعجبت من كل الأساطير التي تحوم حوله، خاصة وأن الأسطورة عندي لا تعني الخرافة، بقدر ما تعني حدًا حقيقيًا ألهم خيال الناس، فأضافوا إليه ما فاضت به مشاعرهم، ونسجوا من خيالهم ما جعلها تستمر لقرون. وتذكرت أيضًا ما قاله أحمد رحمانى في تفسيره عن نهاية الزمان وانفجار البراكين العملاقة في الشمال، وبدا لي أن المخاوف من تلك البقعة من الأرض ستظل قائمة حتى تقع المواجهة الكبرى بينها وبين الإنسان.

وخلال الأيام التالية وضع الباحثون في مرصد أيسلندا كاميرات تسجيل وميكروفونات حول منطقة الصدع، وحول فوهة البركان والسفح، كانت تنقل لنا بثًا حيًا لمنطقة هيكلا على شاشات المرصد، وجميع المراصد المشاركة. تعجبت من وجود معسكرات تخيم حول الجبل، ووجود أفواج من السياح تصعد فوق الجبل لترى فوهته التي تنفث الدخان. سألت هاجلند:

- ألا يمثل ذلك خطورة عليهم؟

ابتسم وقال:

- ما دام الدخان أبيض، فإن الأرض تتنفس فقط!

ثم أردف:

- سياحة البراكين جزء كبير من دخلنا القومي!

وحين رأى دهشتي، قال:

- ألم أقل لك إننا تصالحنا مع الطبيعة.

في الأيام التالية بدأت بعض البيانات المثيرة في التوافد، وصلتنا إشارات عن انخفاض مستوى المياه في الينابيع في منطقة هيكلا، كما جفت بحيرة صغيرة على سفح الجبل اسمها بحيرة سيلفاتن وكأنما ابتلعها الصدع. ذكرني جفاف البحيرة مرة أخرى بتفسير رحماني لجفاف بحيرة طبرية الذي يربطه المتدينون دومًا بآخر الزمان! أرسلنا المعلومات على المنظومة، وجاءتنا التعليمات بضرورة إرسال الملاحظات كل ساعة بدلًا من ساعتين.

وفي اليوم السابع من وقوع الزلزال كنت أجلس أمام شاشات المرصد أتنقل ببصري بين مشاهد مختلفة تنقلها الكاميرات في منطقة هيكلا. كان الهدوء يخيم حول الصدع والفوهة، ولكن الجلبة كانت كبيرة عند السفح وتحديداً عند مخيم السائحين، حيث صعد فوج منهم نحو الفوهة للتصوير، وقد غشيهم الإحساس بالمغامرة، ونقلت لي الميكروفونات أصوات صراخهم، وضحكاتهم المرحية. في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، جاءت رسالة تشير إلى ارتفاع درجة الحرارة بمقدار درجتين مئويتين، فدوّنت الملاحظة، وأرسلتها على المنظومة، ولكن بعد مرور حوالي نصف ساعة، جاءت رسالة أخرى تشير إلى حركة غير مألوفة لأسراب من الطيور فوق سماء هيكلا، فتذكرت يوم انفجر حقل الميثان، حين رأيت سرّياً من الطيور ينكمش مبتعدًا عن موقع الانفجار.

دونت المعلومة أيضًا على المنظومة في سرعة، ثم رفعت السماعة، كي أتصل بالدكتور سلطان، وأخبره بها، ولكن فجأة نقلت سماعات المكبرات صوت انفجار انخلع له قلبي، التفّطُّ نحو الشاشة، فرأيت عمودًا من الدخان الأسود يتصاعد نحو السماء في سرعة. أكملت الاتصال، وحين جاءني صوت الدكتور سلطان، قلت جملة واحدة:

- انفجر بركان هيكلا.

كانت أصابعي تتحرك بجنون فوق لوحة المفاتيح، وقد تعلق عيني بالشاشة وأنا أدون ما يحدث لحظة بلحظة:

12:45: ضوضاء رعدية عند فوهة البركان

12:46: أمر بالإخلاء الفوري، وإجلاء السائحين والسكان من دائرة قطرها 10 كيلومترات حول السفح وأصوات صراخ لبعض العالقين فوق الجبل.

12:48: عمود الدخان الأسود يصل ارتفاعه إلى 2.5 كيلومتر 12:52: عمود الدخان يصل ارتفاعه إلى 7 كيلومترات

12:56: عمود الدخان يصل ارتفاعه إلى 15 كيلومترًا

01:00: سحابة رمادية تفتersh السماء فوق الجبل، ويتساقط غبارها فوق

«تشنجت أصابعي للحظات ثم تابعت»

.. فوق مجموعة من السائحين العالقين الذين يحاولون الفرار.

01:04: انفجار عدد من الينابيع الحارة حول الفوهة، وحدوث فيضان مائي

01:10: انفجار آخر وأصوات رعدية تملأ المكان

01:15: تشقق عدد من الصدوع لا يمكن حصره حول الفوهة

01:20: ارتفاع درجة حرارة الأرض إلى 70 درجة مئوية

01:23: ظهور صهارة الحمم

01:26: الحمم تنسل في سرعة عبر الشقوق، وصراخ كبير حول المخيم

«شممت في تلك اللحظة رائحة كبريت، وشعرت بيدي ترتعش، وبصري يزوغ وكتبت في بقاء وأنا أقاوم الدوار»

01:28: انفجار ثالث وضوضاء مهولة

01:30: فيضان من الثلج المذاب، المحمل بالحمم يهبط في سرعة، نحو المخيم

الصراخ يتزايد ويبدو أن الناس تحترق

لم أستطع الكتابة شعرت بجسدي كله ينتفض، وييدي تتصلب، امتلأ فمي باللعب، وشعرت بحلقي يختنق، أمسكت سماعة التليفون، ثم ضغطت على زر

إعادة الاتصال بآخر رقم جرى الاتصال به، ثم قلت بحروف اختلطت باللعاب
الذي أخذ يسيل من فمي:

- أنا أموت!

ثم سقطت فاقد الوعي.

(38)

ثول

وصلت السفينة إلى جزر الضباب، كان كل شيء يبدو موحشًا في تلك الجزر، خلجان ضيقة، صخور مدبية، رياح عاتية، تعصف حول رأس الجزيرة وتدفع السفينة قسرًا للدوران حولها وكأنها تمنعها من المضي قدمًا نحو الشمال، وتأمرها بالعودة إلى الجنوب. مكث المعلم أيامًا حسب فيها طول المسافة من أرض القصدير وحتى ذلك الرأس المدب. اكتشف من قياساته لخطوط العرض أن جزيرة بريتانكا على شكل مثلث، ذي قاعدة ضيقة. فالساحل الجنوبي لا يزيد عن خمسة آلاف ستاديون، أما المسافة من أرض القصدير وحتى جزيرة الضباب فتبلغ عشرين ألف ستاديون، والساحل الشرقي يصل إلى الطول نفسه أو يزيد قليلًا. انتظر البحارة أن يأمرهم المعلم باستئناف المسير، ولكن المعلم جمعهم ذات صباح، وقال:

- يا رفاق البحر والرياح، لقد بلغنا من الأماكن ما لم يبلغه أحد من الإغريق، وقطعنا من الدروب ما لم يسلكه أحد قبلنا، فوصلنا إلى مغرب الشمس، وعبرنا بحر الظلمات وأتينا بالقصدير، ووصلنا إلى منتهى الشمال من الجزيرة التي لم يذكر أبعادها أحد، ونحن الآن أمام الاختبار الأعظم والاختيار الأخطر. اختيار بين الوعي والجهل، الخوف والشجاعة، العلم والخرافات. لطالما ادّعى من سبقونا أن الشمال هو أرض آلهة الظلام، وأن خلف هذا البحر جدار يحجز الشر الراقد في مكمنه، وقد علمنا من البربر أن هناك جزيرة اسمها ثول، تشرق عليها الشمس بصورة دائمة، جزيرة يغمرها النور حيث لا ظلام، يفصلنا عنها ذلك الجدار الذي يسمونه الجدار الجليدي، وقد عزمنا على اختراقه، لنكشف للناس أنه لا آلهة للشر ولا آلهة للظلام.

ولكن..

صمت الجميع، إلى أن قال المعلم:

- ولكن ما كنت لأدعوكم إلى أن تخاطروا بحياتكم من أجلي، سيتولى قيادتكم أوتياس، أما أنا فسوف أرحل إلى تلك الجزيرة وحدي، وأمهلوني شهرًا، فإن لم أعد فارحلوا إلى مارسيليا من دوني!

ثم أخرج من متاعه كتابًا وقال:

- هذا كتاب به قياسات الظل وخطوط العرض وعلامات على الطرق التي قطعناها، وبه أيضًا خريطة إن التزمتم بها وصلتكم إلى مارسيليا في غضون أشهر قليلة مع الراحة.

ثم التفت إلى قائد الحرس وقال:

- وحين تصلون إلى الرأس المقدس، اتركوا السفينة لأهلها، وأبلغوهم عني السلام!

تأثر الجنود والبحارة، وقال أوتياس رئيسهم:

- أرجوك يا سيدي لا تضعنا في ذلك الخزي. ما كان لنا أن نترك قائدنا ونرحل!
- بل هذا هو أفضل الحلول يا أوتياس، فنحن لا ندري ما ينتظرنا هناك، والأولى ألا نضحى بأنفسنا جميعًا!

- وكيف ستبحر إلى هناك يا سيدي؟

- بمركب كمراكب أوسيسيمي المبطنة بالجلود، فهذا أيسر في الإبحار وسط قطع الجليد.

قال أوتياس:

- ومتى الرحيل؟

- غدا.

في اليوم التالي، وقف الجميع على الشاطئ لوداعه والدموع تملأ مآقيهم، لم يتخيلوا أن يفارقوا معلمهم بعد تلك الرحلة الطويلة. سار المعلم نحو المركب المعد على الشاطئ، وسار وراءه قدموس، ومكاريوس والصبيان. وحين هم أن يصعد إلى المركب أجهش مكاريوس والصبيان، فاقترب منهما ثم ربت على كتف مكاريوس واحتضن الصبيين وقال:

- اعتنِ بولديك يا مكاريوس!

وحين التفت ليودع قدموس، لم يجده، نظر خلفه، فوجده فوق المركب. ابتسم وقال:

- ماذا تفعل يا قدموس؟

قال في استحياء:

- أكتب الفصل الأخير في ملحمتي!

تحرك المركب الذي يحركه زوجان من المجاديف، يتبادل قدموس والمعلم استخدامهما نحو الشمال، وقد انتصب على صاريها شراع صغير أعانهما على دفعه في الرحلة إلى المجهول. كان البرد قارسا، ولم تفلح أردية الفراء، وقبعات الجلد التي جلباها من جزيرة الضباب في منع الرجفة التي كانا يشعران بها كلما أوغلا شمالا. في الأيام الأولى كان الإبحار مجهدا، ولكن بعد اليوم الثالث أصبح الإبحار مخيفا. كانت السحب تدنو من الماء وكأنما التحم المحيط مع السماء، وكانت قطع الجليد الذائب تطفو، وكأنها آلاف القطعان من قناديل البحر العملاقة، وبين الفينة والفينة يستقبلهما تل طاف من الثلج، يضطران للانحراف بعيدا عنه قبل استئناف المسار مرة أخرى. ومرت الأيام الستة، ولم تظهر الجزيرة، وأعاد المعلم حساباته، لعله يكون قد أخطأ في حساب الوقت أو الاتجاه، لا سيما وأن ضوء النهار كان لا ينقطع وتعذر عليه حساب طول اليوم في ذلك النهار السرمدي، وشعر قدموس بالخوف، لأول مرة يدرك أن الأبيض يمكن أن يكون لونا مخيفا حين يتلع كل ما حوله، الماء والسماء والضباب، وحتى الشمس التي فقدت وهجها وتحولت إلى قرص أبيض باهت معلق في مكانه ليل نهار. كان يخشى الظلام، ولكن النور أيضا مخيف حين يستحيل إلى فراغ، وأفق بلا حدود. سار المركب ببطء، لم يكن يبحر، بل يسير! فقد كانت المجاديف تصطدم بشيء لين وقاس في آن واحد وكأنما تتعكز على أرض لا يمكن الوثوق بها. نظر نحو المعلم في شفقة، لأول مرة يرى في عينيه اليأس، فقد الاتجاه، وتشابهت أمامه السبل، فتوقف عن التجديف، ثم أسند ظهره إلى جدار المركب، وتطلع إلى السماء. نظر إلى الهلام الذي يحيط بهما من كل جانب وقال بلسان يكاد يتجمد من البرد:

- هل هذا هو الجدار الجليدي أيها المعلم؟

- يبدو كذلك.

- هل اخترقناه؟

قال في حيرة:

- لا أدري! نجم الشمال فوقنا، والشرق والغرب يجتمعان في مكان واحد، والشمس لا تميل عن مكانها!

- هل أستمّر في التجديف؟

- إلى أين يا قدموس؟

ثم خرجت أنفاسه محملة بالبخر وهو يقول في عجز:

- كنا نظن أن الاتجاهات حقائق ثابتة! وأن الشرق والغرب والشمال والجنوب حقائق لا تخون، ولكن ها نحن في مكان لا يطيع حقائقه.

كان يرى في عيني معلمه الإحباط، فقال مهونا:

- ألا يمكن أن يكون هذا هو حد المعرفة للبشر أيها المعلم؟!

- ربما يا قدموس.

- إذن يكفينا فخرا أننا بلغنا حد المعرفة!

- ليس الفخر مأربي!

- لماذا إذن تريد الوصول إلى ثول؟

تنهد ثم قال:

- لأن وراء ذلك الحد إدراك آخر لا نعلمه!

ثم قال في يأس:

- هيا يا قدموس أدر الدفة، حتى نعود أدراجنا!

فجأة دوى انفجار زلزل الفضاء، تشبث المعلم وقدموس بالمركب الذي ارتج بعنف. ولم يكذ يستقر حتى دوى انفجار آخر أشد من سابقه. أشار قدموس نحو اليسار وهو يقول في خوف:

- سيدي، انظرا!

نظر المعلم، فوجد عمود دخان يصعد إلى السماء في قوة، أوضح حدود جبل ضخم على جزيرة غير بعيدة. وقف المعلم وحد بصره نحو الجزيرة التي ظللتها سحابة دخان بيضاء، وقال:

- هذه ثول!

قال قدموس:

- وما الذي يحدث بها؟

- يبدو أن بركاًا قد انفجر بها! أدر الدفة نحو الجزيرة.

ارتعد قدموس، وهو يتذكر نبوءة الدرويد عن سورتر سيد النار الذي سيخرج من مكمته، تصلب في مكانه ولم يستجب للمعلم حين قال له:

- أدر الدفة أربعين درجة نحو اليسار.

ظل متيبسًا، فاستدار له المعلم، وقال:

- قدموس، ما بك؟

قال في خوف:

- أليس هذا سورتر، سيد النار؟!

أزاحه المعلم وجلس على الدفة، وأدارها قائلاً:

- لا يوجد آلهة، ولا أسياء، هو مجرد بركان؟ ألم تر دخان بركان إتنا في جزيرة صقلية؟!

قال قدموس:

- هل سيقذف علينا النار؟

- كلا، تستغرق البراكين وقتًا طويلاً حتى تقذف الحمم.

قال في خوف:

- ولماذا نذهب إلى هناك؟

قال مقطبًا:

- كي تحطم بنفسك أسطورة سيد النار!

اقتربت المركب من سواحل الجزيرة، وكلما اقتربت انجلى الضباب، وتبينت معالم الجزيرة أكثر. كانت الجزيرة فسيحة مترامية الأطراف. هبط المعلم ومعه قدموس من المركب. تطلع المعلم حوله في انبهار، ثم نظر إلى السماء وقال حالماً:

- هنا ثول، الأرض التي تخون الحقائق، فلا ليل يتعاقب مع النهار، ولا شمس تعرف متى ترحل، ولا ظل يطيع صاحبه، هنا يعانق الشرق الغرب وتتهاوى الأكاذيب، فلا شياطين تقف على حافة الأرض، ولا آلهة يحبسها الجليد، ولا وهم اسمه سيد النار. فاكتب عني يا قدموس وقل:

«من فمي خذ الحقيقة، قد تبلغون حد المعرفة، ولكن حد الإدراك أبعد، ومن أنكر ما لا تدركه الحواس فقد عاش في ظلام الجهل!»

وقيل أن يسمع صوت قدموس، انطلقت أصوات كلاب حولهما، التفتا فوجدا رجلاً يسير خلف زلاجة يجرها الكلاب وقد وضع عليها بعض جذوع الشجر، وما إن رأهما حتى تحدث بهمهمات غير مفهومة لم يفهما منها شيئاً، ولكنهما فهما علامات الذعر على وجهه وهو يشير إلى عمود الدخان المتصاعد من فوق الجبل ويقول في صوت متكرر وكأنه رجاء:

- قافتوق، قافتوق!

اتسعت سحابة الدخان وافترشت السماء فوق الجبل، الذي كساه الجليد، ومع ذلك كان البركان لا يزال ينفث أنفاسه، وكأنما يفور باطنه بالغضب. سارا خلف الرجل حتي وصلا إلى قرية تجاور السفح، كانت بيوت القرية متشابهة، تبدو مداخلها كأكواخ صغيرة من الحجر السميك، يهبط الداخل إليها عدة درجات ليصل إلى منزل متسع. وتحيط بالقرية حقول الشعير، التي تتوجها سنبلات خضر لم يحن أوان حصادها. تطلع قدموس بدهشة إلى نساء القرية اللاتي جلسن أمام المنازل، وفوق الصخور المرتفعة وقد جمعن أمتعتهن حولهن وضمنن أطفالهن إلى صدورهن. كان الحزن يكسو الوجوه، وكأنهن في حداد، حتى تساءل قدموس، أين ذهب رجال تلك القرية؟ ولكن عجه زال حينما وصلا إلى سهل مجاور، تجمع فيه كل رجال القرية، وعلا فيه لغتهم غير المفهوم. وحين اقتربا تبين له ما يفعلون. كان الماء ينحدر ببطء من فوق الجبل الذي ذاب جليده وفاض ماؤه على حقول الشعير، وكان الرجال يجمعون الأخشاب ويصنعون سوراً من الخشب حول حقول الشعير الذي اخضرت سنابله، حتى لا يغمرها الماء، فيفسد زرعهم. كان اللغط الشديد، وأصوات الكلاب التي تنقل الأخشاب، ولغة الناس العجيبة، تنبئ عن حالة الخوف والهلع التي تنتابهم. تركهما الرجل الذي كان يرافقهما وذهب إلى كهل، بدا أنه زعيم القبيلة، فقد كان يرتدي معطفاً من جلد فقرة وغطاء رأس من الفرو تتدلى أسفله ضفيرتان، ويمسك في يده عصا معلق بها أنياب دب. تحدث الرجل إلى زعيم القبيلة بهمهمات متقطعة، بدا كحوار البكم، ثم اتجها بعدها نحو المعلم بيثاس وقدموس، وأشارا إليهما كي يتبعاهما، قال قدموس متعجباً:

- ماذا قال؟

قال المعلم:

- لا أدري، ولكن يبدو أنهما كانا يتوقعان قدومنا.

بعد قليل كان المعلم وقدموس يجلسان في بيت فسيح تحت الأرض مضاء بالشموع، ويأكلان من الطعام الذي قدمه زعيم القبيلة لهما، وبعد أن انتهيا من الطعام أشار الرجل لأحد أتباعه، فأتى بصرة من القماش، ووضعها أمامه. فتح زعيم القبيلة صرة القماش ثم أخرج منها لوحًا من الحجر وضعه أمام قدموس والمعلم. احتوى الحجر على رسومات بدائية، تأملها للحظات ثم قال المعلم:

- يبدو أنها لوحة قديمة يتوارثونها!

قال قدموس:

- تبدو كرسومات الأطفال في الأجورا.

همهم الرجل ببعض الكلمات، وأشار بإصبعه إلى مثلث مرسوم في طرف اللوحة وقال:

- قاقاق!

لم يفهما ما يقول، فتابع وهو يقارب أصابعه ويباعد ساعديه، وكأنه يرسم مثلثًا وقال وكأنه دجاجة:

- قاقاق، قاقاق.

قال قدموس وهو يرسم تلا بيده:

- الجبل.

أومأ الرجل برأسه، ثم أشار إلى خطوط تخرج من رأس المثلث، وحول أضلاعه ثم قال:

- قافتوق، إيمارتوق.

لم يفهما ما يقول، فأمسك الرجل شمعة من الشموع، وأشار إلى شعلتها، ثم قال:

- قافتوق.

فقال قدموس وهو يشير بطرف أصبعه إلى الشعلة:

- النار!

أوماً الرجل برأسه، ثم أشار إلى قدح الماء وقال:

- إيمارتوق.

قال قدموس:

- الماء.

هز الرجل رأسه موافقًا، فردد قدموس الكلمتين وهو يشعر بالسعادة لقدرته على التواصل مع الرجل ذي اللغة الغريبة وقال:

- قافتوق، إيمارتوق، النار والماء.

ثم أشار الرجل إلى رسومات لأشخاص يرفعون أذرعهم، وكأنهم غرقى، ثم حاول قدموس أن يفهم ما يقول، فلم يستطع ولكن المعلم كان قد فهم ما يعنيه الرجل، فقال:

- إنه يخشى أن يغمر الماء والنار قريته!

فأشار قدموس إلى الرجل وجماعته الجالسين حوله، وهو يقول:

- لماذا لا ترحلون؟

هز الرجل رأسه نفياً، وكأنه يرد على سؤاله، ثم أمسك بقطعة من الخبز وقال كلمة لم يفهم قدموس مقصدها، ولكن المعلم قال:

- إنه ينتظر حصاد الشعير!

اندهش قدموس، وقال للمعلم:

- كيف عرفت؟

- رأيت سنبلات الشعير لا تزال خضر على سوقها.

ثم أردف:

- يبدو أن هؤلاء الناس يزرعون في الصيف يا قدموس، ويخزنون ما يزرعونه في الشتاء ولو رحلوا قبل الحصاد لهلكوا فوق تلك الجزيرة.

تركهما الرجل يتحدثان، وحين توقفا، أزاح اللوح الأول، ووضع أمامها لوح الحجر الثاني، كانت عليه الرسمة نفسها للجبل نفسه الذي تتصاعد منه النار، ولكن في الجهة المقابلة كان هناك رجل طويل له رأس كبير أبيض يصنع

جدارًا أمام الجبل. كانت اللوحة لا تحتاج إلى توضيح، رجل ضخم يضاهاى طوله الجبل، يقف أمامه متحديًا ويصنع جدارًا، تذكر قدموس نبوءة الدرويد وقبل أن يشير زعيم القبيلة بإصبعه إلى صورة الرجل، قال قدموس:

- نوادا!

أوماً الرجل برأسه بسعادة. فقال المعلم:

- من نوادا؟

قال قدموس:

- إنه بطل أرض الشمال الذي صنع جدار الجليد ليمنع سورتر سيد النار، وآلهة الظلام من الهبوط إلى الأرض.

تذكر المعلم أنه سمع ذلك من الدرويد، فقال:

- يبدو أنهم منشأ الأسطورة!

انتظر الرجل حتى فرغ المعلم من كلامه، ثم أتى بحركة أثارت دهشة المعلم وجعلت قدموس يفغر فاه، حتى سقط فكه. وضع الرجل إصبعه على صورة نوادا، ثم أشار إلى المعلم وهمهم وكأنه يقول: «أنت نوادا». صمت المعلم ولم يعقب، بينما أعاد الرجل الهمهمة ذاتها، ثم وضع لوح الحجر جانبًا، وأشار إلى أحد رجاله، فأحضر صندوقًا ممتلئًا بالأحجار والأصداف وضعه أمام المعلم، ثم أشار إلى الجدار الذي بناه نوادا. قال قدموس:

- يريدونك أن تبني لهم جدارًا كما فعل نوادا يا سيدي ويعرضون عليك الجواهر والآلئ!

لم يكن المعلم في انتظار تفسير قدموس، عرف ما يريده الرجل، فتنهد ثم أغلق الصندوق وقال وهو يشير إلى شيخ القبيلة والرجال:

- لا أريد منكم مالاً

ثم ضم قبضة يده وأشار إلى صورة الجدار وكأنه يقول لهم أريد منكم القوة! في اليوم التالي دار المعلم حول سفح الجبل الذي كان لا يزال ينفث دخانه في السماء، شعر قدموس بالخوف حين اقتربا من الجبل، وتساءل، إلى متى سيظل ذلك الدخان يتصاعد، ومتى يقوم سورتر من مكمنه؟

تتبع المعلم جدول الماء حتى وصل إلى منبعه، الذي كان ينساب من فوق الجبل بعد أن أذابت الحرارة الجليد فوق قمته. لاحظ المعلم أن الماء ينساب

من مسارات متعددة، ولكنها تبدأ من أخدود واحد يمر بين صخرتين عظيمتين وخطرت في ذهنه فكرة، قال لقدموس:

- لو ردمنا ذلك الأخدود ستتخذ المياه أو الحمم مسارًا بعيدًا عن القرية.

وفي أثناء عودتهما، رآه قدموس ينحني على أرض الجبل، ويلتقط حجرًا أسود، نظر إليه طويلا، ثم حمله معه، وعاد به إلى القرية.

في المساء، كان المعلم يجلس في بيت زعيم القبيلة، وحوله رجال القرية. أعد المعلم شيئًا لم يروه من قبل. صنع جبلًا صغيرًا من الطين، ثم حفر أخدودًا بإصبعه من قمته لسفحه، ثم أمسك قديمًا وصب الماء ببطء عند القمة، فانساب الماء عبر الأخدود الذي حفره، وغمر المساحة أمام السفح. وبعد أن فعل ذلك، أمسك حجرًا صغيرًا وسد به الأخدود في مكان مرتفع، ثم صب الماء ببطء فانساب الماء حتى حزه الحجر، وبعد قليل، شق الماء لنفسه طريقًا آخر، اتسعت أعين الناس وقد فهموا مقصده، وهمموا في فرح، وكأنهم يقولون، هذا هو الجدار!

توقفوا عن المهمة، حين أمسك المعلم بقطعة خشب، وهز رأسه نفيًا وهو يقول:

- لن نستخدم هذا الخشب.

ثم رفع الحجر الأسود الذي أحضره، وقال:

- اجمعوا هذه الأحجار الآن من كل مكان، فسوف نصنع بها الردم.

وبعد أن قام الرجال وانصرفوا، سأله قدموس:

- ما هذه الأحجار يا سيدي؟

ضرب المعلم الحجر بيده في الأرض، فانشقت قطعة منه بدا جوفها بني اللون، أراها لقدموس ثم قال:

- إنها ليست أحجارًا، بل قطعًا من الحديد.

طيف بارد

كنت أسبح في طيف من اللون الأبيض، كل ما يحيط بي يبدو ناصعًا هادئًا كهدوء نفسي المستسلمة، الجدران البيضاء الناعمة، الستائر الشفافة على الواجهات الزجاجية التي تعكس ضوء النهار الأبلج، الأسيرة المصفوفة بأغطية زاهرة، حتى اللوحات المعلقة في الحجرة، كانت بيضاء إلا من خطوط قليلة ملونة، انسابت في هدوء لتكسر ذلك الطيف البارد المحيط بي. سمعت صوت أقدام تقترب، تحمل في طياتها آمالًا وتوجُّسات بعد كل الفحوصات المعقدة التي أجريتها في مستشفى جامعة مارسيليا، والتي طلبها طبيب جراحة المخ والأعصاب الشهير، الذي استقدمه دكتور سلطان من باريس لمناظرتي. وقف أمامي الطبيب ذو الشعر الرمادي الناعم، وخلفه ثلاثة من المساعدين، بدوا أمامي كهيئة قضائية استقرت على النطق بالحكم. ذكرتني ملامحه بالطبيب الذي أصلح عطب أذني قديمًا مع عمي منير، ولكنه لم يكن مبتسمًا مثله، كان وجهه يحمل الكثير من الأسف وهو يقول:

- للأسف مسيو عمر، نتائج الفحوصات أوضحت أنك مصاب بورم نجمي في الفص الصدغي للمخ.

كانت مفارقة أن تكون البقعة التي أُطلقَ عليها مجازًا اسم الثقب الأسود، هي ورم ينشأ من خلايا تدعى الخلايا النجمية، وكأنما قررت تلك النجوم أن تأفل فجأة بعد رحلة قصيرة لم تتجاوز الثلاثين عامًا، وتصنع ذلك الثقب الذي ابتلع ما حولها. استفاد الطبيب في شرح تأثير الورم، ومضاعفاته المحتملة بسبب تزايد حجمه، ونسبة النجاة منه التي لا تتجاوز ثلث الحالات بعد خمس سنوات، وضرورة إجراء الجراحة، حتى تزيد نسبة الشفاء. كنت أستمع إليه وأنا ذاهل عما يقول، أنكر كلماته، وأضعها في خانة الأحلام المزعجة، وأنا على يقين من أنها ستزول بمجرد الاستيقاظ. لكن الصمت الذي أعقبها كان أكثر قسوة وثقلًا حينما سألتني:

- هل تريد أن تستفسر عن شيء آخر؟

كدت أسأله لماذا أنا؟ كنت أظن أنني سأموت مثل أبي وعمي، وأنا على مشارف الخمسين. فلماذا أفلت تلك النجوم اللعينة مبكرًا قبل أن أرى أحلامي تتحقق؟ ولكنني سألته:

- هل هناك أمل؟

- دائمًا الأمل موجود.

- متى تجرى الجراحة؟

- في غضون أسابيع سنبدأ في مخاطبة التأمين، ووضعك على قائمة الانتظار، يمكنك الخروج من المستشفى والاستمرار في العلاج، وسنخاطرك حينما تكون الموافقة جاهزة.

تباعدت خطواتهم، بينما اقتربت خطوات أخرى لم أسمع وقعها إلا حين رأيت صاحبها، كان الدكتور سلطان، وكان يبدو حزينًا وكأنه قد عرف بالأمر قبلي، ولكن احمرار عينيه وذقنه التي رأيته نابذة لأول مرة، جعلتني أدرك أن الأمر ليس حزنًا واحدًا، بل أحزان متعددة. جلس على مقعد إلى جوارى، ثم وضع يده على كفي، وهو يقول:

- لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

ثم أردف:

- إن شاء الله.

كانت أول مرة أسمع فيها هذه الجملة منذ قدمت إلى فرنسا. كان وقعها غريبًا، فأنا لم أشعر يومًا بأنني بحاجة إلى مشيئة غير مشيئتي، كل ما قمت به في حياتي كان من اختياري، فلماذا يتدخل الله لصالحه هذه المرة؟

سألته:

- كيف أصبح الوضع في أيسلندا؟

دلك وجهه بكفه، وكأنه يزيل الإرهاق من عليه ثم قال:

- مأساوي.

سألته مباشرة:

- هل للأمر علاقة بمشروع الشفق القطبي؟

صمت طويلًا ثم قال:

- نعم.

- هل أخبروك قبل إجراء التجربة؟

أغمض عينيه متألمًا ثم قال:

- كلا.

ثم زفر وكأنه يلقي عن كتفيه همًا وقال:

- يبدو أن العبث مع الطبيعة له ثمن باهظ، لا أستطيع تحمله!

- هل ستتخلى عن المشروع؟

- سأعمل على وقفه بكل السبل!

- ونوبل؟

- هناك ما هو أهم من تقدير الآخرين لنا، تقديرنا لأنفسنا!

عدت إلى البيت، فاتصلت بأمي رغم أنني أرجأت الاتصال بها أكثر من مرة قبل ذلك، كنت أخشى أن يفضحني حزني أو تخونني الكلمات فأبوح لها بما يقصم ظهرها، ولكنني كنت بحاجة في هذا اليوم إلى أن أسمع صوتها. سألتني بمجرد أن تحدثت:

- هل أنت بخير؟

- نعم.

- حلمت بك عدت إلى مصر وتزوجت من مريم!

- سأعود يا أمي، فقد أوشكت الرحلة على الانتهاء.

سألتها عن أخبارها وأخبار أمل، فأخبرتني بأن أمل حامل للمرة الخامسة، وأنها قد أجرت اختبارًا بالموجات الصوتية، أكدت هذه المرة، أنها حبلت في ذكر. أما مندور فقد فشل في الانتخابات أمام مرشح الحكومة، ووقعت مشادات بين جماعته، وجماعة المرشح الآخر أسفرت عن اعتقاله عدة أسابيع، قبل أن يسمح له بالخروج بكفالة. ودعتها وأنا مطمئن أن كل شيء ثابت

على الجانب الآخر من البحر. وأن انفجار النصف الشمالي من الكوكب بأكمله لن يلقي بذرة غبار واحدة على قرية ميت البر.

وبدأت في جمع حاجياتي المهمة في حقيبة، حتى أكون متأهبًا للسفر إلى باريس حين يحين موعد الجراحة. وبينما كنت أتخير الأشياء التي سترافقني، في رحلة الذهاب وقعت يدي على الكاميرا، فاكتشفت أنني لم أحمّض فيلمها حتى هذه اللحظة، أصابني الخوف من أن يكون الفيلم قد تلف، وأفقد الدليل الوحيد على اللحظات السعيدة التي عشتها في مارسيليا وكأنها لم تكن! فمن العبث أن يفقد المرء ذكرياته السعيدة حتى وإن لم يتبق له الكثير من الوقت لاسترجاعها. انتزعت الفيلم، وذهبت به إلى معمل التحميض، ففحصه المصور ثم قال:

- به الكثير من الصور التالفة، سأحاول إنقاذ ما أستطيع.

وبعد أيام اتصل بي كي أحصل على الصور التي طبعها، ذهبت متلهفًا. وجدته قد استطاع طبع صور القبة المخروطية، وصور مبنى البورصة، ولكنه لم يستطع أن يحمّض أي صورة لأبريال!

سألته:

- ماذا عن باقي الصور؟

هز رأسه بأسف وقال:

- للأسف تلفت، تستطيع أن تراها فقط في النيجاتيف!

تركته وأنا أشعر بالحزن، ثم عدت إلى البيت، وأتممت تحضير الحقيبة. وضعت بها الصور، ونيجاتيف الفيلم، وقبل أن أغلقها، أمسكت لوحة لأبريال، وقرأت القائمة المكتوبة على ظهرها، تذكرت كل لحظة شعرت نحوها بالامتنان، فمزقني الوجد على ذكريات أمسيت حبًّا على ورق، وصورة محروقة على فيلم لا ينبض بألوان الحياة.

وقبل أن أغادر المنزل فتحت صندوق البريد لأتأكد من أنني لم أنس أية رسائل، ففوجئت بوجود مظروف كبير وصل قبل ساعات. نظرت إلى المُرسِل فابتسمت، وحين فتحت، وجدت رواية بالفرنسية بعنوان جذاب «نبي أرض الشمال» تأليف أحمد رحماني.

المنتظر

انطلق رجال القرية ونساؤها وحتى كلابها في أرجاء الجزيرة يجمعون قطع الصخور الداكنة التي اختبأت تحت الطمي والجليد لآلاف السنين، حتى جاء المعلم، وبعثها من مرقدها. كان المعلم يقف عند فم الأخدود، يشرف على الردم الذي أخذ يتزايد يومًا بعد يوم، حتى ملأ الفراغ بين الصخرتين. ارتفع الردم حتى صار جدارًا عاليًا، فحجز المياه خلفه، وجعلها تشق لها طريقًا آخر بعيدًا عن القرية وحقولها. ورغم فرحة الناس بالسد، لم يكن المعلم راضيًا. كان يرى الماء يتخلل الفجوات بين قطع الصخور، بكميات قليلة، ولكنها أثارت مخاوفه، وجعلته يتشكك في قدرة الردم على الصمود لو زادت كمية المياه أو لو تدفقت الحمم من فوهة البركان. وتمنى لو يسد تلك الفجوات بشيء سائل يمسك قطع الحديد بعضها ببعض. وفي الصباح هلل أهل القرية، وعلت الهمهمات حين رأوا سفينة عظيمة تقترب من الشاطئ، خرج المعلم وقدموس، فإذا بأوتياس يقف فوق الصاري يلوح لهم، والصبيان كاتو وباتو يقفان إلى جوار مكاريوس عند مقدمة السفينة وهما يصرخان من الفرحة. ترقرت الدموع في عيني قدموس، بينما قال المعلم له:

- لقد اخترق كل رجال مارسيليا جدار الوهم حتى الصبيان كاتو وباتو! لم تعد هناك أسطورة اسمها أرض الظلام يا قدموس!

بعد قليل نزل الرجال، واحتضن قدموس مكاريوس والصبيين، بينما شد المعلم على يد أوتياس، الذي قال له:

- لقد سمعنا صوت الانفجار ورأينا سحابة الدخان فسرنا إليها!

ثم أردف:

- لم نكن لنترك المعلم الذي أزال من قلوبنا الخوف وحده!

سأله:

- وكيف أبحرتم وسط قطع الجليد المتجمدة؟!

- غطينا المجاديف ومقدمة السفينة بالجلود حتى تنزلق بيسر!

شعر المعلم بالفخر بتلاميذه، وبأنه ترك أثرًا في أتباعه، وبينما هم يتحدثون، ارتجت الجزيرة بصوت انفجار ثالث، تصاعدت معه قطع من الصخور خلعت قلوبهم

لم يدر أحد كيف فعلها المعلم، أمر الرجال بجمع أكوام من الخشب، والقش، ووضعوها حول ردم الحديد، ثم أشعل فيها النار، في الوقت الذي كان فيه رجال آخرون يصهرون القصدير الذي أتوا به من السفينة، في أفران أقامها المعلم، وجعلهم ينفخون عليها بالأكوار حتى تنصهر، كما تعلم ورأى في أرض القصدير!

تذكر قدموس الحوار الذي دار بين المعلم وقائد الحرس. كان قائد الحرس يشعر بالخوف من تبديد القصدير. فقال للمعلم:

- سيدي المعلم، لقد تكبدنا المشقة من أجل القصدير، ولو عدنا من دونه بعد كل هذه الشهور، للحق بنا الخزي أمام الحاكم ورجال الدولة!

صمت المعلم، ثم قال:

- وأيها أكثر خزيًا أيها القائد، أن نعود من دون القصدير أم نترك مئات الأنفس للهلاك؟!

نكس قائد الحرس رأسه، فتابع المعلم في حسم:

- لن أعود بالقصدير لنصنع به السيوف والدروع وآلات الحرب، ونترك هؤلاء القوم لمصيرهم. فما فائدة العلم والمال، إن لم نؤازر شعبًا ضعيفًا يستجير بنا؟

ثم أردف آمرًا:

- اسمع يا قائد الحرس، بصفتي قائد الحملة أمركم بنقل القصدير من السفينة، وسأتحمل مسؤوليتي أمام الحاكم ومجلس الشيوخ.

اشتعلت النار في أكوام الخشب، التي أحاطت بالردم يومًا كاملاً لم يتوقف خلالها الرجال عن تغذيتها بجذوع الشجر ونفخها حتى استعر الحديد وصار كقطع الجمر المتلظية. ثم انتقل المعلم إلى أفران القصدير فوجده قد انصهر، فقال لقدموس:

- ينصهر القصدير قبل الحديد، ويجف قبله، وإذا أفرغناه الآن على الحديد الساخن، سيصنع سدًا لا يعلوه الماء ولا تخترقه الحمم.

ثم أمر الرجال بأن ينقلوا القصدير في قدور ساخنة محمولة على عوارض من الخشب، وأن يحمل كل قدر رجلان من طرفي العارضة، ثم أمرهم بأن يفرغوها فوق الردم، وتركها حتى تبرد. وفي اليوم التالي ظهر الردم كجدار أملس عظيم يسد الفجوة بين الصخرتين. فوقف أمامه قدموس مندهشًا، وقد شعر بالعجب من تدابير القدر، التي أنفذت الرحلة من أجل القصدير، وجعلت المعلم على رأسها لا لشيء إلا ليبنى ذلك الجدار العجيب في تلك البلاد العجيبة!

وأقام زعيم القبيلة احتفالاً لرجال الحملة، أكلوا فيه طعامًا غريبًا من لحوم الفقمة والحيتان، أعدته نساء القرية ببراعة شديدة.

وبعد أن فرغ الرجال من الأكل منح زعيم القبيلة صندوق الأحجار الكريمة والأصداف واللاكئ إلى المعلم. فقبله المعلم هذه المرة هدية، وطلب من رئيس البحارة أوتياس أن يضمه إلى عقد الكهرمان، ودرع أباريس للذين أهديا إليه من قبل كي يسلمها جميعًا للحاكم.

وبينما كانت الجموع ترقص وتتسامر على ضوء شمس منتصف الليل التي تتوسط السماء، ارتجت الجزيرة ورجفت رجفتها الكبرى، وإذا بفوهة البركان تشتعل وتندفع منها النيران نحو السماء. صرخ أهالي القرية وقد دفنوا رؤوسهم في الأرض، وهم يصرخون في هلع:

- قافتوق، إيمارتوق.

شخص قدموس ببصره في ذهول، وهو يرى النار تتصاعد من الفوهة، لم يدر هل أصابته الصدمة أم أن ما يراه كان حقيقة، امتلأت السماء برائحة نتنة، قبل أن يرى ذلك الوحش المهول، سورتر سيد النار، وهو يخرج من مكمنه، تتعلق أطرافه، بحافة الفوهة، كأذرع أخطبوط عظيم، ثم تمددت ببطء من كل حذب نحو السفح. تعلقت عيناه بتلك الذراع العظيمة التي انسلت فوق الأخدود الواصل إلى القرية، زحفت الذراع، ببطء وهي تفور، وتتنفس بفقايع من نار، شعر حرارتها مع أنفاسه، وبرائحتها النتنة تطبق على صدره، زاغ بصره، وسرى الخدر في رأسه، وهو يراها تقترب من السد الذي صنعه المعلم، فجأة ارتعدت أوصاله، وتلاحقت أنفاسه، وغامت في عينيه الشمس الباهتة، وحل مكانها ليل بهيم، رأى نفسه طفلاً يقف على ضفاف نهر رودانوس في الليل، يتطلع بفضول إلى فتيات الأوديون، وهن يتحمن في مياه النهر خلسة. فجأة خفق قلبه وهو يرى أيولا تصب الماء فوق شعرها المتوهج، تعجب من أن

الماء لم ينسل من بين خصلات شعرها، وكأن رأسها غور عميق. دنت برأسها نحوه، فجأة، فار الماء من حول شعرها المتوهج، وتطاير وكأنه حمم بركان ثائر، تراجع عنها مذعورًا، ولكن قبل أن يفلت منها، غمرته موجة عاتية من الماء، جعلته يستيقظ من نومه فزعًا. استيقظ ليجد مكاريوس إلى جواره يصب الماء على رأسه، وإلى جواره الصبيان، والجميع كان يرقص في سعادة، تساءل:

- ماذا حدث؟

قال مكاريوس:

- نجت القرية، وابتعدت الحمم بعيدًا عنها وسقطت في الماء.

تلفت حوله، كانت الرائحة النتنة لا تزال تطبق على صدره ، قال وهو يشعر بالأعياء:

- أين المعلم؟

أشار مكاريوس إلى المعلم الذي كان يقف بالقرب من السد يراقب الحمم وهي تنسل بعيدًا إلى البحر ويشخص ببصره نحو السماء وكأنه يصلي، اقترب منه قدموس، وقال له:

- لقد هزمت سورتر سيد النار أيها المخلص!

تنهد وقال:

- بل هي رحمة الصانع بهذه القرية يا قدموس، وحين يأذن لتلك النار بأن تفتك بأهل هذه الأرض، فلن

يقف أمامها جدار ولا سد.

ثم صمت قليلًا قبل أن يقول:

- سنستأنف الرحلة إلى مارسيليا بعد أن تتوقف تلك الحمم ويهدأ المحيط، ومن حسن الحظ، أن المحيط سيدفأ، والإبحار في العودة سيكون أسهل.

قال له قدموس:

- هل تشعر بالفخر؟

قال في ارتياح:

- بل أشعر بأنني قد أدت الرسالة.

(41)

الرسالة

امتألت قاعة شيلدون جلاشو بالحضور، في اليوم الأول من مؤتمر الجمعية الفرنسية للفيزياء الجيولوجية. كنت أرتدي بدلة سوداء جديدة بعد أن اتسعت بدلتي القديمة، وارتديت معها رابطة عنق حمراء، جعلتني أبدو متأنقًا. كان الكل يلاطفني، حتى لويي، كان يشيد بأناقتي، رغم طبيعته غير المجاملة.

فجأة وجدت يدًا ثقيلة تربت على كتفي، التفئت فوجدته دكتور صوّان، ابتلغني في حضنه وهو يربت على ظهري بكفه العريض ويقول:

- مبروك يا عمر، فخور بك يا تلميذي النجيب، لقد أتيت خصيصًا للمؤتمر حين وجدت اسمك في البرنامج.

لم تحتل مشاعري الهشة وجوده، فحبست دموعي، وأنا أقول:

- هذه أسعد مفاجأة يا أستاذي الغالي.

أعطى الكاميرا الخاصة به إلى أحد الحضور وطلب منه أن يصورنا وهو يقول:

- سألتقط معك صورة، حتى أعرضها على زملائك في القسم. أنت قدوة للجميع.

بدأت الجلسة، وكان يرأسها الدكتور سلطان. وقف أمام مكبر الصوت وقال:

- والآن أدعو شابًا أتى من الشرق، قضى معنا أكثر من عامين في هذه الدراسة المهمة، وقام فيها بدور فعال، وهو الآن يقدم عرضه الأول في مؤتمر دولي! أرجوكم رحبوا بالباحث عمر القداح.

ضجت القاعة بالتصفيق، وحين وقفت فوق المسرح، شعرت بالقلق من عشرات العيون التي تتطلع نحوي. سحبت نفسيًا عميقًا، ثم حدثت نفسي قائلاً: «هيا يا عمر، هذه فرصتك الأخيرة»، واجهت الجمهور ثم أظهرت أول صورة في العرض للمطربة إيديث بياف صاحبة أغنية الحياة بلون وردي وقلت بفرنسية طليقة:

- La vie en rose

وصمتُ قليلًا كي أستحوذ على انتباههم، ثم قلت:

- كانت هذه هي أغنية الاستقبال لي في فرنسا، وكانت ولا تزال أغنيتي المفضلة، ولكنني حين بدأت دراستي عن البراكين مع دكتور سلطان تغير هذا المعنى.

ثم عرضت صورة على شاشة العرض لبركان ثائر، وقلت:

- فقد رأيت الحياة بلون أحمر.

ضحك الجمهور، فشجعني ذلك على أن أبدأ عرض الأطروحة بثقة، اكتسبتها من مراجعاتي الكثيرة للعرض في الأيام الأخيرة حتى أصبحت أحفظه عن ظهر قلب. كنت أتحدث بلباقة رغم أنها المرة الأولى التي أتحدث فيها بالفرنسية أمام هذا الجمع من العلماء، وكنت أرى نظرات الإعجاب بالبحث في عيون الحضور، ونظرات التشجيع في عيني الدكتور سلطان مع إيماءات رأسه الفخورة بي. انتهيت من عرض الفكرة، ومنهجية البحث والنتائج، وبين الفينة والأخرى

كنت أرى ضوء كاميرا الدكتور صوّان وهي تلتقط لي صورًا كثيرة، وكأنه يريد أن يوثق كل كلمة أقولها، وحين وصلت إلى الخلاصة قلت:

- « إن استخدام الموجات الصوتية في مؤشر مازيس يعطينا أفضلية في طريقة قياس حجم البراكين، وتوقع ثورانها، ولكن...»
صمتٌ قليلًا، ثم قلت:

- ولكن هل حقًا سنستطيع أن نوقف خطرها؟

توجهت نحو منتصف المسرح، ثم ضغطت على زر العرض فظهرت صورة «أحمد رحمانى» تملأ الشاشة وقلت:

- لقد قضى هذا الباحث عشر سنوات من عمره لدراسة البراكين، منها ثلاث سنوات في هذا المكان، وكتب مقالًا أتمنى أن يقرأه كل من في القاعة في يوم من الأيام عن مخاطر الوجود، قال فيه إن البراكين هم السكان الأصليون لهذا الكوكب قبل أن يحل عليه الإنسان ضيقًا، وستظل في صراع دائم معنا حتى تعيد الكوكب إلى صورته الأولى بعد أن تلاعبنا في أرضه وسمائه، ولم نحفظ الأمانة. إن الأديان تخبرنا -كما يقول رحمانى- بأن تحالفًا مدمرًا بين البراكين وموجات التسونامي ستقضي على حضارتنا في يوم من الأيام، قد يكون الآن أو بعد سنوات أو بعد قرون، وأنه لا سبيل لمواجهة هذا المصير إلا بتحالف بين العلماء، لا فرق في ذلك بين شرقي أو غربي، جنوبي أو شمالي، فالكل عليه أن يجابه ذلك الخطر بقدر ما يستطيع. افترض رحمانى أن رجلاً واحدًا نجح بعلمه أن ينقذ قرية من الدمار بالبراكين قديمًا، وأنا على يقين من

أن هذه الكوكبة من العلماء التي تجلس أمامي تستطيع أن تحمي كوكبنا من هذا التحالف المدمر لو امتلكت نية صادقة، ورغبة حقيقية في ذلك، وشكرًا»

ضجت القاعة مرة أخرى بالتصفيق، فلم أتمالك دموعي، تجاوز الدكتور سلطان، أدبيات الجلسات العلمية، وقام من مقعده بوصفه رئيسًا للجلسة، واحتضنني. تلقفت بيدي الأكف المصافحة، وأنا أهبط من المسرح وأسير نحو مقعدي، ابتلغني دكتور صوّان في حضنه مرة أخرى، وهو يربت على ظهري بقوة أكبر، شعرت برعشة في يدي، وببوارد خدر في أصابعي، خشيت أن يتسبب الانفعال لي في نوبة تشنج، ففتحت باب القاعة، ووقفت في الهواء الطلق، مسندًا رأسي إلى الحائط، وأخذت ألتقط أنفاسي بهدوء، وأنا أحاول أن أسيطر على انفعالي.

فجأة، انفتح الباب، ورأيت مايرا السكرتيرة، تقول:

- مسيو عمر هل أنت بخير؟

قلت لها، وقد هدأت قليلًا:

- نعم أنا بخير.

ناولتني حقيبة هدايا، وقالت:

- أحدهم قد ترك لك هذه في مكثبي هذا الصباح.

تناولتها متعجبًا، وحين فتحتها وجدت أسطوانة مدمجة لإيديث بياف، ومعها بطاقة وردية كتب عليها بخط أعرفه جيدًا:

«إلى من لون حياتي بلون وردي، ألقاك في مكان يغمره النور حيث لا ظلام»

انتحرت أبريل، اختارت أن تنهي حياتها بيدها في شقتها بباريس، بجرعة زائدة من المهدئات، مثل مطربتها المفضلة داليدا. أخبرتني صوفي بأنها عادت إلى فرنسا بعد أن ودعت أباهما في إسرائيل، ثم ترددت على معالجتها النفسية التي احتجزتها في مصحة نفسية لعدة أسابيع، حتى تماثلت للشفاء من الاكتئاب، وبدأ أن كل شيء على ما يرام، ولكنها في الحقيقة كانت تعد العدة لشيء أكبر. بكت صوفي وهي تقول:

- قبل انتحارها بيوم، اتصلت بي، وتناولت معي الغداء، ثم أعطتني تلك الحقيبة، وطلبت مني أن أسلمها لك.

سألته في ذهول:

- ألم يبدُ عليها شيء؟

- مطلقًا، كانت طبيعية جدًّا.

ثم أردفت في بكاء:

- بعدها بيومين اكتشف الجيران انتحارها.

بكيت، كما لم أبك من قبل، عدت إلى البيت، وأنا أشعر بجسدي يتحلل، تناولت حبة من شريط الدواء ثم أمسكت بالشريط في يدي، نظرت إليه طويلًا وأنا أتساءل كيف واثتها الشجاعة على أن تنهي حياتها بيدها؟ كيف يستطيع العقل أن ينحاز إلى قرار الفناء ويتجاوز غريزة البقاء. هل كانت تسعى حقًا إلى الموت أم أنها كانت تسعى فقط إلى الصمت، صمت يطفئ صراخها، الذي عجزت أنا وسلطان وأبوها وأمها عن سماعه، وعجزت هي عن الإفصاح عنه. وفي تلك اللحظة قررت أن أتحدث، وأن أبوح بكل شيء، أحضرت شرائط كاسيت، وشرعت أحكي قصتي وأسجلها، سجلت حياتي كاملة في عشرين ساعة فقط! لم أخجل من ذكر شيء، وعزمت على أن أرسل هذه التسجيلات إلى صديقي أحمد عقل، فما أصعب أن يغادر الإنسان الحياة وقد امتلأ جوفه بكلمات لم تُقل. وما أصعب أن يطوى كتاب الحياة من دون خاتمة.

(42)

المحاكمة

امتلت ساحة الأجورا بوفود الناس الذين أتوا من كل مكان، ليشهدوا المحاكمة الكبرى، محاكمة الرجل الذي خرج منذ سنوات ليجلب القصدير، فعاد من دونه ومعه أقاصيص أعجب من الخيال، وأعجبها تلك الأرض التي لا تغيب عنها الشمس، لم تصدق أذانهم شهادات من معه، ولم تصدق عيونهم درع أباريس، وعقد الكهرمان وصناديق اللاكئ التي أتى بها! واتفق الجميع على أنه كذاب! جادلوه حتى أرهقوه فقال لهم متعجبًا: «وهل يستوي من رأى بعينه مع من يتوهم بعقله؟»

كان المعلم يجلس على كرسي المحاكمة، وأمامه جلس أرخي داموس المدعي، بينما جلس في الشرفة الحاكم ماركوس باسيلوس، وبريكليس رئيس مجلس الشيوخ وليوفانوس رئيس الأكاديمية. أما المحلفون فقد جلسوا في الصف الأول من المسرح الذي اكتظ بالجماهير. قال القاضي:

- أنت متهم يا سيد بيثياس بتبديد أموال التجار، والاحتيال على شعب مارسيليا، ونشر الأكاذيب. فما هو دفاعك؟

قال المعلم:

- هذا اتهام باطل؟

- كيف؟

- عدت بالكهرمان والجواهر واللاكئ، وهي أثمن وأغلى من الفضة التي دفعها التجار، فكيف أكون بددت أموالهم؟ وكتبت كتابين عن كل الأماكن التي رأيناها، والشعوب التي قابلناها، وحددت مواقعها على خطوط العرض ومركزها بالنسبة لنجم الشمال. وكان معي عشرات الرجال الذين شهدوا ذلك، فكيف أكون مروجًا للأكاذيب؟

قال الرجل وقد ظهر عليه الاضطراب:

- إذن فأنت تنكر الاتهام!

- نعم.

أشار رئيس مجلس الشيوخ إلى أرخي داموس كي يتحدث، فقام من مكانه، ووقف في منتصف الساحة، لم يواجه المحلفين ولم يواجه الحاكم، وإنما واجه الجماهير المحتشدة، وقال:

- يا شعب مارسيليا، لقد أنفق التجار أموالهم على تلك الرحلة من أجل ملكنا المعظم ألكسندر فيليب، ومن أجل إرادتنا في أن نحرر أنفسنا من جشع القرطاجيين، وأن نصنع السلاح والدروع التي يحتاجها. إن ملكنا المعظم ألكسندر فيليب، لا تنقصه الجواهر واللائي وقد فتحت أمامه قصور صور، وبابل، وسوسة، وبارسيبوليس، فأيهما أهم؛ القصدير أم الكهرمان واللائي؟

هتف العوام وقالوا:

- القصدير، القصدير.

ثم قال أرخي داموس في حماسة:

- يدعي هذا الرجل أنه أتى بالمعرفة، فدعونا نسأل أهل المعرفة.

ثم التفت إلى ليوفانوس، وقال:

- هل سمعت عن شمس تشرق في الليل يا سيد ليوفانوس؟

صمت ليوفانوس، وهز رأسه قائلاً:

- كلا.

- هل سمعت عن بشر يعيشون خلف جدار الجليد؟

- كلا.

- هل سمعت أو سمع أي من البحارة عن جزيرة يفوق حجمها مارسيليا تقع في بحر الظلمات؟

- كلا.

فرفع يديه أمام المحلفين وقال:

- رأيتم، أهذه هي المعرفة التي يدعيها؟!

فجأة ارتفع صوت اقتحم السكون وقال:

- ولكننا كنا شهودًا على ذلك!

التفت الناس فوجدوا الشاعر قدموس، الذي اخترق الصفوف حتى وصل إلى الصف الأول الذي يجلس فيه المحلفون وقال بصدق، وعيناه تكاد تذرفان دمعاً:

- لقد كنا معه، ورأينا كل شيء، رأينا شعوبًا تحج إلى الغرب، وأخرى تعيش على الصيد وثالثة تحفر في الأرض، رأينا من يزرع القمح، ومن يخمر الشعير، ومن يجمع الكهرمان، رأينا شعوبًا لا تفقه الكلام وأخرى تتحدث بأكثر من لسان، رأينا الشمس في قلب الليل، ورأينا الشرق والغرب يجتمعان، ذهبنا إلى ثول البعيدة، وواجهنا سيد النار. تحملنا البرد والخوف والخطر، من أجل أن نعود إلى مارسيليا بالمعرفة، المعرفة التي قال عنها سيدي إنها أثمن من المال وأعظم من الفخر والمجد.

نكس الناس رؤوسهم، فقال بريكليس رئيس مجلس الشيوخ:

- من هذا؟

قال أرخي داموس:

- هذا شاعر مجنون مثل معلمه!

قال قدموس:

- أتقولون لمن جاءكم بالحقيقة مجنونًا؟!

طرده بريكليس، وقال:

- اهبط عن الساحة أيها الرجل، لم يأذن أحد لك بالكلام.

هبط وهو ينظر إلى معلمه بعينين تذرفان الدموع، بينما التفت بريكليس إلى رئيس المحلفين وقال:

- ما رأيكم أيها المحلفون؟

تداول المحلفون الرأي، ثم قام كبيرهم إلى الشرفة، وتحدث إلى بريكليس، الذي مال على أذن الحاكم، ثم على أذن ليوفانوس فهبط ليوفانوس من الشرفة وذهب إلى المعلم بيثياس في مقعد الاتهام، وقال:

- لقد حكموا عليك بالقتل بسم الشوكران يا بيثياس!

تلقى الخبر بابتسامة متهكمة، ولكن ليوفانوس قال له:

- ولكن يمكنك أن تلتمس العفو من أرخي داموس!

هز رأسه وقال:

- بل ألتمس الشكر وليس العفو!

قال في رجاء:

- سيجبرونك على شرب السم يا بيثياس!

- هذا مصير كل من يحارب الجهل يا ليوفانوس.

عاد ليوفانوس، إلى هيئة المحاكمة، ثم همس إلى الحاكم بكلمات آسفة، فوقف بريكليس رئيس مجلس الشيوخ وقال:

- «بعد الاستماع إلى اتهام المدعي، ودفاع المتهم، وآراء المحلفين، حكمت المحكمة الشعبية، بإدانة السيد بيثياس المارسيلى بتبديد أموال المدينة، والكذب على شعب مارسيليا وإفساد عقول أتباعه بالضلالات، وقضت عليه بعقوبة الإعدام شرًّا لسم الشوكران على أن ينفذ الحكم وفقًا لقوانين المدينة، وعلى كل من يردد الأكاذيب التي ادّعاها أن يعاقب بذات العقوبة. الملك .. الشعب .. مارسيليا».

في المساء ذهب إلى الأكاديمية التي حُدِّدت فيها إقامة المعلم لحين تنفيذ الحكم. استأذن الحراس في أن يراه وشفع له ليوفانوس. وحين جلس بين يديه سأله:

- هل تخشى الموت؟

- الموت ليس شرًّا ولا خوف منه، هو انتقال بالنفس إلى عالم آخر!

- لماذا لا تطلب العفو؟

- التوسل من شيم الضعفاء.

- ولكنك لا تستحق الموت!

- الموت هو الاستحقاق الوحيد في الحياة.

- ألا يحزنك الجحود؟

- بلى، ولكنه سيزول.

- كيف؟

- حين يزول الجهل وتتكشف الحقيقة.

ثم أعطاه الكتب وقال:

- ستظل هذه الكتب شاهدة على الحقيقة التي رأيناها، حتى لو لم تتكشف الآن!

- ماذا أفعل بها؟

- انسخها، ووزعها.

- حتى وأنت راحل تنشر المعرفة!

- المعرفة طريق الإدراك، دع الناس يسلكونه وحتماً سيصلون لمنتهاه.

أمره الحارس بأن يغادر، فجثا على ركبتيه وقبل كفه وهو يقول:

- سأفتقدك أيها المعلم!

ربت على رأسه وقال:

- الأجساد ترحل والأفكار باقية.

في اليوم التالي احتشد عشرات الناس من العوام، ومن تلاميذه والبحارة الذين رافقوه في رحلته حول الأكاديمية التي أغلقت أبوابها، ليشهدوا لحظة الإعدام التي سيشرب فيها المعلم سم الشوكران. تدافع الناس وكادوا يحطمون الباب المغلق، لولا أن دفعهم الحراس بغلظة واشتبكوا مع بعضهم. فجأة خرج السيد ليوفانوس، وقال:

- لقد رحل المعلم بيثياس!

قال أحد العوام بغیظ:

- لماذا لم نر إعدامه؟

وقال آخر:

- هذا مخالف لقانون مارسيليا، الإعدام يجب أن يكون علناً!

قال ليوفانوس:

- هكذا أمر الحاكم ماركوس باسيليوس.

فقال أحد التلاميذ:

- نريد أن نرى جثمانه، لنلقي عليه النظرة الأخيرة.

وقال آخر:

- ونريد أن نجهزه للدفن بطريقتنا؟

هز ليوفانوس رأسه وقال في حسم:

- لن يرى جثمانه أحد، ولن يعرف قبره أحد، هكذا أوصى المعلم بيثياس.

ثم التفت إلى العوام وقال:

- هيا، انصرفوا.

ونظر إلى التلاميذ وقال:

- وأنتم أيضا انصرفوا. لقد أتم بيثياس رسالته، وعليكم استكمالها.

سأله قدموس:

- وكيف نستكملها، وقد فرضتم عقوبة على من يردد كلامه؟

- لا تسألني بكيف، فأنت أقرب تلاميذه إليه!

وبينما كان قدموس ومكاريوس عائدين من الأكاديمية وقد حطم قلوبهما،
وجدا الصبيين كاتو وباتو وقد عادا لتوهما من الميناء، بعد أن أبعدهما
مكاريوس عن المكان حتى لا يشهدا تلك اللحظات المؤلمة، مسح مكاريوس
على رأسيهما في حزن، ثم ضمهما إلى صدره، فإذا به يجد ورقة بردي في يد
باتو، سأله:

- ما هذه الورقة يا باتو؟

- رسالة أعطها لي المعلم بيثياس.

قال كاتو:

- بل أعطها لي أنا.

اندهش قدموس، وقال وهو ينتزعها من يده:

- متى أعطها لكما؟

- منذ قليل.

اتسعت عيناها في دهشة، وحين فتحها قدموس، وجد فيها عبارة واحدة:
«ألقاكم في مكان يغمره النور حيث لا ظلام»

ابتعد المركب الذي يقله عن ميناء مارسيليا، وقد دفعت الرياح أشرعته نحو الشرق. أسند ظهره إلى جدار المركب، وتطلع نحو اليااسة، ودّع بعينه تلة دوميز، وتلة النحام، وتلة إخوة بيثاغورس، وميناء عاش فيه عمره كله إلا سنوات ثلاث، كانت أكثر سنوات عمره دهشة. لم يكن خائفاً من أن يضل النوتي طريقه، كما فعل نوتي آخر منذ عقود. صار البحر صديقه الآن، وصار الخوف أيضاً صديقه. أزال المعلم الرهبة من أي شيء من قلبه، من الأرض، والماء والهواء والنار، وحتى من الموت نفسه.

في اليوم السابق ودع معصرته، وقبر أخيه لينوس، وصديقه نقفور. باع معصرته لنقفور بيعة نهائية، ثم جمع ما يكفيه من الأحبار والأوراق، وقرر أن ينسخ كتابي المعلم، ويوزعهما في كل مكان، فإن كان نشر أفكار المعلم جريمة في مارسيليا، فسينشرها في أثينا وصور وأورشليم وطيبة، والإسكندرية. الإسكندرية التي كان يتمنى أن يلقي فيها الشعر يوماً، ولكنه سيحكي فيها عما هو أهم من الشعر، سيحكي فيها عن أسطورة حقيقية وليست من وحي الخيال، عن رجل أضاع بعلمه بحرًا وأرضًا وسما. وبينما كان المركب يشق طريقه لاحت له الشمس وهي تتوسط كبد السماء، تذكر ثول، فأغمض عينيه، وتساءل: متى يلتقي بكل الأحبة مرة أخرى، تذكر حين أخبرته أيولا بأنهما قد يلتقيان في حياة أخرى. لو قدر له أن يختار حياته الأخرى، لاختار أن يعيش في عالم يتجاوز حدود المعرفة إلى تمام الإدراك. العالم الذي قال عنه المعلم، عالم يغمره النور حيث لا ظلام.

(43)

خاتمة

عزيزي أحمد عقل:

أنهيتُ أمس قراءة رواية رحمانى، وأكاد أوقن أنه استلهم أفكارها من تلك النقاشات القليلة التي دارت بيننا. لا أدري لماذا اختار أن ينشرها بالفرنسية. لو قُدِّر لي أن أواصل الحياة، لطلبتُ منه ترجمتها إلى العربية، وربما دعوته إلى أن يرويها جنبًا إلى جنب مع سيرتي في كتاب واحد، إن كان يرى في سيرتي ما يستحق أن يروى!

صديقي العزيز، ربما يكون هذا آخر تسجيل صوتي لي، فأنا الآن أجلس في غرفة تحضير العمليات في مستشفى بيتي سالتريير الجامعي بباريس. حلق الشعر، أرتدي مريولًا أبيض، وأبدو في المرأة ككاهن مصري يوشك على يحنط. أخبرني الطبيب بأن الجراحة ستستغرق بضع ساعات، لم يخفني وقت العملية، بقدر خوفي من أن يزول التخدير وعقلي لا يزال عارياً أمامه. ليت الطبيب يخبرني بعد أن أفيق بما وجده، لا أقصد فيما يتعلق بهذا الورم، وإنما فيما يتعلق بذلك الرأس الذي ضج طويلاً بالأفكار. أتدري يا صديقي أنني لا أشعر بالخوف من الموت؟ ... كلا.. لا تصدقني، فأنا حتمًا أشعر بالخوف. أشعر بالخوف على آمنيات لم تتحقق، وأحلام أجليتها، وأشعر بالرهبة من مجهول ينتظرني. ولكنني في جميع الأحوال على يقين من أنني سأعرف الحقيقة كاملة.

تمت

1/1/2026

شكر وتقدير

خالص الشكر للسير باري كانليف، أستاذ الآثار الأوروبية في جامعة أوكسفورد على كتاب "Extraordinary Voyage of pytheas the greek" الذي كان مرجعًا رئيسيًا وهامًا لهذا العمل، وخالص التقدير لدار الرواق العريقة والمترجمة خميلة الجندي على قيامهم بترجمة هذا المرجع الهام إلى اللغة العربية.

